أوسكار وايلد

Twitter: @abdulllah1994

الكتاب الرابع
٢٠١٧/٨/١٩

De Profundis

من الأعماق

- النص الثابت المعتمد للتصريح المثير الذى أرسله وايلد من سجنه
- تعليقات بقلم : روبرت هارت دافيز
- مقال تحليلى بقلم : د . هـ . أودن
- القصيدة الشعرية عن سجن ريدنج

ترجمة

عبد اللطيف محمد الدمياطى

أوسكار وايلد

DE PROFUNDIS

[من الأعماق]

مع تعليقات بقلم : روبرت هارت دافيز

ومقال تحليلي بقلم : و . هـ . أودن

ثم

القصة الشعرية عن سجن ريدنج

ترجمة

عبد اللطيف محمد الدمياطي

Twitter: @abdulllah1994

د . برفوندى : من الأعماق

لأوسكار وايلد

ترجمة : عبد اللطيف الدمياطى

Twitter: @abdulllah1994

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية محفوظة للناشر

الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٦٧

نشر وتوزيع

مطبعة ومكتبة الدار المصرية

مؤسسة عربية للطباعة والنشر والتوزيع

٢٢ شارع سامي ـ المالية ت : ٣٢٥٧٨

القاهرة ج.ع.م

Twitter: @abdulllah1994

ولد أوسكار وايلد في ايرلندا في عام ١٨٥٤ ، ومات في باريس عن ٤٦ عاما . وقد امتلأت حياته بالنجاح كما شاعت فيها الفضيحة . وكان قد تلقى تعليمه في كلية ترينتي بدبلن ، ثم في كلية مجدالن بأكسفورد ، فأثار الاهتمام في البدء كمؤسس لمذهب في فلسفة الجمال ، وككاتب قصص فكاهية للمسرح . وهو يعتبر اليوم صاحب الفضل في احياء تقاليد المسرح التي جاءت في أعمال كونجريف وشريدان . غير أن أشهر أعماله الأدبية هي قصيدته عن سجن ريدنج (١٨٩٨) ، ورسالته «د برفوندى» (١٩٠٥) . وهاتان القطعتان تتصلان وثيقا بموضوع سجنه بسبب مخالفته تعديلات القانون الجنائي .
وقد قال هكسس برسون ، مترجم حياته ، عن تلك القصيدة أنها « أعنف ما جاء من هذا اللون من الشعر في الأدب الانجليزي » . أما خطابه الطويل الى لورد الفرد دوجلاس في السجن فهو بكل تأكيد من أحسن ما دون في موضوع الكشف عن السلوك الشخصي في أسلوب من البحث العلمي .

وحتى وقت قريب لم يكن النص الكامل لهذا الخطاب قد نشر قط .

Twitter: @abdulllah1994

كتب أفون

قسم من شركة هيرست

٩٥٩ الشارع الثامن

نيويورك ، ولاية نيويورك ، ١٠٠١٩

من خطابات أوسكار وايلد التي قام بطبعها روبرت هارت ـ دافيز ، والخطابات التي قام بطبعها فيفيان هولاند في عام ١٩٦٢ ، والمواد التي أعاد روبرت هارت ـ دافيز طبعها في عام ١٩٦٢ ، بتصريح من شركة « هاركورت بريس والعالم » .

أعيد طبع الخطاب المعروف باسم « د برفوندى » بتصريح من المكتبة الفلسفية . وأعيد طبع مقال « حياة غير متوقعة » الذى نشر في مجلة الـ « نيو يوركر » في عام ١٩٦٣ ، بتصريح من و . هـ . أودن .

Twitter: @abdulllah1994

نبذة عن هذه الطبعة

ان محتويات هـذه الطبعة من خطاب « د برفوندى » De Profundis وما يتصل به من مواد ، قد أخذت من طبعة روبرت هـارت ـ دافيز Robert Hart-Davis من خطابات أوسكار وايلد ، التى قامت بنشرها شركة « هاركورت بريس والعالم » "Harcourt Brace and World Inc." .

وقد بذلت كل عناية للاحتفاظ بمضمون مستر هارت ـ دافيز وقصده من التعليقات ، وكل ما حدث من تغييرات هو :

(أ) تغيير أرقام التعليقات ، ليكون هناك مطابقة فى الطبعة المنفصلة .

(ب) تحقيق ذاتية بعض الشخصيات التى جاء ذكرها فى خطاب « د برفوندى » بغير توضيح كاف ، بسبب التكلم عنها فى خطابات أخرى من المجموعة .

وقد قام بهذا العمل مستر هارت ـ دافيز ، واعتمد التغييرات فى هذه الطبعة .

أما المقال الاستهلالى « حياة غير متوقعة » بقلم و . ﻫ . أودن W. H. Auden ، فقـد ظهر لأول مرة فى العدد الصادر فى ٩ مارس سنة ١٩٦٣ من مجلة الـ « نيو يوركر » .

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

مقدمة المترجم

الحياة مشكلات متتابعة ، وبقدر ما تكون المشكلة عميقة الجذور بعيدة الغور يتأتى منها من المعانى ما يضيف جديداً إلى الحياة .

ولقد كانت حياة أوسكار وايلد مشكلة فريدة في نوعها . فهى مشكلة النفس الحساسة التى يدفعها الطموح صعداً فتدرك من معانى الحياة ما يشحذ قريحتها ويلهب عاطفتها . فإذا ما نالت فى هـذا مبتغاها وقفت مترددة عند نقطة خطيرة : فهى قد استوفت حظها من تجاوب العاطفة وتكامل المعرفة فى نطاق المعروف والمألوف ، فهل تقف عند ذلك الحد ؟ إن الطبيعة مزيج من الخير والشر . وهى تتمثل فى طبيعة الإنسان التى اجتمعت فيها المتوافقات والمتناقضات . وطبيعة الإنسان تتمثل فى الغريزة بما تنبض به من أحاسيس وتذخر من انفعالات . ولقد استطاع الإنسان أن يهذب فى هذه الغريزة ويصقل من جوانبها فى إطار ما تكون من مفاهيمه للحياة ، وبمقدار ما أدركه من معانيها ؛ غير أنه أهمل جانباً

Twitter: @abdulllah1994

كبيراً هو ذلك الذى تواضع الناس على اعتباره الجانب المنحط ، فلم يطرقوا بابه تعففاً ، ولم يحاولوا أن يعرفوا ما وراءه ؛ وبذلك بقى جانب من أسرار النفس يحوطه الغموض ويحجبه ستار من التحرج .

لقد قال سقراط : اعرف نفسك تعرف الكون ! فهل يكتفى فى معرفة النفس بما هو ظاهر منها فقط ، وهو ما قتله الناس بحثاً ، وقلبوه على كل وجه ؟ إذن ما هو الجديد فى ذلك ؟

لو كان وايلد قد اتجه فى بحثه فى الجانب الخفى من الحياة إلى مجال المعروف والمألوف لخفت مهمته وقربت غايته ؛ بل إنه كان مستطيعاً أن ينال الكثير من الحمد بدلا من أن يتناوله الذم لو كان قد سلك طريق التجربة فى غير ذلك المجال الذى يتباعد الناس عنه علانية ثم لا يمالكون بدافع من الغريزة الملحة أن يقتربوا منه خفية ، ولو بدافع من حب الاستطلاع ! فقد رأينا البعض من العلماء يحمل نفسه المتاعب ويعرضها للمخاطر ؛ ولا يحجم عن إجراء تجربة فى نفسه قد تودى بحياته لمعرفة مدى تأثير الميكروب فى الجسم ؛ فلم ينكر الناس فعله ، ولم يجحدوا فضله ، بل رفعوه إلى مصاف الأبطال . أما وايلد فقد كان سيئ الحظ بالرغم من تضحيته التى بلغت حد إنكار ذاته بصورة تامة ؛ فقد اتجه إلى مجال العلاقات الجنسية بما نسج عنها منذ القدم من أساطير وما شاع من أقاويل تكوّن من صحيحها وفاسدها سد منيع تقوم عليه حراسة مفزعة مما اصطلح على تسميته بالانحراف والشذوذ وغير ذلك . فكان من الطبيعى أن تتعثر قدمه وأن يُساء فهم قصده ، وأن يشك هو نفسه فى أمره ، ولا سيما بعد أن منى بأسوأ صداقة ووقع تحت طائلة قانون لا يطبق إلا للنكاية والانتقام ! ومع ذلك فقد كان فناناً ، كما قال عن نفسه . والفنان

Twitter: @abdulllah1994

الصادق يعلم أن النفس أجدر بالبحث ؛ فهى مبعث الأحاسيس التى تخلق وتبدع ، وهى مصدر الانفعالات التى تحيل القبيح إلى جمال . وحقاً إن الجسم له أهميته فى هذا الشأن ؛ غير أن الوسيلة لا تصل فى أهميتها إلى المصدر . ثم إن الجسم يتحلل ويتلاشى ، وهو ما لم يعرف عن النفس التى يجب الاعتقاد بخلودها طالما كنا نعتقد بخلود الحياة . والفنان يعلم أن الآراء فى الخير والشر والسمو والانحطاط تتضارب منذ القدم ، وتتفاوت دائماً تبعاً للمفهوم السائد ؛ وهو يعلم أن الناس لا يستطيعون أن يلتقوا فى ذلك مهما حاولوا ، فلكل له رأيه ، وكل له حكمه ؛ وبما أن مصدر ذلك كله هو الغرائز ، بما ينبعث منها من أحاسيس وينبع من ميول ، فطبيعى أنه لا يمكن وضع الأمر على مستوى واحد من الفهم والإدراك . ثم إنه يعلم أن الأحكام النهائية فى ذلك لما تتقرر بعد ؛ ولا يمكن أن تتقرر طالما كان جانب من النفس البشرية مجهولا ، وربما كان أهم جوانبها ، وهو ما تنطوى عليه الغريزة من أحاسيس وانفعالات لا يمكن أن تتبدى ما لم يكن هناك باعث .

وهكذا استطاع وايلد أن يتغلب على محنته وينتصر فى هزيمته بتلك الفكرة التى آمن بها وظل يرددها طول حياته ، وهى أن الفن فوق الحياة . وكأنى به أراد أن يقول إن الحياة بغير فن لا تزيد عن جماد صامت أو حيوان ناطق ، وهو ما لا يدخل فى حساب الحياة بالمعنى الذى وصلت إليه عن طريق الفن . فنحن نعلم أن العالِم يهدف ببحثه إلى إيجاد نوع من الحياة أفضل ، وكذلك يفعل المفكر . وإنما ينفرد الفنان بأنه إذ يفعل ذلك يحاول أن يفيض على الحياة من وجدانه وأحاسيسه ومشاعره ما يشيع فيها روح الجمال ويهدف بها إلى الكمال . وهو يفعل ذلك تبعاً لدرجة وصوله هو نفسه إلى هذه المعانى وبمقدار ما تذوقه منها . غير أنه

Twitter: @abdulllah1994

لا يستطيع أن يمضى فى هذا طالما كان عقله مقيداً بالسائد من الآراء . وهذا أمر طبيعى ، فهو يتطلع إلى أكثر مما عرفه الناس ، فكيف يصل إليه إذا كان مقيداً بما عرفوه ؟

فالفنان إذن لا يأخذ بمقاييس غيره فى تحديد جوانب الصعود والهبوط فى الحياة ، لأنه هو وحده القادر على التحديد بتلك الانطلاقات التى لا يحدها عرف ولا يقف فى طريقها تقليد .

***

من الخطأ أن نتجاهل هذه الحقيقة ، وهى أن التجربة وحدها هى التى تؤدى إلى الكشف عن جانب من الحقيقة . وإذا كان هذا لا يدخل فى حساب السواد فإن المفكرين يدركونه جيداً ويأخذون به . ويكفى أن نشير إلى مثل واحد . فقد قام فرويد بأبحاثه المعروفة فى حقل علم النفس ، واتجه فى بحثه إلى الناحية الجنسية ، فأخذ يعالج كل ظاهرة ويلقى ضوءاً على كل غامضة ، ثم خرج بنظريات عظيمة اهتز لها الرأى العلمى ووافق على صحتها أكثر الناس . ثم وضح أخيراً ما كان خافياً ، إذ بينما كان عاكفاً على دراساته التى أثارت اهتمام الخاص والعام ، كان منساقا فى نفس الوقت فى تيار عاطفى مع امرأة أخرى ركز عليها كل أحاسيسه وحصر فيها كل مشاعره . وليس لهذا من تفسير سوى أنه لكى يصل إلى جديد فى ذلك المجال كان لابد من أن ينطلق بأحاسيسه ومشاعره خارج حدود المعروف والمألوف .

والحقيقة اننا لو اطلعنا على ما تخفيه حجب المعروف والمألوف لرأينا اننا نحن الذين نتخفى وراء هذه الحجب . وبمعنى آخر أننا نتجاهل الواقع

Twitter: @abdulllah1994

بغير أن نستطيع منع وقوعه ، إذ أن هذا من المحال . فالغريزة لا يمكن أن تقاوم طالما كان في الإنسان حياة . وهي حينما تواجه عقبة تتحول إلى طريق يسهل أمامها ، شأنها شأن تيار الماء الذي يستقيم أو يتعرج تبعاً لسهولة المسلك . وهذا يحدث مع جميع الناس باستثناء من يعانون من علل مرضية . وهو إن لم يتخذ مظهره في النشاط الجنسي يتخذ مظاهر أخرى في السلوك العام . والسؤال الآن هو : هل من الصواب أن نتهم قوانين الطبيعة بالقصور عما نتصوره من انحراف فيها وشذوذ ، أم إن مثل هذا الاتهام يجب أن ينصب علينا نحن ، لعجزنا عن وضع أنظمة تكفل التوافق مع تلك القوانين بدلا من معارضتها ؟ إن هذا الأمر نفسه يوضح مبلغ ما أدركناه من حقائق الكون .

والواقع إن آثار الكبت الغريزي لاتنحصر فيما يتبدى في السلوك الجنسي مما يعتبر إنحرافا أو شذوذا ، بل أنها تؤثر في السلوك العام للشخص وفي آرائه وتصرفاته . وإنما اتجه الاهتمام إلى الناحية الجنسية بسبب ما تكون حولها من آراء فاسدة منذ القدم ، فقد حال جهل الناس بحقيقة النفس دون إدراك أسباب ذلك الصراع الذي يقوم في داخلها بين غريزة دافعة تستمد قوتها من قانون الكون ورأى سائد يفرضه العرف والتقليد . وهكذا بقيت علة هذا الكبت فاشية ، يعاني منها كثير من الناس فلا يسعهم إلا أن يكتموا أمرهم ويتستروا على ميولهم خشية أن ينالهم القدح والذم . غير أن التطور الفكري استطاع تدريجيا أن يوضح بعض جوانب هذه الناحية الغامضة العويصة . وكان من الطبيعي أن يتناولها رجال علم النفس في بحثهم عن خصائص النفس وميولها وما ينتابها من علل وأسباب تلك العلل . كما كان من الطبيعي أن يجهر

Twitter: @abdulllah1994

بعضهم بآرائه التي تستند إلى التجارب العلمية ، بالرغم مما فيها من معارضة للآراء السائدة ، فالعلم لا يدخل في حسابه أي تقليد جائر أو عرف جائر .

ومن الخطأ كذلك أن نعتقد أن الدين قد حال دون الإنسان ومعرفة حقيقته ، بل على العكس أنه حثه على ذلك . ولا عجب ، فالدين يقوم على العاطفة قبل أي شيء آخر . ولما كانت الغريزة مبعث العاطفة فقد كان لا بد من البحث في كنهها وتعرف أسرارها . وإنما كان للدين نهج آخر ، فهو لم يقف بالإنسان عند حد معرفة ما ينبعث في غريزته من أحاسيس وما يلتهب فيها من عاطفة ، بل أراد له أن يعمل على السمو بهذا كله . وهذا بالطبع لا يمكن إلا بعد تعرف الجوانب الخافية من الغريزة وإدراك أسرارها .

ولعلنا نرى صدى لذلك فيما جاء في رسالة وايلد ، فهو إذ يبدي ما يفهم منه أنه يؤمن بالمثل العليا وكل ما تهدف إليه الحياة من معاني السمو ، يقول أنه يؤمن بنفسه أولا ، وبما ينبعث منها من أحاسيس ، وما تدفع إليه من ميول .

وبدافع من ذلك الإيمان نفسه اتخذ طريقه هبوطا لتعرف ما تنطوي عليه غريزته من أحاسيس وانفعالات لم يكن في استطاعته إدراكها بغير ذلك . فكان ما لم يتوقعه ، إذ أدى الأمر إلى فضيحة كبيرة أطاحت بمجده الأدبي وقضت على آماله ، وجعلته يقضي بقية حياته القصيرة في بؤس لم يخفف منه إلا شيء واحد ، وهو التواضع ، فقد وجد فيه سلاحاً استطاع به أن يكسر شوكة ذلك الطموح ، أو الغرور ، الذي دفع به إلى تلك المحنة القاسية .

Twitter: @abdulllah1994

ترى أكان وايلد مخطئاً في اتخاذ ذلك النهج ؟ هذا ما توضحه رسالته التي كتبها ، وهو يعاني شر ما عاناه إنسان ، فجاءت تعبيراً صادقاً عما خالج نفسه ، وتفسيراً واضحاً لما كان يشعر به من أحاسيس وانفعالات ، ليتحول هـذا كله إلى ضوء قوي يكشف لنا عن الـكثير من حقائق الحياة ومعانيها في أصعب جوانبها طريقاً وأشقها مسلـكا .

وحتى لو كان أخطأ في ذلك كله ، فيكفي أن يكون قد أخرج لنا درساً نتعلم منه كيف يستطيع المرء أن ينتصر على الهزيمة مهما تحطم وضاع . فقد أعلن أنه راض عن كل ما فعل ، وراض عن كل ما جاء نتيجة لما فعل . ثم أغلق الطريق على كل لائم بقوله أنه يجد الراحة كلها في التواضع الذي جعل منه بديلا للغرور .

لقد حاول مستر و . هـ . أودن أن يحلل نفسية وايلد في مقالته التي صدر بها هـذا الـكتاب . وكان مما قاله أنه لم يكن كاتباً بقدر ما كان متحدثاً . وكان أحرى به أن يقول إنه لم يكن متحدثاً بقدر ما كان معلماً . فهو حينما يتحدث في رسالته إلى صديقه العابث الفرد دوجلاس يتخذ موقف المعلم المدرك من التلميذ القاصر ، ثم يسترسل في إبداء آرائه في الحياة ، متحرراً من قيودها ، ساخراً من أوضاعها . وهو إذ يفعل ذلك يحاول أن يقضي على الغرور الذي استبد ، لا بنفس صاحبه ، بل بنفسه هو .

ترى هل استطاع أحد من الذين اطلعوا على قصة وايلد أن يدرك أنه بشذوذه ، مفهوماً كان أو مجهولا ، قد سلك ، من حيث لا يدري ، طريق المتصوف الذي ضرب عرض الحائط بهـذه الحياة الدنيا بكل مظاهرها ومفاتنها ؟ لا أعتقد ذلك .

Twitter: @abdulllah1994

كلمة عن هذه الترجمة :

يظهر هذا الكتاب بالعربية لأول مرة ، ترجمةً عن طبعة « دار أڤون » التي ظهرت في عام ١٩٦٤ ، كما أشير في الصفحات السابقة . وقد حرصت في الترجمة على إظهار المعنى الذي قصده الكاتب بقدر ما أعان الجهد على متابعة انطباعاته ، والإحساس بانفعالاته ؛ وهو أمر ليس بالهين . إذا ذكرنا أن الرجل كان فناناً يهمه التنسيق في المبنى بقدر ما يهمه التوضيح في المعنى ، وأنه قد كتب رسالته بينما كان يعاني من آثار نكبة دمرت حياته . ومع ذلك فقد جعلته حالة اليأس التي وصل إليها حينئذ يترفع بمشاعره ويتسامى بمداركه ليرى ما في هذه الحياة من نقائص وشوائب ، ومتناقضات ومغالطات . وكان في هذا كله حافز للتعبير عن آرائه التي أترك للقارئ نفسه أن يصدر فيها الحكم . فإن كان لي أن أقول شيئاً في مسلك وايلد بصورة عامة ، فهو أنه عنى بمن لا يستحق العناية ، وأعطى الجوهر لمن لا يتطلع إلى غير القشور ، وحقا إن الحب والبغض لا يجتمعان في النفس الواحدة ، كما قال ؛ غير أن الحب يجب ألا يعطى لغير أهله ، وإلا كان معطيه كمن يسكب زيتاً نفيساً فوق كثيب من الرمال . والواقع أن القارئ نفسه قد يشعر أحياناً بشيء من الغيظ حينما يراه يحاول أن يعطى نفسه بما تبدى فيها من أصالة لشخص ضحل العقل جامد الشعور ، لم يفهمه ولم يتجاوب معه إلا في حيز إشباع الحقير من الرغبات ، ولم يتجه إليه إلا بدافع من عقله الباطن للتعويض عما فقده مع أبيه ، أو لمبادلته بغضا ببغض ، على حساب مشاعر وايلد وأفكاره وغاياته في الحياة ، بعد أن وجد فيه ذلك الصديق الجاهل خير وسيلة لذلك ! وإنما نعود فنقول إن الحب إذا تمكن صار من

Twitter: @abdulllah1994

كيان الشخص نفسه ؛ فهو يجعله يرى الشين زيناً ، بل ويحمله أحياناً على مغالطة نفسه فى حق واضح .

ولقد قمت بترجمة هـذا الـكتاب فى ظروف لم تـكن مساعدة من جميع الوجوه . فقد سبق أن تقدمت به إلى « الدار المصرية للتأليف والترجمة »[1] التابعة لوزارة الثقافة ، فلم أر أى اهتمام . وكنت قد تركت عملا فى البلاد السعودية وعدت مختاراً إلى هذه البلاد ، وقد صح عزمى على ترجمة مثل هـذه الـكتب ، إن وجدت طريقاً إلى ذلك . غير أن هذا لم يحدث ، مع الأسف . فقد أمضيت أكثر من عام وأنا أتردد على المؤسسات العامة والخاصة ، مبدياً استعدادى للتأليف والترجمة ، فلم أصل فى ذلك إلى شيء . وأخيراً قدمته إلى صاحب الدار المصرية للطبع والنشر والتوزيع » فرأى أن يخرجه فى جزئين بسبب ما أوجبتـه الظروف الراهنة . فلم يسعنى إلا أن أوافق . وقد راعيت أن يكون ترتيب الـكتاب كما كان فى الطبعة الإنجليزية ، مع استثناء واحد ، وهو تقديم القصيدة على الخطاب ، فقد كانت أول ما نشره وايلد عقب خروجه من السجن . وكان هذا من ضرورات العمل ، بعد أن حكم الظرف بإخراج الـكتاب فى جزئين .

وكنت بعـد أن تخليت عن ذلك العمل قد أخرجت كتاباً عن « چان دارك » دعوت فيه إلى الوحدة الإنسانية فى شمول ، فلم يلتفت أحد — مع الأسف — إلى هذا الغرض الإنسانى ، بالرغم من وضوح ما فيه

---

(١) الدار المشار إليها قد أدمجت فيما بعـد فى دار الـكاتب العربى وغيرها تحت اسم « المؤسسة العامة للتأليف والترجمة » .

Twitter: @abdulllah1994

من فائدة ، فكان من الطبيعى أن أفكر فى الإمساك عن الكتابة ، بعد أن تبينت أن من يسير فى هذا الاتجاه لا يستطيع أن يحصل حتى على لقمة العيش فى أضيق حدودها ! ولما كنت قد أشرت إلى قصتى فى خاتمة كتابى عن چان دارك ، فليس ثمة ما يدعو إلى الدخول هنا فى تفاصيلها (١) .

وإنما كان يجب أن أتم ترجمة هذا الكتاب ، بعد أن أنجزت منها قدراً كبيراً ، معتزماً أن يكون هذا آخر عهدى بالكتابة فى مجال هذه اللغة ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

القاهرة — أكتوبر ١٩٦٧

عبد اللطيف محمد الدمياطى

---

(١) انظر : « جان دارك : عرض وتحليل وتعقيب » ، بقلم عبد اللطيف محمد الدمياطى — مطبعة الدار المصرية — ٢٢ شارع سامى بالمالية — القاهرة .

Twitter: @abdulllah1994

حياة غير متوقعة

بقلم : و . هـ . أودن

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

حيــاة غير متوقعة

بقلم : و . هـ . أودن

عند ما كنا صغارا تعلم أكثرنا أنه ليس مما يشرف أن يقرأ المرء خطابات غيره بغير إذنه . وأعتقد أننا ، حتى بعد أن أصبحنا أدباء ، لم ننس ذلك الدرس المبكر . فحتى لو كان الأمر يتعلق بواحد من المشاهير توفى فإن هذا لا يعطينا الحق فى الاطلاع على مراسلاته الخاصة ، فضلا عن نشرها . إذ يجب أولا أن نوجه إلى أنفسنا سؤالين . الأول : هل يهمه ذلك ؟ والثانى : هل المحتويات ذات قيمة تاريخية تسوغ نشرها ، حتى لو أهمه الأمر ؟ أما فى حالة الكاتب المطبوع على كتابة الرسائل ، ولنقل مثل هوراس والبول ، الذى يرى أن كتابة الرســائل ضرب طبيعى و « غير شخصى » من الإنشاء الأدبى لا يختلف عن الشعر أو القصص ، فإن المرء يشعر بوجه عام أن مثل هذا الكاتب يسره أن يطلع الناس على رسائله . كذلك فى حالة رجال الأعمال ، كالساسة والقادة وغيرهم ، ممن تؤثر قراراتهم فى تاريخ المجتمع الذى يعيشون فيه ، من حقنا أن نعلم أن

Twitter: @abdulllah1994

كل شيء عن حياتهم يلقي ضوءاً على أعمالهم العامة . وإنما يختلف الأمر فيما يتعلق بالكتاب والفنانين ؛ فبعضهم قد يكون مفطوراً على كتابة الرسائل كذلك ، غير أن الكاتب المتوسط الإنتاج ، شاعراً أو قصاصاً أو كاتبا مسرحيا ، يكون في الواقع جد مشغول ، وهو يركز غالباً على نفسه بصورة تجعل من الصعب أن يبذل كثيراً من الوقت أو يتحمل عناء في مراسلاته . فإذا فعل ، وحيثما أتاح له الظرف أن يفعل ، فإن خطاباته تكون غرامية غالبا . وإذ كانت حياة الفنان الخاصة لا تلقي قط ضوءاً هاما على أعماله ، فليس من الإنصاف أن يتطفل الغير على خصوصياته ..

وهكذا فإن خطابات كيتس إلى فانى براون ، وخطابات بتهوفن إلى ابن شقيقته كان يجب ، إما ألا تنشر بتاتا ، أو تنشر غفلا عن الاسم ، كما يحدث في عرض قصص في حالات علم النفس .

ماذا إذن عن خطابات أوسكار وايلد ؟ أهناك ما يسوغ نشرها ؟ شيء ما ، لدهشتي ، يجعلني أقول بلى ! لقد قال ييتس عن وايلد أنه كان يبدو كرجل أعمال أكثر من أن يكون كاتبا . وأعتقد أن ما كان يجب أن يقوله هو أن وايلد ، سواء كعبقري أو كرجل تحكم القدر في حياته ، كان « ممثلا » في المحل الأول . حتى أولئك الذين عاصروه وأعجبوا بكتاباته لم يسعهم إلا أن يسلموا بأن أسلوبه الكتابي كان أقل مستوى من أسلوبه الخطابي . وكان من أشد حوافز إلهام مخيلته وجود مستمعين يحس وجودهم ، وما يتأتى منهم من تجاوب سريع . ولقد قام وايلد في البدء بتمثيل حياته ، واستمر يفعل ذلك حتى بعد أن انتزع القدر اللعبة من بين يديه . فالتمثيلية في جوهرها إفشاء ، وعلى المسرح

Twitter: @abdulllah1994

لا تخفى الأسرار . ولذلك فإنى أشعر بأنه ليس هناك ما يرغب فيه وايلد أكثر من أن نعرف عنه كل شيء . ثم يبقى السؤال عن موقف أولئك الذين تلقوا رسائله . فالواقع إن هذه الرسائل لم يتح نشرها إلا بعد أن مات أكثر أصدقائه المقربين : الفرد دوجلاس ، وروبي روس ، وروجي تيرنر ، ومور أدى ، وغيرهم ، وذلك بسبب ما تضمنته من إشارات إلى ميولهم الجنسية الشاذة . وباستثناء واحد ، فإن الكشف عما كان فى كل الأحوال سراً مكشوفا لم يكن ليسبب لهم أقل إحراج ، وهو أمر تافه إذا ما قورن بما كشفت عنه تلك الرسائل من ولائهم وشفقتهم وسماحتهم مع وايلد فى وقت كان يجب فيه على من يعتبر نفسه صديقا له أن يكون على جانب كبير من الشجاعة الأدبية . وهذا الاستثناء هو ، بطبيعة الحال ، لورد الفرد دوجلاس ، الذى تبرز صورته من تلك الرسائل كشخص شرير ، ساعٍ وراء المال ، محدث نعمة ، مضاد للسامية — صورة مفزعة لشخصية حقيرة غبية لا يمكن أن تقال عنها كلمة خير . وربما استطاع المرء أن يشعر بشيء من الرثاء له لو كان أمسك لسانه بعد الواقعة المفجعة . غير أنه لم يفعل . فهو لم يقف عند حد كتابة قصة علاقتهما التى ملأها بالأكاذيب ، بل جرؤ على أن يسبغ على نفسه جواً من الفضيلة ؛ ولذلك فإن من العدل أن تعرض شخصيته على حقيقتها .

وكما أشارت جميع الصحف بحق ، فإن مستر روبرت هارت دافيز ، وهو الذى جمع خطابات أوسكار وايلد ، وقد نشرت بواسطة « هاركورت بريس والعالم » ، قد قام بعملية نشر محكمة لا شك فى أنها كانت صعبة للغاية . فقد كان خط وايلد صعب القراءة ، وكان من النادر أن يؤرخ خطاباته . وقليل ممن ابتدروا الكتابة عنه يمكن الاعتماد

Twitter: @abdulllah1994

عليهم على أساسٍ من تقرير الحقائق . كما أن بعض خطاباته قد شوه ولا يزال بينها عدد مزيف . ولقد قام مستر هارت ـ داڤيز بطبع جميع الخطابات التى نجح فى جمعها ، وقد بلغ عددها ١٢٩٨ خطاباً ، باستبعاد ماتى مذكرة مختصرة ليست بذات أهمية . أما الحواشى والفهارس التى قام هو بوضعها فإنها تقدم المعرفة الأساسية التى يتطلع المرء إليها . والواقع أنى لم أقرأ قط كتاباً كهذا يستطيع المرء فيه أن يرجع بسهولة إلى حاشية أو يقوم بتحقيق معارض .

لقد كانت حياة وايلد مأساة . وبقراءة خطاباته فى تعاقبها يشعر المرء بإثارة كتلك التى يشعر بها حينما يشاهد مأساة إغريقية يعلم فيها المشاهدون ما هو فى سبيل الحدوث بينما لا يعلم البطل شيئاً من ذلك . وتبدأ الرواية فى جامعة أكسفورد خلال سنوات ١٨٧٠ وما بعدها . وعلى المسرح يشاهد وايلد واثنان من ظرفاء الطلبة هما ريجنالد هاردنج ووليم هارد . وقد قدر على أحدهما أن يصبح سمساراً وعلى الآخر أن يصبح محامياً فى برستول . وحينما أتذكر أيامى فى أكسفورد أتصور أن خطابات وايلد إليهما لا بد أن تكون قد امتلأت بالاكتشافات الأدبية والإطناب المبالغ فيه لهذا المؤلف والنقد الذى لا رحمة فيه لذاك ، أو بالمحادثات الفلسفية . غير أنها لم تكن أدبية ولا عقلية . ومن النادر أن تجد فيها كلمة عن الشعراء « المحدثين » فى تلك الفترة ، من أمثال سوينبورن ، وموريس ، وروسيتى ، وجيمس تومسون ، وكوفنترى باتمور . والحقيقة أن القصيدة الوحيدة من بين الجميع التى تكلم عنها فى حماس هى قصيدة مسز براونينج « أورورا لى » التى يضعها فى مستوى « هاملت » و « فى ميموريام » . وإذا اقتبس تعليقه على

Twitter: @abdulllah1994

تلك القصيدة غفلا من الاسم فاعتقد أن أحداً لن يستطيع أن يحدس من هو المؤلف، فهو يقول :

« ... إنه واحد من تلك الكتب التي كتبت مباشرة من القلب ، وكتبت ، فضلا عن ذلك ، من قلب كبير . ومثل تلك الكتب لا تسبب للمرء الملل قط ؛ وذلك لأنها كتبت بإخلاص . إننا نحل الفن ، ولكننا لا نحل الطبيعة ، بعد أن قطعنا شوطاً في التدرب على فلسفة الجمال » .

ونقص الاهتمام بما يكتبه الآخرون ، وفي الحالة النادرة حينما يجب الاهتمام ، ونقص الحكم النقدي الحساس ، هما من خواص خطابات وايلد حتى نهايتها . ومن بين الشعراء الذين كانوا بادئين في نشر أعمالهم بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩٩ أربعة فقط قدر لهم أن يعيشوا ، وهم بريدجز ، كيبلنج ، ييتس ، وهاوسمان (ربما أضفت إليهم أنا شخصيا كانون ديكسون وأليس مينل ، غير أنهما لم يقرأا بصورة واسعة وليس من المحتمل أن يقرأا) . ولم يحدث قط أن أشار وايلد إلى شعر بريدجز أو كيبلنج ، أما عن ييتس فقد عرفه شخصيا ، وربما كان قد قرأ له . وأما هاوسمان فقد أرسل إليه نسخة من « ولد من شروبشير » ؛ ومن الأسلوب والموضوع لا يسع المرء إلا أن يتوقع أنه كان متفقاً معه في المشارب بصورة استثنائية . غير أنه لا يبدو قط أنه أدرك أن شعر الاثنين كان من نوع يختلف بصورة تامة عن شعر الآخرين ، ولنقل عن شعر داوسن أو جالين . كذلك لم يكن وايلد ، كما أعتقد ، مخادعاً لنفسه حينما قام في سخف بتقدير ما نظمه دوجلاس من قشور تقديراً فيه كثير من المبالغة ، فقد اعتقد بحسن نية أن ذلك الشعر كان جيداً .

Twitter: @abdulllah1994

أما كناقد للدراما فقد كان أحسن بعض الشيء ، إذ استطاع أن يميز عبقرية إبسن ، بل ومما يثير الدهشة أن يعترف بعبقرية شو ، باعتبار ما كان بين الاثنين من اختلاف في وجهة النظر على الفن . فحينما كان شو يعتبر أكثر كتاب التمثيليات نجاحاً في إنجلترا ، وفي الوقت الذي دوت فيه تمثيليته « بيوت الأرامل » على المسرح كان وايلد من الحصافة والسماحة بحيث وصفها في مستوى تمثيلياته ، وقد قال عنها ، مخاطباً شو :

« لقد قرأتها مرتين بأشد ما أملك من اهتمام . وإني أحب منك تلك الثقة الوافرة في القيمة الأدبية لحقائق الحياة المجردة . إني أعجب بما تنبض به شخصياتك من لحم ودم هائل ، وإن مقدمتك طرفة أدبية — طرفة أدبية حقيقية بما فيها من إنشاء منمق ، ونكتة لاذعة ، وفطرة درامية » .

ولنعد إلى خطاباته الأولى . فمحتويات القسم الأكبر منها محادثات شخصية ودية . وغالبا فإن الموضوع الوحيد منها الذي يخرج عن الدائرة الشخصية يدور حول فلسفة الجمال للكاثوليكية الرومانية . ويبدو أن التغزل في روما كان شائعاً في أوساط أكسفورد في ذلك الحين . وفي ذلك يقول وايلد :

« إذا كان لي أن أرجو من الكنيسة أن تخلق فيّ شيئاً من الجدية والطهارة فيجب أن أذهب إليها كشخص مترف ، إن لم يكن هناك سبب أفضل . غير أني لا أتوقع ذلك ، إذ أنني لو ذهبت إلى روما فمعنى ذلك أنني يجب أن أضحى بمعبوديّ العظيمين : المال والطموح ! » .

Twitter: @abdulllah1994

وينتهي مشهد أكسفورد ببلوغ وايلد طموحه العاجل ، فيكون الأول في الـ Mods ثم الأول في الـ Greats ، وهو أمر لا يستطيع امرؤ أن يبلغه مهما كان ذكيا بغير دراسة جادة . ثم يذهب إلى لندن حيث يشترك في المسكن مع مصور يدعى فرانك مايلز . وفي غضون ثلاث سنوات يصبح صديقا لأشهر الجميلات ، كـ «ليلي لانجتري» . وينشر ديوان أشعار (وقد أرسل منه نسخة كتحية إلى غلادستون) ، ويجعل من نفسه واحداً من أكثر من تتناولهم أحاديث المدينة . وفي أبريل عام ١٨٨١ تظهر الأعداد الأولى من صحيفة « بيشنس » التي كان يصدرها كل من جيلبرت وسوليفان . وكما يرى مستر هارت ـ داقيز فإن جيلبرت ربما كان قد اتخذ في البدء شخصية روسكن مثالا لشخصية « بنتورن » التي كانت تظهر في تلك الصحيفة . غير أن الرأي العام اعتقد بالتأكيد أن تلك الشخصية لم تكن إلا كاريكاتيراً لوايلد .

وباستثناء الخطابات التي كتبت من أمريكا ، فإن المرء لا يستطيع أن يقول إن الخطابات التي كتبها وايلد قبل أن يدخل السجن ، في جملتها ، لها أي أهمية من حيث موضوعاتها . أو إنه يستطيع أن يقول ، على ضوء ما عرف عن وايلد من مقدرة عجيبة في الحديث ، لا سيما بالأسلوب الذي تشيع فيه النكتة ، إنه قد ولد لا كاتباً بل متحدثاً ... أستاذاً في الوقوع على الكلمة المناسبة في اللحظة التي تتطلب ذلك . فإذا قارنا الكتابة بالحديث بوجه عام فإن أخف الرسائل موضوعاً تتطلب جهداً ، ثم إن الكاتب لا يكون حاضراً ليرى وقع ما كتب في نفس القارئ . ولقد كان وايلد سنوات ازدهاره الاجتماعي والأدبي يجد جماعة كافية من المستمعين لحديثه ، ولذلك فإن أكثر خطاباته لم يكن يكتبه لغرض الكتابة ، بل بطريقة عرضية ؛ كرد على خطاب ، أو للتشاور مع بعض

Twitter: @abdulllah1994

المحررين ، أو للتفاوض فى شأن الكتابة فى بعض الصحف . ومع ذلك فإنها تحدث تأثيراً مقبولا ، وهى تقنع المرء بأن الكاتب كان شخصاً لطيفاً ، ودوداً ، كريماً ؛ وفضلا عن ذلك كان رجلا ذا قلب رقيق المشاعر ، لا يحمل أى نزعة من الخبث والحسد الذى يشيع عادة فى نفوس الأدباء . وعندما يفكر المرء فيما عليه أكثر الأذكياء من خبث وما يتميز به أكثر الكتاب من غيرة وشح ، فإنه لا يملك إلا أن يمتلىء إعجاباً به .

فى عام ١٨٨١ فتحت صحيفة « بيشنس » فى نيويورك . وكان المدير الأمريكى لمؤسسة « د . أويلى كارت » هو الكولونيل مورس . فرأى أن وجود وايلد قد يحدث دعاية نافعة . وعليه فقد أعد لسفره ليقوم بإلقاء سلسلة من المحاضرات فى الولايات المتحدة . ويمكن إدراك ما أحرزه وايلد من اسم كبير وهو لايزال فى الثامنة والعشرين من الأجر الذى فرضه هو نفسه . ففى بوسطن وشيكاغو حصل على ألف دولار عن كل محاضرة ، ولم يحدث قط أن حصل على أقل من مائتين (عندما أفكر فيما كانت عليه قيمة الدولار حينئذ فإننى لا أستطيع إلا أن أشعر بالغيرة !) . ولقد وجد وايلد نفسه يدخل سريعاً فى خصام مضحك مع محاضر بريطانى منافس يدعى أرشيبالد فوربس ، وكان لهذا الخصام ضجة كبيرة . كان وايلد يحاضر عن الفن الديمقراطى والنهضة الإنجليزية بينما كان يرتدى سراويل قصيرة وصديرية ضيقة من المخمل وقد أرسل شعره حتى كتفيه . أما فوربس فقد كان يحاضر عن مغامراته كمراسل حربى فى حروب البلقان ، وقد غطت صدره ميداليات حربية وبدا حليق الرأس من الجذور . ويبدو أن البطولة المتبدية فى المظهر المسرف فى الرجولة كانت أقل فى إثارة الاهتمام ! على كل حال ، لقد كان فوربس

Twitter: @abdulllah1994

هو الذي أثار النزاع ، وقد فعل وايلد ما بوسعه ليترضاه ، وقد أتاح هذا للصحافة مادة صالحة ، واتخذ كثير من الصحف موقفاً معادياً من وايلد ؛ غير أنه كان يستطيع دائماً أن يكسب جانب مستمعيه . وحتى أولئك المعدنين فى منجم « ليدڤيل » فى كولورادو ، وقد حاضرهم عن « بنفينوتو تشلليني » فإنهم أقاموا له بعد ذلك وليمة . وقد علق على ذلك قائلا :

« إن دهشة المعدنين لم تقف عند حد حينما رأوا أن الفن والشهية يستطيعان أن يسيرا ويد كل منهما فى يد الآخر ! فحينما كنت أشعل سيجاراً طويلا كانوا يواصلون الهتاف حتى تسقط الفضة من السقف غباراً فوق أطباقنا . وحينما كنت أجرع قدحاً من الكوكتيل بغير توقف كانوا يعلنون بطريقتهم البسيطة الفخمة أننى « ولد مشاغب ولكن بلا عيون زجاجية » . فكنت حينئذ أعمد إلى فتح عرق معدنى جديد ، مستعملا مثقاباً فضياً كنت أستعمله بمهارة بين تصفيق الجميع . وقد أهدى إلىّ المثقاب الفضى ، أما العرق فقد سمى باسم ... أوسكار » .

ومن المهم أن يعلم القارئ اليوم أن وايلد أقام مع جيفرسن داڤيز فى الجنوب ، وأنه كان فى « سانت جوزيف » بميسورى فى الأسبوع التالى لمقتل جيسى جيمس . وسيشعر القارئ أيضاً بما استولى عليه من شفقة وخوف لأول مرة حينما كان فى « لينكولن » بنبراسكا ، فرأى مستضيفوه أن يذهبوا به فى جولة خارج المدينة كما يقول :

« ساقوا بى إلى الخارج ، ثم ذهبنا بعد لمشاهدة السجن الكبير ! وهناك رأيت أنواعاً غريبة تميسة من البشر فى أثواب

Twitter: @abdulllah1994

مهلهلة مريعة تصنع الطوب فى وهج الشمس . وكان فى مظاهرها الدنيء ما أدخل العزاء على نفسى ، فقد كان يصعب على أن أرى سمات النبل تتبدى فى مظهر الإجرام » .

وفى شيكاغو يتكلم إلى الصحفيين عن ثلاثة من أبطاله ، وهم هويسلر ولابوشيه ، وإيرفنج . وكان ثانى هؤلاء هو المسئول عن تعديلات القوانين الجنائية التى حكم بموجبها على وايلد . وقد أعلن أسفه بعد صدور الحكم ، لأن أقصى مدته لم تكن سبع سنوات بدلا من اثنتين فقط !

وحال عودته ، فى عام ١٨٨٣ ، أمضى ثلاثة شهور فى باريس ، حيث التقى بواحد ممن ترجموا بعد لحياته ، هو روبرت شيرارد . وفى نوفمبر من ذلك العام عقدت خطوبته على كونستانس لويد ، وبنى بها فى مايو التالى . وكانت هذه بلا شك أكبر خطوة اتخذها وايلد بغير تبصر . بل ربما كانت الأمر الوحيد فى حياته الذى قام على غير عاطفة . فقد يحدث ألا يميز الشخص المنحرف إلى مخالطة نفس النوع حالته مدة من السنين . وقد يتزوج على أساس من حسن اعتقاده . غير أن المرء لا يستطيع أن يعتقد أن وايلد كان يمثل تلك البراءة ! ثم إن أكثر المخالطين نفس النوع يرتاحون إلى مصاحبة النساء . ولما كانوا لا يطمعون فى أن يتخذوا منهم أهدافاً لإشباع رغبتهم فى المخالطة فإنهم يكتفون بأن يشعروا نحوهم بصداقة قوامها التفاهم والعطف . وكثير ممن يميلون إلى مخالطة نفس النوع يشعرون ، كغيرهم ، برغبة فى إنشاء بيت والتمتع بذرية ، غير أن الزواج لمثل هذه الأغراض يقوم على غير عاطفة . ولم أر قط زواجاً من هذا النوع — على الأقل إذا كان

Twitter: @abdulllah1994

الشريكان تحت الخمسين — لم تعان فيه الزوجة بطريقة فعالة ، حتى لو كانت على علم تام بميول زوجها . ولا بد أن تكون كونستانس وايلد قد عاشت غير سعيدة ، حتى لو لم تكن هناك فضيحة أدت إلى شعورها بالذل في المجتمع ، كما جرت عاراً على طفليها ؛ وذلك لأنها كانت تشعر طبعاً بأن زوجها كان « يستثقل الحياة الزوجية إلى درجة الموت » ، كما اعترف هو نفسه أخيراً . وحينما أصبح وايلد يعول زوجة وطفلين وجد نفسه يواجه مشكلة تأمين دخل ثابت . وكان عجيباً أن يفكر في البدء في أن يصبح مفتش تعليم ، كما فعل ماثيو أرنولد . فلما أخفق في ذلك اضطلع بتحرير « عالم المرأة » . وتدل خطاباته في تلك الفترة على أنه كان يقوم بتلك المهمة في إخلاص وجد كبيرين . بل إنه حتى كتب إلى الملكة فكتوريا سائلا ما إذا كان لديها أي أشعار كتبت في شبابها ليكون له شرف نشرها ، ولا تزال مذكرة الملكة فيما يتعلق بهذا الطلب باقية . وفيها تقول :

« حقاً ما الذي لن يقوله الناس ويختلقوه . إن الملكة لم تستطع قط طوال حياتها أن تكتب سطراً واحداً من الشعر الجاد أو الهازل ، أو حتى تضع سجعاً . إذن فكل هذا اختلاق وأسطورة » .

ثم تحول وايلد ، ككاتب ، من الشعر إلى النثر ، لحسن حظ من كان يهمهم الأمر . وفي عام ١٨٨٩ أصبحت أحواله المملية تساعد على التخلي عن وظيفة المحرر ، ليعيش بمجهود قلمه . ولقد أحدثت روايته « صورة دوريان جراى » فضيحة ، غير أن ما بيع منها كان قدراً كبيراً . أما « سالومى » فقد صودرت ، غير أن التمثيليات الأربع

Twitter: @abdulllah1994

التي كتبها بين عامي ١٨٩١ و ١٨٩٤ كانت كلها انتصارات مسرحية ، وجعلت منه أعظم من نالوا الإعجاب وأغنى كتاب الدراما في عصره . وفي تلك السنوات من نجاحه الصاعد أخذت أسماء الشخصيات البارزة في درامته هو نفسه تدخل في حياته . وكان هؤلاء هم روس ، وليونارد سميترز ، وتيرنر ، وأدي ، وفرنك هاريس ، وأدا ليفرسن (وقد أهملت الآن رواياتها بصورة عرضية تدعو إلى الخجل) ، ثم بوزي دوجلاس بطبيعة الحال . ولقد جاءته أول إشارة إنذارية بما يخبئه له القدر في عام ١٨٩٤ ، وذلك عندما ألقي القبض على الفرد تيلور ، وهو رجل كان يدير بيتاً للبغاء بين الذكور كان وايلد يتردد عليه . وقد سقطت التهمة هذه المرة ، غير أنه لم يمض عام حتى وجد الاثنان نفسيهما جنباً إلى جنب في قفص الاتهام . على كل حال ، مهما بلغت رذائل تيلور فإنه سيُذكر دائماً على أنه رجل شريف ، فقد آثر أن يدخل السجن على أن يجعل من نفسه شاهد إثبات .

وإنما يرجع الفضل إلى أشرطة السينما في اطلاع أكثر الناس على المحاكمات الثلاث . وسواء كان القانون الذي يعاقب على ممارسة اللواط بين شخصين عاقلين متوافقين عادلا أو غير عادل فإن هذا مما يقبل النقاش . أما الحقائق التي لا تقبل جدلا فهي : أولا ، إن مثل هذا القانون يشجع على التستر لقاء المنفعة المادية ؛ ثانياً ، أنه ليس إيجابيا من حيث التنفيذ ؛ وذلك لأن تسعة وتسعين في المائة ممن يمارسون اللواط لا يعنيهم الأمر ، طالما هو لا يمس حريتهم الشخصية ، سواء وجد هذا القانون بين القوانين أو لم يوجد . أما الذين يتكون منهم الواحد في المائة ، أو ما هو أقل ، ممن يقعون في المتاعب ، فإنهم ، جميعاً تقريباً ، إما من أولئك الذين يميلون إلى استعمال الأحداث ، فيعمد الصغير إلى إخبار

Twitter: @abdulllah1994

ذويه عاجلا أو آجلا ، أو من الذين يطاردون الرغبات العامة بطريقة إجبارية ، ثم يتحول الواحد منهم تدريجياً إلى وكيل محرض . ولقد كان من الممكن ألا يقع وايلد فى تلك الورطة لو لم تدفعه حماقته — وهو أمر لا يسع المرء إلا أن يعجب له — إلى رفع دعوى على كوينزبرى . وفى ذلك يقول هو نفسه فى خطابه إلى دوجلاس :

« أو تحسب أننى هنا بسبب علاقاتى مع شهود قضيتى ؟ إن علاقاتى ، صحيحة كانت أو مفترضة ، مع أفراد من ذلك النوع لم تكن بذات أهمية ، لا فى اعتبار الحكومة ولا فى اعتبار المجتمع . فهذا وتلك لم يعلموا عنها شيئاً ، ولا يعنيهم أن يعلموا . وإنما أنا هنا لأننى حاولت أن أضع أباك فى السجن » .

بل كان فى استطاعته أن يتخلص ، حتى بعد أن وصل الأمر إلى ذلك الحد ، لو لم يقم ممثلان مفضوحان ، هما هاوترى وبروكفيلد ، بإخبار محامى كوينزبرى أين يستطيعون العثور على شهود . ولكى يستطاع تأمين الاتهام تعهد التاج بإسقاط الادعاء عن عدد من المتسترين المأجورين ومن البغايا الذكور .

ولقد قام وايلد بعد خروجه من السجن بوصف ما كانت عليه السجون الإنجليزية فى ذلك الوقت فى خطابين بعث بهما إلى صحيفة « الديلى كرونيكل » لا يتمالك المطلع عليهما أن يذرف الدمع ويشعر بالسخط . وكان من الطبيعى أن تتأتى ثمرة ذلك ، فقد وضعت بعد ذلك بعض آرائه الإصلاحية موضع التنفيذ . ولقد حدث فى الشطر الأخير من حياته فى السجن أن أسعده الحظ بوجود محافظ على جانب من العاطفة الإنسانية ، وهو الماجور نلسن ، فصرح بدخول أدوات الكتابة إليه ،

Twitter: @abdulllah1994

وبذلك استطاع أن ينشئ رسالته إلى لورد الفرد دوجلاس التى تستغرق سبعاً وثمانين صفحة من المجلد الذى جمع . وحينما قام روس فى عام ١٩٠٥ بنشر أقل من نصفها تحت عنوان « د . بروفندى » فعل ذلك بدافع من النية الحسنة ما فى ذلك شك ، غير أنه أساء إلى وايلد من حيث أراد أن يحسن ؛ وذلك لأن القطع التى اختارها كانت أضعف ما فى الرسالة من حيث الإنشاء ، كما تضمنت غموضاً فى المعنى من ناحية الاستقامة العاطفية وحينما قرأت الكتاب وأنا لا أزال صبيا لم أعاالك أن أثور ، فقد بدا لى أن من الفظاعة أن رجلا يكتب تحت مثل تلك الظروف المريعة يستطيع أن يستمر هكذا فى الكتابة المسرحيـة . أما الآن ، والفضل فى ذلك يرجع إلى مستر هارت ـ داڤيز ، فإن تحت أيدينا النص التمريقى الباات الكامل ، فإذا به وثيقة تختلف جداً عما كنا نعتقد . (كما يبدو ، فإن الطبعة التى نشرها مستر ڤيڤيان هولاند — ابن وايلد — فى عام ١٩٤٩ ، وقد اعتمد فيها على الأصل المنسوخ على الآلة ، تمتلئ هى كذلك بالأخطاء ، وقد حذفت منها أجزاء كثيرة) .

حينما يتكلم وايلد عن عيسى والخلاص عن طريق الآلام فإن آراءه تبدو صبيانية مملة ، كآراء «چيد» فى نفس الموضوع . أما حينما يتكلم عن بوزى دوجلاس فإنه يعرض أسلوب الكاتب الكبير ، المتميز بالفطنة والأمانة والشجاعة . ولقـد كانت علاقتهما على أكبر جانب من الأهمية من الناحية السيكولوجية . ومن الواضح أن افتتان وايلد ببوزى لا يرجع فى الدرجة الأولى إلى الناحيـة الجنسية . ويستطيع المرء أن يحدس أن أى اتصالات جنسية حدثت بينهما كانت قليلة الحدوث ، بل وربما كانت غير مرضية . كان بوزى يعيش حياة عابثة حينما التقيا لأول مرة ، وقد استمر فيها ، ولم يظهر وايلد ما يدل على أنه كان يشعر بشىء

Twitter: @abdulllah1994

من الغيرة . وبقدر ما يعنى الأمر الموضوع الجنسى فإن أهم أثر لبوزى فى حياة وايلد أنه كان أول ساع به إلى دنيا البغايا الذكور ! وكان وايلد حتى ذلك الحين قاصراً أمره على أشخاص من طبقته . وحينما التقيا كان بوزى ، ولم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين ، قد وقع من قبل فى قبضة المقسترين بالأجر . وفى ذلك يقول وايلد :

«كان عيبك لا فى أنك عرفت القليل عن الحياة ، بل فى أنك عرفت الكثير ! . فالميزاب والأشياء التى تعيش فيه بدأت تفتنك . . . ومع إن الموضوع الذى تركز حوله حديثك دائما كان ساحراً بدرجة فظيعة ، إلا أنه فى النهاية أصبح مملا بصورة تامة» .

أما الجاذبيــة التى كانت متبادلة بينهما فإنها كانت ناشئة مما فرضته أنانيتهما أكثر من أن تــكون نابعة من أحاسيسهما . فقد كان بوزى يشعر بأنه غير أهل للحب ، ولذلك فقد كان وجود وايلد بالنسبة إليه أهم من وجود أى شخص آخر ، ما عدا والده . ويستطيع المرء أن يقول هنا أن لقاءهما كان لقاءً بين شخصين لقى أحدهما من الحب أكثر والقى الآخر أقل . ومثل هــذا اللقاء يكون دائماً خطراً للغاية . فأى طفل يكتشف أنه منبوذ ومكروه من والده — كما كان حال بوزى — لا يتمالك أن يشعر بأنه تافه القيمة ، وهذا الشعور يتركز فى أعماق نفسه مهما حاول أن يكبته . فإذا حدث أن التقى أثناء نموه بشخص يرى منه شيئاً من الحب ، لا سيما إذا كان هذا الشخص أكبر سنا ، فإن عقله الباطن لا يمكن أن يعتقد بصــدق ذلك الحب . ومن ثم يندفع الطفل تباعاً — بفعل شعوره اللاواعى — إلى اختبار ذلك باتباع السلوك السيء مع

Twitter: @abdulllah1994

من شعر منه بالعطف . فإذا رآه ينبذه تأكد شكه ، ولكن مهما تسامح معه ذلك الذى أحبه فإن شكه لا يمكن أن يزول تماماً . فضلا عن ذلك ، إذا كان الشعور بتفاهة القيمة قويا بدرجة كافية فإن صاحبه قد يشعر ، عن لا وعى ثانية ، باحتقار لأى شخص يبدى له شيئاً من الحب . فهو يرى ، عن طريق هذا الشعور ، أنه إذا كان والده محقا فى نبذه ، فإن أى شخص يقبله لا بد أن يكون غبياً ، وهو بذلك لا يستحق إلا التعذيب . ولما كان وايلد قد أصاب نجاحا وشهرة ككاتب ، فإن أول اختبار بناء على ذلك كان اكتشاف ما إذا كان حبه لبوزى أقوى من حبه للكتابة . وعليه فيجب العمل على تضييع وقته . وفى ذلك يقول وايلد :

« فى الثانية عشرة كنت تأتينى راكباً ، فتجلس تدخن وتثرثر حتى الواحدة والنصف ، حيث كان يجب أن آخذك لتناول الغداء ، إما فى الكافى رويال أو فى مطعم بركلى . وهذا الغداء مع ما يتبعه من شراب يستمر عادة حتى الثالثة والنصف ؛ وحينئذ كنت تذهب إلى هوايت لتهجع ساعة ، لتعود ثانية وقت تناول الشاى ، وتجلس حتى وقت الاستعداد لتناول العشاء . وكنت تتعشى معى إما فى مطعم سافوى أو فى تايت ستريت . وكقاعدة لم نكن نفترق إلا بعد منتصف الليل ، وذلك لأن وجبة المساء فى مطعم ويليس تستمرحتى استرواح تباشير الصباح . هكذا كانت حياتى طوال تلك الشهور الثلاثة ، وفى كل يوم منها ، ما عدا تلك الأيام الأربعة حينما ذهبت إلى الخارج » .

وأيضاً ، بما أن بذل المال ، وبخاصة فى سبيل الحصول على المسرات

Twitter: @abdulllah1994

الصبيانية الأولية كالطعام ، يعتبر فى ثقافتنا رمزاً لمنح الحب كله ، فقد كان على بوزى أن يرى إلى أى حد يستطيع أن يحمل وايلد على الإنفاق عليه فى هذا السبيل . وفى ذلك يقول وايلد :

« إن نفقاتى العادية معك فى لندن ، للغداء والعشاء ووجبة منتصف الليل والملاهى والركوب ، إلى آخر ما يدخل فى هـذا الباب ، هذه النفقات كانت تتراوح بين اثنى عشر وعشرين جنيهاً فى اليوم العادى . . . وفى الثلاثة شهور التى أمضيناها فى جورنج بلغت نفقاتى (بما فيها المسكن طبعاً) ١٣٤٠ جنيهاً . وفى باريس بلغت نفقاتى عن ثمانيـة أيام لنفسى ولك ولخادمك الإيطالى ١٥٠ جنيهاً ، ابتلع منها مطعم بايار وحده ٨٥ جنيها » .

وثمة دلالة لها مغزاها ، فقـد تذرع بوزى بالإبقاء على صداقته مع وايلد لرفض المنحة التى كان يحصل عليها من والده ، كما تذرع بقلة المنحة التى كانت تحصل عليها والدته لعدم الحصول على شىء منها . غير أنه لم يفعل ذلك بنية التنازل عن شىء من حياة الترف التى كان يعيشها ، بل رأى أن وايلد يجب أن يقوم بقسطى الأب والأم فى تزويده بالمـال .

ومن الناحية الأخرى ، فإن طفلا كوايلد ، لقى من الحب قدراً أكبر ، ومن والدته عطفاً أكثر ، ثم اكتشف أن فيه مقدرة على اجتذاب حتى أولئك الذين يكونون فى البـدء مناوئين له ، ربما داخله الغرور بطريق تفـكيره الواعى ، غير أن عقله الباطن سيشعر بالقلق ، فهو لا يستطيع أن يعتقد أنه محبوب بتلك الدرجة التى رأتها والدته ، ثم إن مقدرته على اجتذاب الآخرين تبدو له كخدعة أكثر من أن تـكون دليلا على قيمته الحقيقية . وحينما ينمو مثل هـذا الطفل فإن ميوله

Twitter: @abdulllah1994

العاطفية مع الآخرين ، ولا سيما إذا كان هناك عنصر جنسى حاضراً ، تكون عرضة للزوال بعد وقت قصير إذا استسلم الطرف الآخر له بغير أى مقاومة . غير أنه قد يفتتن بالشخص الذى يشعر من جانبه بمعاملة سيئة ، وإن لم ينبذه تماماً . فإذا واجه مثل هـذه التجربة الجديدة فإن نزعة الغرور فيه تثار فى صميمها بدافع من التحدى لمعرفة إلى أى حد يستطيع أن يتحمل . . . حتى يصبح التحمل والتسامح من عادته .

وفى ذلك يقول وايلد :

« فى كل علاقة حيوية مع الآخرين يجب على المرء أن يجـد طريقة للحياة . وفى حالتك ، إما أن يستسلم المرء لك أو أن ينبذك . . . وقد استسلمت لك دائما ، وكنتيجة طبيعيـة فإن مطالبك ، ومجهوداتك للسيطرة ، وابتزازاتك ، تزايدت تدريجيا بصورة غير معقولة . وإذ علمت أنك باصطناع مشاجرة تستطيع دائماً الوصول إلى غرضك ، فقد كان طبيعياً أن تنساق فى ذلك ، غالباً بلا وعى ، وهو ما لا أشك فيه ، إلى أقصى حدود العنف السوقى ! ... ولقـد ظننت دائماً أن استسلامى لك فى الأمور الصغيرة لا يعنى شيئا ، فحينما تأتى لحظة عظيمة أستطيع أن أعيد تثبيت قوة إرادتى فى عليائها الطبيعية . غير أن الأمر لم يكن هكذا ... وذلك لأن عادتى فى الاستسلام لك فى كل شىء ، وهى ترجع أكثر ما ترجع إلى عدم الاكتراث فى البـدء ، أصبحت بغير إدراك جزءاً حقيقياً من طبيعتى . وبغير علم منى استطاعت أن تصب مزاجى فى كيف دائم خطير » .

هنا لا يسع المرء إلا أن يفـكر : ترى ماذا كان يحدث فى صداقتهما

Twitter: @abdulllah1994

لو كان كوينزبرى قد مات ، مثلا ؟ ربما كان بوزى يفقد اهتمامه بوايلد فى بساطة . وكما كان الحال ، فإن كرهه لوالده كان الشهوة الدافعة فى حياته ؟ وعليه فإن وايلد كشخص كان أقل أهمية منه كسلاح . وربما كان وايلد ووالده — بطريق اللاوعى — متعاقبين رمزيا ، فلم يكن يهمه كثيراً أيهما يدخل السجن ، طالما كان واحد يفعل . وفى ذلك يقول وايلد :

« عندما مضى والدك فى البدء يهاجمنى كان ذلك باعتبارى صديقا شخصيا لك . وقد جاءك خطاب خاص ، ولكنك أصررت على أن الأمر لا يعنيني ، وأنك لن تسمح لوالدك بأن يملى إرادته عليك فيما يختص بصداقاتك الشخصية . وإنى أكون جائراً إلى أبعد حد إذا تدخلت . وقد حدث قبل أن ترانى بصدد الموضوع أن أرسلت إلى والدك برقية كتبت فى غباء وبلفظ سافل ... هذه البرقية حددت علاقاتك بوالدك برمتها مستقبلا ، كما تحكمت فى حياتى كلها ... فمن برقيات منحطة الأسلوب ، إلى خطابات فيها التصلف كتبت فى مكتب المحامى كان لا بد أن يتخذ الأمر طريقه بصورة طبيعية . وكانت النتيجة أن خطابات محاميك إلى أبيك حثته طبعاً على الذهاب إلى أبعد مما ذهب . فالواقع أنك لم تترك له فرصة للاختيار ، بل كنت تحمله على مواصلة المضى فى الطريق . وكلما فتر اهتمامه لحظة كنت تسرع فتلهبه بخطاباتك أو بطاقاتك . وهكذا حدث » .

فى نقطة واحدة كما أعتقد ، يظهر وايلد قصوراً فى الإدراك . وقد أدرك هو نفسه ، إلى حد كبير ، ما أقدم عليه من حماقة بادعائه على كوينزبرى . وفى ذلك يقول :

Twitter: @abdulllah1994

« إن الفعل الوحيـد الذى جاء شيئا لا يغتفر فى حياتى ، وسيبقى محتقراً طوال الوقت ، هو أنى سمحت لنفسى بأن تغلب على أمرها بالالتجاء إلى المجتمع طلباً للمساعدة والحماية ضد والدك. وقد جهلت أنى حينما أدخل قوى المجتمع فى الحساب فإنه سيلتفت إلىّ قائلا : أوَ تعيش طوال ذلك الوقت متحدياً قوانينى ثم تعود الآن فتطلب الحماية بواسطة هذه القوانين ؟ ... كلا ، فيجب أن تلجأ إلى ما اعتمدت عليه من قبل !

« لقد رأى الناس أنه كان مريعا أن أدعو إلى مائدتى تلك الأشياء الشريرة فى الحياة ، وأن أجد سروراً فى صحبتها . غير أن تلك الأشياء كانت سارة فعلا ، كما كانت مبعث وحى وإثارة . وكنت معها فى ذلك كما يقيم المرء وليمة مع بعض النمور . إننى لا أشعر أبداً بالخجل من تعرفى بأولئك الأشخاص . . . فقد كان كل من كليبورن واتكينز بديعين فى كفاحهما السيء ضد الحياة . فكان تكريمهما مغامرة مدهشة . وإنما الشيء الذى تكرهه نفسى هو ذكرى تلك الزيارات العديدة التى قمت بها فى صحبتك إلى المحامى همفريز ، حيث كنا نجلس فى النور الباهت فى غرفة باردة وفى سمات كئيبة ندلى بأكاذيب جريئة إلى رجل أصلع » .

غير أن ما لم يستطع وايلد أن يدركه هو أنه ، بفرض وجود ظروفه وخلقه ، فإنه كان مضطراً عاجلا أو آجلا إلى اتخاذ ما اتخذ من إجراء قضائى ، حتى لو لم يحثه بوزى على ذلك ؟ إذ لو كانت بطاقته قد قوبلت بالتجاهل فإن كوينزبرى كان بالتأكيد سيعمد إلى ادعاءات ذات صدى أقوى فى الدوائر العامة . وفى مثل هذه الحالة كان أى إحجام من وايلد

Twitter: @abdulllah1994

عن الرد على مثل تلك الادعاءات يؤخذ من جانب المجتمع على أنه دلالة على صدقها . لقد كان فى استطاعته أن يفلت من دخول السجن ، غير أنه لم يكن مستطيعا أن يتحاشى نبذ المجتمع . وحقا إن من الفنانين من لا يهتم بسمعته الاجتماعية ، ومثل هؤلاء حينما يكون الواحد منهم مستغرقا فى عمله الفنى لا يعنيه فى أى جانب من الطريق يكون . ولو حدث أن واحداً كـ «ڤرلين» تلقى مثل بطاقة كوينزبرى لكان من المحتمل أن يكتب عليها فى بساطة « بلى إننى ممن يمارسون اللواط » ، ثم يعيدها من حيث أتت . غير أن وايلد لم يكن كذلك ، فقد كان تقدير المجتمع جوهريا بالنسبة إلى تقدير نفسه .

لقد كان بوزى شيئا فظيعا بالنسبة إلى وايلد ، وكان مسئولا عما حل به من خراب . ومع ذلك فلو سئل وايلد فى آخر حياته ما إذا كان يأسف قط على أن التقى به فربما أجاب نفيا . ولن نكون إلا محدسين إذا تأسفنا نحن أيضا على ذلك . فنحن لا نعلم ماذا كان يمكن أن يكتبه وايلد لو لم يلتق قط ببوزى ، أو لو كان قد وقع فى غرام شخص آخر . وإنما نستطيع فقط أن نلاحظ أن وايلد قد كتب الجزء الأكبر من أعماله الأدبية — بما فيها قطعته الرائعة — خلال السنوات الأربع منذ أن التقى ببوزى حتى سقوطه ، وقد لا يكون لبوزى دخل فى ذلك ، ومع ذلك فقد يكون له دخل ، ولو بحمل وايلد على أن يجدّ فى سبيل الحصول على مال للانفاق عليه .

وإنما هناك أمر يجدر الالتفات إليه . فبالرغم من معرفة وايلد كل شىء عن صاحبه بوزى ، وبالرغم من كل ما حدث له بسببه ، فقد كتب إليه بعد شهور قليلة من خروجه من السجن يقول :

Twitter: @abdulllah1994

« إننى أشعر بأن أملى الوحيد فى القيام ثانية بأعمال جميلة فى مجال الفن معك أنت . إن الأمر لم يكن كذلك فى الأيام الماضية ، غير أن الحال قد تغير الآن . وإنك تستطيع حقا أن تخلق فى ثانية تلك الطاقة والشعور بالقوة السارة التى يعتمد عليها الفن » .

كما كتب إلى روس يقول :

« دع الناس يعلمون أن أملى الوحيد فى الحياة ؛ أو فى النشاط الأدبى ، كان فى العودة إلى الشاب الذى أحببته » .

هذا الأمر يؤكد أنه بالرغم من الخصومات التى لم تقف عند حد ، وضياع الوقت وتكبد النفقات ، أو حق بسبب ذلك كله ، فإن بوزى استطاع أن يقوم مع وايلد بدور الربة الملهمة . ولقد كانت عودة علاقتهما غير مثمرة بالتأكيد ، غير أن ذلك حدث لأن وايلد كان فى ذلك الوقت قد فقد الرغبة فى الاستلهام .

لقد كانت الخطابات التى كتبها بعد خروجه من السجن أكثر أهمية من تلك التى كتبها قبل دخوله . فحينما خرج وجد نفسه وحيداً ، ولم يجد حوله تلك المجموعة من المستمعين من أقرانه الاجتماعيين والمفكرين فلم يكن أمامه إلا أن يضع فى خطاباته ما كان يدلى به فى خطبه فى الأوقات السعيدة . ويستطيع القارئ أن يرى فى القطع الآتية لمحات مما كانت عليه خطبه :

« أؤكد لك أن الآلة الكاتبة ، حينما تلعب دورها فى التعبير ، لا تزيد إزعاجا عن البيان إذا ما وقعت عليه شقيقة أو إحدى

Twitter: @abdulllah1994

القريبات .. والحق إن كثيراً ممن كرسوا أنفسهم للحياة المنزلية يفضلونها » .

« إن البحر والسماء يبـدوان كفص « عين هر » بغير أن يفصل بينهما خط من عمل رسام ، اللهم إلا زورق صيد يمشى الهوينا ، ساحبا الريح من ورائه » .

« إن الأبقار مغرمة بأخذ صورها الفوتوغرافية ، وهى — بعكس المبانى — لا تتحرك » .

« كانت السيارة شيئاً ساراً ، ولـكنها — بالطبع — تتحطم . والسيارات ، كـكل الآلات ، أكثر عناداً من الحيوانات . فهى أشـياء غريبة ، عصبية ، قابلة للاثارة — سأكتب مقالا عن الحالات العصبية فى عالم الجماد ! » .

« إن المبارك القـديس روبرت الفيليمورى ، وهو محب وشهيد ، عرف فى تاريخ القديسين بقدرته اضائلة ، لا فى المقاومة بل فى الإغراء ، يزود به الآخرين . وهـذا ما كان يفعله فى خلوات المدن الـكبيرة ، التى أخذ يتردد عليها فى سن مبكرة نسبياً ، وهى الثامنة » .

« أعتقد أنهم (الجمهور البريطانى) يستحبون منى أن أقوم بنشر صلوات لأولئك الذين تتلاعب بهم المقادير ، أو أن أدخل إنجيل المسرات فى الشقوق الضيقة » .

ولقد وقعت لوايلد بعض مضايقات لا تخلو من الفـكاهة . فهو يقابل فى الريفييرا غنيا من المعجبين به ، يدعى هارولد ميللور ، فيكرمه

Twitter: @abdullllah1994

بأقداح من الشمبانيا ويدعوه إلى زيارة سويسرا . ويقبل وايلد الدعوة في سرور ، وهو يؤمل أن تتاح له معيشة في أحضان الترف . غير أنه لم يجد شيئاً من ذلك ، فقد كان الجو في سويسرا شديد البرودة ، وكان الأولاد على شيء من القبح . أما ميللور فقد عاد إلى طبعه من الشح ، شأن أمثاله من الأغنياء ، فلم يقدم له سوى النبيذ السويسري الرخيص ، ومضى يحتفظ بسجايره بعيداً عن متناول يده . وفي باريس يلتقي وايلد بمورتون فولرتون ، وهو صحفي أمريكي كان قد أخذ بالأسلوب النثري لهنري جيمس . ويحاول وايلد أن يقترض منه شيئاً من المال ، غير أن فولرتون يرفض طلبه في الكلمات الآتية :

« إن صانع تلك الطرائف الأدبيـة على كثير من الرقة واللطف ، فهو لن يتأثر صادقاً بتأسف رجل اضطر إلى الإجابة هكذا على رجاء لم يكن في الحقيقة يتوقعه ، كما لم يكن في استطاعته أن يعدّله ، بل ولم يكن مستحقاً لذلك . إنني لألمس الأمل في أن تـكون الأزمة قد انتهت في نفس الوقت ، وأنك لن تصادف مرة أخرى ما يحملك ، بالرغم منك ، على أن تضعني أو تضع غيري في مثل هذا الموقف ، بما فيه من هم حقيقي ناطق » .

غير أن هـذه الخطابات في جملتها تملأ النفس حزناً بطبيعتها . فهي سجل رجل تعيس يائس ينحدر إلى الهاوية وهو يعلم ذلك . وحقاً أن هناك كتاباً آخرين ، نذكر منهم ڤيلون ، وسرڤانتس ، وڤراين ، على سبيل المثل ، قد تألموا من حياة السجن (وقد قاسى ڤيلون حتى من التعذيب) ، أو كدانتي الذي قاسى من النفي ، غير أن قوائم الخلاقة لم تتأثر بذلك ، بل إنهم — في الواقع — كتبوا أحسن أعمالهم بعـد

Twitter: @abdulllah1994

الـكارثة . غير أن حالة وايلد تختلف ، إذ لم يكن ما قاساه فى سجن ريدنج هو السبب فى وضع حد لحياته الأدبية ، بل كان ضياع مركزه الاجتماعى . ولو كان فى مكانه كاتب من نوع آخر لوجد فى الحيـاة البوهيمية السيئة السمعة التى عكف عليها وايلد كمذنب سابق شيئا من العزاء ، إذ لم يعد هناك — على الأقل — ما يدعو إلى التستر . غير أن تفـكير وايلد لم يقبل ذلك ، فقد كان الشىء المثير لإحساسه أن يعيش حياة مزدوجة ، يكون فيها بوهيميا سراً ، وفارساً فى المحافل المحترمة علنا . وحينما رأى أبواب هـذه المحافل تغلق فى وجهه فقد رغبته فى أن يعيش ويكتب .

إن الفنان المحترف ، كـكثيرين غيره ، ربما كان صورة من الغرور ، فهو يرغب سريعاً فى الشهرة والمـال ، وهو يتألم إذا لم يواته الحظ بذلك . غير أن غروره يخضع دائما لـكبريائه ، إذ أن كبرياءه لا تترك فى نفسه شـكا مهما كان الأمر فى أن ما يكتبه فريد فى نوعه . فإذا كان يقول لنفسه أنه يكتب للأجيال القادمة ، كما فعل ستندال ، فإن هذا ليس صحيحا بالمعنى التوكيدى ، إذ أنه لا يستطيع أن يتصور ما ستـكون عليه تلك الأجيال . وإنما طريقه أن يقول إنه باقتناعه بالقيمة الدائمة لعمله متيقن من أن العالم سيميزه إن عاجلا أو آجلا . إنه لا يكتب ليعيش ، بل يعيش ليكتب . وكل ما يلقاه من مسرات وآلام خارج دائرة عمله الخلاق — أى فى حياته الشخصية والاجتماعية — يعتبر ذا أهمية ثانوية . ولن يستطيع الفشل فى أى من الجانبين أن يضعف من قواه . ومع أن وايلد قد كتب قطعة خالدة فإنه لم يكن فنانا محترفا بل كان ممثلا . والممثلون جميعا يتميزون بأن الغرور فيهم أشد من الـكبرياء . فالممثل لا يشعر بنفسه

Twitter: @abdulllah1994

إلا حينما يرى أن هناك علاقة عطف تربطه بجمهوره ؛ فإذا ما رأى نفسه وحيداً فإنه لا يعرف من هو . وفى ذلك يقول وايلد :

« عجباً أن يساعد الغرور الرجل الناجح ويزيد فى تعاسة الفاشل ! ففى الأيام الأولى كنت أستمد نصف قوتى من غرورى » .

وبقدر ما عاش فى السجن وسمح له بتلقى القليل من الرسائل ، فإن معرفته بالعالم الخارجى كانت مقصورة على ما يتلقاه من أصدقائه . وكان من الطبيعى أن يهتم هؤلاء بإدخال السرور على قلبه ، وأن يحجموا عن التكلم فى الأمور التى لا ترتاح إليها نفسه . فلم يستطع أن يدرك مصيره من الفقر وضياع مركزه الاجتماعى الذى لم يكن من السهل استعادته . وهكذا نراه يكتب فى أمل : « يجب أن أعيش فى إنجلترا ، إن قدّر لى أن أعود روائياً ثانيـة » . وقد حدث فى اليوم التالى لخروجه من السجن أن قام بزيارة أصدقائه من عائلة ليفرسن ، وقد سلك كما لم يكن شىء جدى قد حدث له . وفى ذلك تقول مسز ليفرسن :

« لقد جاء فى مظهر من الاعتزاز بالنفس والاعتبار كما لو كان ملـكا يعود من المنفى . وقد دخل وهو يتحدث ويضحك ويدخن لفافة . وكان شعره متموجاً بينما ظهرت وردة فى عروته » .

ويكتب روس :

« فى ذلك اليوم ، وطوال أيام عديدة أخرى ، لم يكن يتحدث إلا عن سجن ريدنج الذى تصوره من قبـل كما لو كان قلعة مسحورة هيمن عليها الماجور نلسن كحورية . وكانت الأبراج التى تطل منها المدافع المخيفـة قد تحولت فى تصوره إلى مآذن ،

Twitter: @abdulllah1994

أما الحراس فقد تحولوا إلى مماليك محسنين ، كما تحولنا نحن إلى فرسان وقفوا يرحبون بقلب الأسد حال عودته من الأسر » .

وكما ذكر روس مضى عليه خمسة أشهر قبل أن يدرك أن صالون عائلة ليفرسن لم يعـد هو ، وأن المجتمع لم يغتفر ولم ينس ، ولا يمكن قط أن يفعل . وكرجل مغرور فإن وضعه كان مفزعا ، لا لأنه أصبح مفلساً يعتمد بصورة كلية على إحسان الآخرين وحسب ، بل أكثر من ذلك ، لأنه لم يكن هناك سوى احتمال قليل فى أن يستطيع ثانية أن يكسب عيشه . وحتى لو تابع كتابة كتب وتمثيليات فإن ناشراً أو مخرجا محترما لن يغامر بطبع شيء منها أو إخراجه . وحينما أعد نفسه لـكتابة « قصيدة سجن ريدنج » كان يأمل أن يحصل لقاءها على ثلاثمائة جنيه من بعض الصحف الأمريكية ، غير أن أعلى عرض لم يزد على مائة ، وإن كان قد تلقى عرضاً بألف لقاء مقابلة صحفية . وكان الناشر الوحيـد الذي استطاع أن يجده هو ليونارد سميترز ، وكان ذا سمعة سيئة فى مجال الحرفة ، كناشر لمواد تتصل بالبغاء . وحينما أشرف هذا الناشر على نشر روايته « أهمية أن تكون جاداً » لم تقم باستعراضها واحدة من الصحف الإنجليزية الـكبرى . وظل اسم وايلد « نبأ صحفيا » ، فحيثما ذهب ، وبأى شخص التقى ، كان يراه كتب أو صنع بواسطة المخبرين ، ولـكن بطريقة أخرى . وفى ذلك يقول :

« إننى فى اعتبار الصحافة العامة أحيانا « المجرم سابقا » ، وهو ما يتجاوز حد الوضوح ؛ وأحيانا « الشاعر الذى حكم عليه » ، وهو ما أرتاح إليـه ، إذ أنه يضعنى فى عشرة طيبة ؛ وأحيانا « مستر أوسكار وايلد » ، وهى جملة أتذكرها ؛ وأحيانا « الرجل وايلد » ، وهى جملة لا أتذكرها » .

Twitter: @abdulllah1994

ولقد فاته أن يتوقع ما لقيه من تحقير وإذلال من المجتمع . وفى ذلك يقول :

« إن أفراد الطبقة الوسطى من الإنجليز الذين يوجدون فى الفندق يعترضون على وجودى . وقد حدث صباح اليوم أن قدمت إلىّ قائمة الحساب وطلب إلى أن أترك الفندق فى الثانية عشرة . فرفضت ، وقلت إننى لا أستطيع دفع الحساب اليوم . فسمحوا لى بالبقاء حتى ظهر الغد . وإنما طلبوا إلى ألا أتناول الطعام فى الفندق .

« وكنت أمس على البحر ، فإذا بجورج الكسندر يظهر فجأة على دراجته ، فينظر إلى فى ابتسامة ملتوية سقيمة ثم يسرع قدما بغير توقف .

« ولقد قاطعنى كل من كوسى (لينوكس) وهارى ملفيل ، فشعرت كما لو كنت قوطعت من جانب اثنين من مشهّرى بيكاديللى ، وإنه لأمر مضحك لأناس كان على المرء فيما مضى أن يشعرهم بجوه الأخلاقى أو الاجتماعى . الحق أنى أوذيت كثيرا » .

إن الرجل الذى يتألم من كارثة غير عادية كهذه يقاسى عادة من محنة أخرى . فبالإضافة إلى موقف أولئك الذين يتجنبونه خشية أن تصيبهم عدوى كارثته ، كما يخشى المرء من عدوى الحمى ، يواجه نوعاً آخر من الناس هم محترفو الرثاء . . . أولئك الذين يبحثون عنه قصداً باعتباره من منكودى الحظ . وربما كانت هذه المحنة أشد على نفس الرجل المغرور . وحقا إن وايلد لم يذكر ما يفهم منه أنه التقى بأشخاص

Twitter: @abdulllah1994

من هذا النوع ، غير أن ملاحظة جاءت في بعض خطابات روس يفهم منها أنه لم يستطع تحاشى مثل ذلك الاهتمام .

ولم يقتصر شعوره بالتحقير على اعتماده أخيراً على إحسان زوجة عاملها بمنتهى السوء ، بل إن القيود القانونية التي وضعت لحصوله على المنحة كانت تثير السخط . فقد اشترط التوقف عن الدفع إذا استمر — في تقدير المحامي — على صحبة ذوي السمعة الشائنة . ولما كان أي شخص من ذوي السمعة الحسنة لن يتكلم إليه بطبيعة الحال ، فإن الإذعان الحرفي لذلك الشرط كان معناه ألا يتكلم مع أحد قط ! ولقد أبدى روس شجاعة حينما اقترح أن يقيم معه ، غير أن وايلد بذوقه الفطري رفض أن يسمح له بأن يجازف بسمعته من أجله . وكان يرى أصدقاءه حينما يذهبون إلى باريس ، غير أنه لم يكن غالبا يتحدث إليهم .

لم يكن إذن من المدهش أن يتحول إلى وسائل التسلية الوحيدة التي أتيحت له : الشراب والأولاد . وفي ذلك يقول

« إنني لا أحتمل العزلة . وحقا إن الأدباء ساحرون حينما يلتقون بي ، ولكننا نلتقي نادرا . إن رفاقي هم من الذين أستطيع الحصول عليهم بسهولة . وبالطبع على أن أدفع تكاليف مثل هذه الصداقات . . .

« وواضح أنني أرغب في أن يزورني أشخاص من ذوي المراكز الاجتماعية العالية ؟ وواضح أيضاً سبب عدم قيام مثل هؤلاء بزيارتي .

« ما أسوأ أن يشترى المرء الحب ، وما أسوأ أن يبيعه !

Twitter: @abdulllah1994

ومع ذلك فأي ساعات أرجوانية يستطيع المرء أن يختطفها من ذلك الشيء الحالك المتحرك في بطء الذي نسميه الوقت ؟ ... الدير أو المقهى — هناك مستقبلي ! لقد جربت السكن ، ولكنه كان فشلا » .

في الوقت الذي كان يعيش فيه وايلد في فرنسا كان الشخص الواحد يستطيع أن يعيش هناك معيشة معتدلة في حدود مائة وخمسين جنيها في العام . غير أن وايلد لم يكن قادراً على أن يعيش باعتدال . فبجانب المركز الاجتماعي كان هناك شيء جوهري بالنسبة إليه ، وهو ، كما كتب روس « الاتصال بالأشياء الجميلة » ، ويعني بذلك مستوى معين من المعيشة : الطعام الطيب ، والشراب ، والتبغ ، والملابس . وكان أي حرمان من وسائل الراحة يسبب له انقباضا . وفي ذلك يقول :

« إن ثقباً في السراويل قد يجعل المرء كئيباً كهملت . أما الخروج بنعال رديئة فقد يجعل منه تيمون(١) آخر » .

« إنني كالعزيز القديس فرانسيس الأسيسي ، تزوجت من الفاقة ؛ غير أن الزواج في حالتي ليس ناجحا . إنني أكره العروس التي قدمت إلي ! » .

ومن المزايا العديدة التي امتازت بها الطبعة التي أخرجها مستر هارت ـ دايفيز أنها قضت على أسطورة صدقها كثيرون ، ومن بينهم أنا نفسي ، وهي أن وايلد أمضى سنواته الأخيرة في فقر مدقع . وهذا

---

(١) Timon le Misanthrope فيلسوف إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد عرف ببغضه للبشر . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

ما لا يسع المطلع على خطاباته إلا أن يصدقه . وذلك لأن موضوع النقود : نقصها ، الاستغاثة بسببها ، الشكر لأجلها ، الشكوى من أن حقه منها لم يرسل إليه ، الشك الكاذب بأنه خدع فى شىء منها ، كل ذلك كان يتكرر دائماً فى تلك الخطابات . وحقا أنه كان يجد نفسه فى بعض الأحيان غير قادر على تسديد مبالغ ضرورية ، كأجر الفنادق ، غير أن أحداً غيره لا يمكن أن يلام على ذلك . وربما كانت الشهور الاربعة التى أوقفت فيها زوجته صرف المنحة قاسية ، أما فى غير ذلك الوقت فإنها كانت تصرف باستمرار ، حتى بعد موتها . ولم يكن هذا بالتأكيد مورد دخله الوحيد فقد كانت لادى كوينزبرى ترسل إليه نقوداً بانتظام ، وكان أصدقاؤه يرسلون إليه شيكات كلما استطاعوا . ومما لا شك فيه أنه كان هناك آخرون لم تعرف أسماؤهم كانوا يقدمون إليه مساعدات . ومع ذلك فحينما كان الأمر يعنى النقود فإنه كان يتخابث ويكذب . وكسكير مدمن أقدم مرة على بيع حق الامتياز عن فكرة تمثيلية لستة أشخاص ، وقد كتب هذه الرواية فيما بعد فرنك هاريس تحت عنوان « مستر ومسز دافنترى » ولقد عرف روس وايلد فى أيامه الأولى ، فعرف طبعاً ماعناه بـ « مستوى معين من المعيشة » . وهو يقول جازماً : « كان قادراً على الحصول على هذا المستوى منذ خروجه من السجن ، باستثناء أسابيع قليلة أو ربما بعض شهور » . وفيما يتعلق بدخل وايلد فى الأحد عشر شهراً الأخيرة من حياته يقرر روس ما يأتى :

« على حد علمى منذ يناير الماضى تسلم ٤٠٠ جنيه من الأوصياء على تركة زوجته — وذلك علاوة على المنحة السنوية وقدرها مائة وخمسون جنيها — وكان ذلك بواسطتى . كما تسلم ٣٠٠ جنيه جاءت إليه من عائلة كوينزبرى ، و ١٠٠ جنيه من

Twitter: @abdulllah1994

مدير أحد المسارح . بينما دفع نفقات رحلته فى إيطاليا مستر ميللور ، الذى كان يرافقه فى تلك الرحلة ، وكان دائماً شديد العطف عليه . لقد كان هناك حوادث كثيرة محزنة ومفجعة وقعت فى الشطر الأخير من حياته . ولذلك ليس هناك ما يدعو أولئك الذين كانوا مهتمين به إلى أن يرهقوا أنفسهم بتصورات وهمية عن فقره » .

كيف إذن أتى على تلك المبالغ التى تعتبر فى جملتها مبلغاً كبيراً فى تلك الأيام ؟ ليس من الصعب أن يحدس المرء أن جانباً صغيراً منها أنفق فى الضروريات ، كالمأكل والملبس ، أما الجانب الأكبر فقد أنفق على الشراب والأولاد الذين « كانوا ينبحون فى طلب الفائدة » . بل وأيضاً فى تقديم هدايا للسائلين تتجاوز الكرم المألوف ، وهبات للخدم تزيد عن الحد . وذلك لأن شخصاً كوايلد أحب أن يقوم بدور الملك فى توزيع العطايا يجد من الصعب أن يتنازل عن طبعه ، حتى بعد أن يكون فقد تاجه وأصبح يعتمد على كيس غيره .

لست من المغرمين بمسجل الصوت . ففى الأيام القديمة لم يكن هناك من يسمع الكلمة البطالة سوى الله . أما اليوم فإنها تذاع على الألوف من الأحياء ، بل وتحفظ لإشباع فضول الأجيال القادمة . غير أن هذا الاختراع قد جعل فى الإمكان إنصاف الممثل الكبير إنصافاً تاماً . فنحن مثلا لم نعرف عن ماليبران[1] سوى اسمها فى تاريخ الأوبرا . غير أن أبناء أحفادنا سيستطيعون إصدار حكمهم الشخصى على أمثال فلاجستا[2] وكالاس[3] . وإذا كانت ماليبران لم تفعل — على الأقل — أكثر من أن

(١) هى ماريا فيليستا جارسيا Maria Felicita Garcia مغنية من أصل إسبانى ولدت فى باريس (١٨٠٨ — ١٨٣٦) . « المترجم »

(٢) Flagsta .

(٣) Callas .

Twitter: @abdulllah1994

تغنى فإنه لا يسعنا إلا أن نعتقد فى سهولة أنها كانت مغنية عظيمة ، وذلك لأن معاصريها قد رأوا ذلك بالإجماع . وما دمنا لا نملك دليلا فإننا لا نستطيع أن نتشكك فى ذوقهم . ولكن هب أنها كانت أيضاً مؤلفة أغانى من الدرجة الثانية ، فتغالى معاصروها كثيراً فى تقدير موسيقاها ، فى هذه الحالة لا يسعنا إلا أن نتشكك فى ذوقهم فى الغناء .

من المستحيل علينا أن نكون منصفين مع وايلد ، وذلك لأنه وإن كان معاصروه قد اتفقوا جميعاً على أن أحاديثه المرتجلة كانت فوق مستوى كتاباته ، إلا أنهم رأوا أيضا أن كتاباته كانت أحسن مما نرى . وليس هناك بين أشعاره قطعة قدر لها أن تعيش ، وذلك لأنه بالإجمال كان ينقصه صوت الشاعر المنبعث من داخله هو ذاته ، فقد كان ما كتبه من الشعر تقليداً للشعر فى عمومه . لقد كانت خطاباته عن حياة السجن إلى « الديلى كرونيكل » صادقة ؛ أما قصيدته عن « سجن ريدنج » فلم تكن كذلك . وحسب القارئ أن يقرأ شيئا منها كالمقطوعات الآتية ليعتقد أن قائلها لم يكن قط فى السجن وإنما اطلع فقط على قصيدة « الملاح القديم » :

كانت تنحدر سريعا ، كانت تنزلق بعيداً ،
كما يفعل الراحلون فى الضباب :
فى دورات خفيفة وتثنية عابثة
كانت تسخر من القمر راقصة ،
وفى خطى رسمية ورشاقة وهمية
استمرت الأشباح على ذاك المنوال .

Twitter: @abdulllah1994

في تقطيب وتكشير رأيناها تذهب ،
أشباحاً هزيلة ، يد الواحد في يد الآخر ،
هذا قرب ذاك ، وفي جمهرة شيطانية
مضت تقوم برقصة أسبانية :
ورسمت السوخ الملعونة زخرفة عربية ،
كما تفعل الرياح فوق الرمال !

أما عن نثره غير التمثيلي ، فإننا لا نزال نشعر بالسرور إذا ما قرأنا له « الأمير السعيد وقصص أخرى » و « روح الإنسان في ظل النظام الاشتراكي » ، و « مقاصد » ، إذ أن ما جاء فيها من تكلف يحتوى كله على نقد له قيمته . أما « مثال مستر و . هـ » فإنها تسبب النفور ، كما أن « صورة دوريان جراى » ثقيلة الظل .

وأما عن نضوجه كمؤلف مسرحى فقد كان مهماً ؛ سواء في إنجلترا أو في فرنسا . فقد كان كتاب المسرحية في زمنه ، حتى أحسنهم ، مفتونين بفكرة الرواية العقيمة ، والتي تفسد نفسها ، وهي التي شخصها شو بطريقة صحيحة كمحاولة لإخراج نوع من الأوبرا بغير موسيقى ، حينما قال :

« إن الدراما لا يمكن أن تفعل إلا القليل لإدخال السرور على الحواس . فإذا كان هناك أدلة واضحة بعكس ذلك فإنها ترجع إلى الافتتان الشخصي بالممثل . والدراما ذات الشاعر الصافية لم تمتد في يد الكاتب المسرحى ، فقد تغلب عليها الموسيقار » .

Twitter: @abdulllah1994

كانت التمثيلية النموذجية الشائعة فى ذلك الوقت هى النوع القصير من الميلودراما (١) . والواقع إن عدداً من هـذه التمثيليات ، بما فيها « سالومى » ، قد اختفت من المسرح فى ذلك الحين ثم عادت فانتعشت فى دار الأوبرا إلى اليوم . وكان استنتاج شو ، وقد كان صحيحاً بالنسبة إليه ، أن مستقبل التمثيلية المجردة من الموسيقى يضع نفسه فى التمثيلية الفكرية . ولم يستطع وايلد أن يأخذ طريق شو لأنه لم يكن مفكراً . غير أنه كان موسيقاراً فى اللفظ من الدرجة الأولى . وبينما استطاعت « سالومى » أن تكون لبرتّو ناجحة ، لم تستطع أن تكون كذلك كل من « مروحة لادى وندرمير » و « امرأة بغير أهمية » و « زوج مثالى » ؛ وذلك لأن أحسن وأكثر عناصرها الأصيلة — النكت والمقطوعات الشعرية ذات المغزى والعبث الفكاهى — غير قابلة للتركيز ، كما أن حبكاتها الشجوية المسرحية تفقد قوتها لخروجها فى تمثيلية كلامية . غير أن وايلد فى « أهمية أن تكون جاداً » نجح فى كتابة ما قد تعتبر الأوبرا اللفظية الوحيدة فى الإنجليزية . وكان نجاحه صدفة ، كما يبدو ، إذ أنه لم يقدّر قط أن هذه القطعة سترتفع فوق كل ما كتب من تمثيليات . وكان الحل الذى وجده ، قصداً أو عرضاً ، هو إخضاع كل عناصر التمثيلية الأخرى للديالوج وغرضه الخاص ، وخلق عالم من اللفظ تحدد فيه الشخصيات على أساس نوع القول الذى تدلى به . أما الحبكة فإنها لا تزيد عن تعاقب المناسبات لإخراج هذه الأقوال . وكجميع الأعمال الفنية الأخرى استمدت هذه التمثيلية قوامها من الحياة . وإنى إذ أتحدث عن نفسى أقول أنى كلما شاهدت هذه الرواية أو قرأتها أتمنى لو لم أكن

(١) Melodramatic libretto manqué

Twitter: @abdulllah1994

علمت ما علمته عن حياة وايلد وقت أن كان عاكفاً على كتابتها ، فلا يتجه فكرى لتوه — مثلا — إلى تصور المنزل الذى كان يديره الفرد تيلور حينما أسمع « جون ورثنج » يتكلم عن الذهاب « للعجن فى الكمك » ! والواقع أن وايلد نفسه حينما أعاد قراءتها بعد خروجه من السجن لم يتمالك أن قال : «كان من العجيب أن أقرأ هذه الرواية حتى نهايتها ! عجباً ، كيف كنت ألعب هكذا بحياة النمور تلك ؟ » . وحينما أصل أنا نفسى إلى نهايتها أرانى قد تخيلت بعض مشاهد التمثيل الهزلى الصامت يؤديه بعض العفاريت ؛ ولكن بدلا من أن تتحول الحياة العادية بلمسة من عصا الساحر إلى أرض الجن يتحول البيت الريفى فى « هيرتفورد شير » التى لم توجد قط إلى محكمة « أولد بيلى » كما تتحول قسمات « لادى براكنل » إلى قسمات القاضى « ويلز » ! ومع ذلك فإن هذه التمثيلية تعتبر قطعة فنية خالدة . وسيبقى وايلد بسببها متمتعاً دائماً بشهرة غير شخصية كفنان ، كما سيبقى محتفظاً بالسمعة السيئة التى تتصل بأسطورته الشخصية .

لقد تركت فضيحة وايلد أثرها السيء فى كل من إنجلترا وأمريكا ردحاً من الزمن . وقد أثرت لا على الكتاب والفنانين بل فى موقف الرأى العام تجاه الفنون ؛ فقد أتاحت للرجل المتحلل أن يحقق ذاتيته فى التحفظ . ومن المحتمل أن الشعور كان يسود الطبقة الوسطى دائماً بأن اهتمام الغلام بشىء من الفنون يعتبر دليلا على ميول فيه للأنوثة ، وهو ما قد يكون له أثر إلى اليوم ، غير أن هذا الشعور قد تزايد كثيراً بعد محاكمة وايلد . وإنما يقتضينا إنصاف تلك الطبقة أن نقول إن مثل ذلك الشعور كان له ما يبرره . فالفنان ومخالط نوعه يتميزان عادة بعنصر

Twitter: @abdulllah1994

من « النرجسية »[1] ، أو عشق الذات ، يزيد كثيراً عن الحد الطبيعى ، وإن لم يصل فى كل منهما إلى درجته فى الفنان المثل . ومن المحتمل أيضاً أن تكون نسبة هذا العنصر فى الفنانين والممثلين أعلى منها فى غيرهم من أصحاب المهن الأخرى . ولقد كان اصطناع الحشمة والتظاهر بالاستقامة فى الطبقة الوسطى من السمات الرادعة فى القرن التاسع عشر . غير أننا يجب ألا نذهب بعيداً فى خيالنا ، فنتصور أن الطبقتين العاملة والأرستقراطية كانتا أكثر اعتدالا فى ذلك العصر . فقد كان الزوج من الطبقة العاملة يعتدى على زوجته بالضرب إذا ما ثمل وكان الشخص الأرستقراطى يرى أن من حقه الطبيعى أن يقوم بمغامراته الجنسية فى مجال الفقراء . ولو كان واحد من الطبقة الأرستقراطية لوقف من حوله أبناؤها معلنين أنهم لم يروا فى سلوكه ما يشين ، أما وقد كان واحداً من الطبقة الوسطى شق طريقه إلى المجتمع الراقى فقد كان من الطبيعى أن يتركوه يلقى مصيره ، وربما شعروا بالارتياح حينما رأوه يسقط من عليائه بعد أن تجاوز وضعه المناسب .

غير أن المرء ، كما أعتقد ، يستطيع أن يقول إن الفعل الذى كان يعتقد أنه شنيع أصبح بمرور الزمن مما ينظر إليه على أنه مفيد . فاليوم ،

---

(١) « النرجسية » أو (النرسيسية Narcissism) ، هى ما اصطلح علماء الجنس على إطلاقه على عاشق ذاته ، اعتمادا على الأسطورة القائلة أن « نارسيس Narcisse » ابن « سيفيس Céphise » ، (وهو نهر) ، قد فتن بصورته حينما رآها منعكسة على مياه بعض الينابيع ، وبلغ من فرط ذهوله من شدة جماله أن وقع فى الينبوع ، فتحول إلى زهرة النرجس المعروفة . وكما يقول كاتب المقال فان هذا الميل إلى مخالطة أفراد من نفس النوع شائع بين الفنانين والفنانات بطبيعة الحال . وما من شك فى أن مبعثه هو إعجاب الشخص بنفسه إلى حد كبير .

« المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

بعد حوالى سبعين عاماً فقط ، لم يعد هناك لا طبقة عاملة ولا طبقة أرستقراطية بالمعنى الذى كان مفهوماً فى القرن التاسع عشر . وإنما نعيش جميعاً فى طبقة متوسطة . وهذه الطبقة تعلم الآن أن المشكلة لا تقوم فى اللواط وحسب ، بل تشمل الحياة الجنسية بصورة عامة . وهى تعلم أن حل هذه المشكلة لا يمكن أبدا بادعاء أنها ليست موجودة . فإذا كنا قد التفتنا فى جد إلى ما قاله فرويد وغيره عن الدور المعقد الذى يلعبه النشاط الجنسى فى حياتنا ؟ وإذا كنا أدركنا سبب ذلك الشعور المبهم . . . شعور السخط الخلقى العنيف الذى يستولى علينا كلما أحسسنا بالنشاط الجنسى يمارسه جارنا — إذا كنا حقا قادرين الآن على قراءة خطاب وايلد بغير حافز شهوانى ، كما لو كنا نقرأ شيئاً كتب بقصد الإمتاع والإفادة ، إذن فإن وايلد ، كما أعتقد يكون قد أدى لنا هذه المساعدة .

[نشرت فى مجلة « نيو يوركر » خلال عام ١٩٦٣]

Twitter: @abdulllah1994

أحداث حياة وايلد

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

أحداث حياة وايلد

١٨٥٤	١٦ أكتوبر	يولد أوسكار وايلد فى المنزل رقم ٢١ وست لاندرو ، دبلن .
١٨٥٥		تنتقل العائلة إلى المنزل رقم ١ ميدان مريون بالشمال .
١٨٦٤ – ٧١		فى مدرسة بورتورا الملكية ، إينسكيلن .
١٨٧١ – ٧٤		فى كلية ترينتى Terinity ، دبلن .
١٨٧٤	أكتوبر	يذهب إلى كلية ماجدالن Magdalen ، فى أكسفورد .
١٨٧٥	يونيه	يسافر إلى إيطاليا فى صحبة ماهافى
١٨٧٦	١٩ أبريل	وفاة سير وليم وايلد .
	٥ يوليه	الأول فى درجة Mods .
١٨٧٧	مارس – أبريل	يزور اليونان فى صحبة ماهافى ، ويعود عن طريق روما .
١٨٧٨	١٠ يونيه	يفوز بجائزة نيوديجت Newdigate مع رافنا Ravenna .
	١٩ يوليه	الأول فى درجة Greats .
	٢٨ نوفمبر	يحصل على درجة B. A.

Twitter: @abdulllah1994

١٨٧٩	الخريف	يحل بمسكن مع فرانك مايلز فى رقم ١٣ شارع سالزبورى ، لندن .
١٨٨٠	أغسطس	ينتقل مع مايلز إلى منزل كيتس ، شارع تايت ، شلسى .
١٨٨١	٣٠ ؟ يونيه	ينشر أشعارا .
	٢٤ ديسمبر	يبحر إلى الولايات المتحدة الأمريكية .
١٨٨٢		يلقى محاضرات فى أمريكا وكندا طوال العام .
١٨٨٣	يناير ؟ مايو	فى باريس ، بفندق ڤولتير .
	يوليو ؟	ينتقل إلى مسكن فى المنزل رقم ٩ بشارع شارل — ميدان جروسفنور .
	أغسطس — سبتمبر	يذهب إلى نيويورك فى زيارة قصيرة لإخراج ڤيرا Vera .
	٢٤ سبتمبر	يبدأ جولة محاضرات فى المملكة المتحدة تستغرق عاماً بين مد وجزر .
	٢٦ نوفمبر	يعقد خطوبته على كونستانس لويد .
١٨٨٤	٢٩ مايو	يتزوج من كونستانس لويد فى لندن .
	مايو — يونيه	فى شهر العسل فى باريس وفى دييب .
١٨٨٥	١ يناير	ينتقل إلى رقم ١٦ شارع تايت .
	٥ يونيه	يولد سيريل وايلد .
١٨٨٦		يلتقى بروبرت روس .
	٣ نوفمبر	يولد ڤيڤيان وايلد .
١٨٨٧		يضطلع بتحرير مجلة « عالم المرأة » .

Twitter: @abdulllah1994

١٨٨٨	مايو	ينشر « الأمير السعيد وقصص أخرى » .
١٨٨٩	يوليه	ينشر « مثال مستر و . هـ . W. H. » في صحيفة « بلاك وود » . يستقيل من تحرير « عالم المرأة » .
١٨٩٠	٢٠ يونيه	ينشر « صورة دوريان جراى » في صحيفة « لينبنكوت » .
١٨٩١	يناير ؟	يلتقى بلورد الفرد دوجلاس .
	يناير	تخرج « دوقة بادوا » في نيويورك ، كما تخرج « جيدو فيرانى » .
	فبراير	ينشر كتاب « روح الإنسان في ظل الاشتراكية » في مجلة نصف شهرية .
	أبريل	ينشر « صورة دوريان جراى » ككتاب .
	٢ مايو	ينشر « مقاصد » .
	يوليه	ينشر « جريمة لورد أرثر سافايل وقصص أخرى » .
	نوفمبر	ينشر « بيت من الرمان » .
	نوفمبر — ديسمبر	يكتب « سالومى » في باريس .
١٨٩٢	٢٠ فبراير	تخرج « مروحة لادى ويندرمير » .
	٢٦ مايو	ينشر طبعة محدودة من الأشعار .
	يوليه	تصادر « سالومى » بواسطة كبير أمناء القصر .
	يوليه	يستشفى في همبورج Hamburg .
	أغسطس — سبتمبر	يكتب « امرأة بغير أهمية » في نورفولك .

Twitter: @abdulllah1994

	نوفمبر	يقيم في مرتفعات بابا كومبي قرب تركوا .
١٨٩٣	٢٢ فبراير	تنشر « سالومى » بالفرنسية .
	٥ مارس	يترك بابا كومبي .
	١٩ أبريل	تخرج « امرأة بغير أهمية » .
	يونيه — أكتوبر	يقيم فى بيت خلوى فى جورنج — على نهر التيمس .
	أكتوبر	يأخذ مسكناً فى رقم ١٠ و ١١ ساحة جيمس ، ويكتب هناك « زوج مثالى » .
	٩ نوفمبر	تنشر « مروحة لادى ويندرمير » .
١٨٩٤	٩ فبراير	تنشر « سالومى » بالإنجليزية ، وتصور بريشة بيردسلى Beardsley .
	مايو	فى فلورنسا مع دوجلاس .
	١١ يونيه	تنشر « أبو الهول » .
	أغسطس — سبتمبر	يكتب « أهميــة أن تــكون جاداً » فى ورثنج .
	٩ أكتوبر	تنشر « امرأة بغير أهمية » .
	أكتوبر	فى برايتون مع دوجلاس .
١٨٩٥	٣ يناير	تخرج « زوج مثالى » .
	يناير — فبراير	يزور الجزائر مع دوجلاس .
	١٤ فبراير	تخرج « أهمية أن تـكون جادا » .
	٢٨ فبراير	يعثر على بطاقة كوينزبرى فى نادى ألبمارل Albemarle .
	١ مارس	يحصل على أمر بالقبض على كوينزبرى .

Twitter: @abdullllah1994

	٩ مارس	ينتقل كوينزبرى فى شارع بو لمحاكمته فى محكمة أولد بيلى .
	مارس	يزور مونت كارلو مع دوجلاس .
	٣ أبريل	تفتتح محاكمة كوينزبرى .
	٥ أبريل	يطلق سراح كوينزبرى، ويقبض على وايلد.
	٦ — ٢٦ أبريل	يسجن فى هولواى .
	٢٦ أبريل	تفتتح المحاكمة الأولى .
	١ مايو	المحلفون يختلفون . يصدر الأمر بمحاكمة جديدة .
	٧ مايو	يطلق سراحه بكفالة .
	٢٠ مايو	تفتتح المحاكمة الثانية .
	٢٥ مايو	يحكم عليه بسنتين سجنا مع الأشغال الشاقة ، ثم يسجن (بعد قضاء يومين فى نيوجيت) فى بنتونفيل .
	٤ يوليه	ينقل إلى واندسويرث .
	٢٤ سبتمبر	التحقيق الأول فى الإفلاس .
	١٢ نوفمبر	التحقيق الثانى فى الإفلاس .
	٣٠ نوفمبر	ينقل إلى ريدنج .
١٨٩٦	٣ فبراير	وفاة لادى وايلد .
	١١ فبراير	تخرج « سالومى » فى باريس .
١٨٩٧	يناير — مارس	يكتب « د . برفوندى » .
	١٨ مايو	ينقل إلى بنتونفيل .

Twitter: @abdulllah1994

	١٩ مايو	يطلق سراحه . يعبر إلى دييب فى أحد زوارق الليل .
	٢٦ مايو	ينتقل من دييب إلى برنفال ـ سير ـ سير .
	٢٨ ؟ ٢٩ أغسطس	يلتقى بدوجلاس فى روان .
	٤ ــ ١٠ سبتمبر	فى روان .
	١٥ سبتمبر	يترك دييب إلى باريس .
	٢٠ سبتمبر	يصل إلى نابولى .
	٢٧ ؟ سبتمبر	ينتقل إلى ڤيلا جويديتشى ، بو سيلليبو .
	١٥ ــ ١٨ أكتوبر	يزور كابرى مع دوجلاس .
	ديسمبر	يزور سيشلى .
١٨٩٨	يناير	ينتقل إلى ٣١ سانتا لوتشا ، نابولى .
	١٣ ؟ فبراير	ينتقل إلى فندق د نيس ، باريس .
	١٣ فبراير	تنشر « قصيدة سجن ريدنج » .
	٢٨ مارس	ينتقل إلى فندق د ألزاس .
	٧ أبريل	وفاة كونستانس وايلد .
	يونيه ــ يوليه	فى نوجنت ـ سير ـ مارن .
	أغسطس	فى شينفيير ـ سير ـ مارن .
	١٥ ديسمبر	يغادر إلى نابولى ، قرب كان .
١٨٩٩	فبراير	تنشر « أهمية أن تكون جادا » .
	فبراير	يغادر نابولى إلى نيس .
	٢٥ فبراير	يغادر نيس إلى جلان ، سويسرا .
	١ أبريل	يغادر جلان إلى سانتا مارجريتا .

Twitter: @abdulllah1994

	أبريل — مايو	يعود إلى باريس ، ويحل فى فندق د. لانيفا .
	مايو	ينتقل إلى فندق مارسولييه Marsollier
	٢٣ — ٢٦ يونيه	فى تروفيل و لاهافر .
	يوليه	تنشر « زوج مثالى » .
	يوليه	فى شينفيير — سير — مارن .
	أغسطس	يعود ثانية إلى فندق د ألزاس .
١٩٠٠	٢ — ١٠ أبريل	فى بالرمو .
	١٢ أبريل — ١٩ مايو	فى روما .
	مايو	عشرة أيام فى جلان .
	مايو — يونيه	يعود إلى باريس .
	١٠ أكتوبر	تجرى له جراحة .
	٣٠ نوفمبر	يموت فى فندق د ألزاس .

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

سجن ريدنج

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

سجن ريدنج

وصف شعرى بقلم أوسكار وايلد

مقدمة :

إن رسالة « د . برفوندى » وقصيدة وايلد عن سجن ريدنج تعتبران أعظم أعماله التى جاءت نتيجة لدخوله السجن . ففى عام ١٨٩٥ حول إلى سجن ريدنج ، وهو مؤسسة عقابية صارمة النظام . وكان من بين زملائه المسجونين واحد يدعى تشارلس توماس وولريدج ، وهو جندى شاب اتهم بقتل زوجته . وفى يوليو من ذلك العام شنق وولريدج فى سقيفة صغيرة فى فناء السجن بينما كانت الراية السوداء مرفوعة . وقد استطاع المسجونون أن يروا بسهولة الكومة الصغيرة من الطين والجير حيث دفن جندى الحرس البريطانى .

وعلى أثر إطلاق سراح وايلد فى مايو ١٨٩٧ ذهب مباشرة إلى فرنسا حيث بدأ فى يوليو يضع قصيدته الشهيرة . وقد نشرت فى فبراير ١٨٩٨ بواسطة ليونارد سميترز ، الذى أخرج منها ست طبعات فى ثلاثة أشهر . وكان وايلد قد حصل على نسخة من قصة هاوسمان « صبى من شروبشير » وقد رأى كثير من النقاد أنه قد يكون تأثر بها فى كتابة قصيدته .

Twitter: @abdulllah1994

لم يكن مرتدياً معطفه القرمزى ،
فالدم والنبيذ من اللون القانى ،
والدم والنبيذ كانا على يديه
ساعة أن وجد بجانب القتيلة ،
المرأة المسكينة التى أحبها ،
ثم قتلها فى فراشها !

كان يمشى بين قضاته
فى ثوب رمادى خلق ؛
تغطى رأسه قبعة صغيرة ؛
وتبدو خطاه خفيفة قصيرة ؛
ولم أر قط رجلا كان ينظر
هكذا فى اشتياق إلى ذلك اليوم . !

لم أر قط رجلا كان ينظر
بمثل تلك العين المشتاقة
إلى القبة الصغيرة الزرقاء
التى يسميها المساجين السماء ،
وإلى كل سحابة مندفعة مرت
تحف بها شراعات بيضاء

Twitter: @abdulllah1994

ومشيت ، مع نفوس أخرى فى العذاب ،
فى حلقة أخرى ؛
وكنت أفكر : ما إذا كان الرجل قد فعل
شيئاً كبيراً أو صغيراً ،
حينما همس إلىّ صوت خفيض من ورائى :
« هذا الرجل جُعل ليشنق » !

٦

حبيبى المسيح ! إن جدران السجن ذاتها
تكاد تميد من فرط ألمها ،
وأن السماء من فوق رأسى
خوذة من الصلب تكوى نارها ،
ومع أنى كنت من المتألمين
إلا أنى لم أشعر بألمى !

وإنما علمت فقط أى فكرة ملحة
عجلت خطاه ، ولماذا
كان ينظر إلى اليوم السار
بمثل تلك النظرة المشتاقة ؟
فقد قتل الرجل الشىء الذى أحب ،
وهكذا وجب أن يموت !

Twitter: @abdulllah1994

ومع ذلك فكل امرئ يقتل الشيء الذي يحب
فدع كل واحد يسمع هذا !
البعض يقتل بنظرة مريرة ،
والبعض يقتل بكلمة تملق ،
والجبان يقتل بقبلة ،
أما الشجاع فيقتل بالحسام .

والبعض يقتل حبيبه شاباً ،
والبعض يستمهله حتى مشيبه ؛
والبعض يخنق بيد من شهوة ،
والبعض يصرع بضربة من ذهب ؛
أما أرقهم فهو الذي يستعمل المدية ،
فلا يقضي الحبيب لحظة في عذاب .

والبعض يهوى قصيراً جداً ، والبعض يغرم طويلا جدا ،
والبعض يبيع ، وغيره يشترى ؛
والبعض يفعل الشيء في دموع غزيرة ،
والبعض يفعله بغير آهة واحدة :
فكل رجل يقتل الشيء الذي يحب ،
ومع ذلك فكل رجل لا يموت !

Twitter: @abdulllah1994

إنه لا يموت ميتة العار
في يوم سوّده الشنار ،
ولا يشعر بحبل يحز عنقه
ولا بغطاء يحجب وجهه ،
ولا بقدميه تتدليان من خلال الأرض
إلى هاوية ليس لها قرار !

إنه لا يجلس بين رجال صامتين
يحرسونه ليلا ونهاراً ؛
يراقبونه كلما حاول أن يبكي ،
وكلما حاول أن يصلي ؛
ويحرسونه حتى لا يقوم نفسه
بسلب سجنهم فريسته !

إنه لا يستيقظ فجراً ليشاهد في محنته
وجوهاً مفزعة تتجمع في غرفته :
القس المرتجف في ملابسه البيضاء ،
والمأمور المنقبض في كآبته السوداء ،
والمحافظ في ردائه الطويل الحالك ،
بوجهه الأصفر كناية عن الموت !

Twitter: @abdulllah1994

إنه لا يهب فى فزعة يرثى لها
ليرتدى ثياباً لها رهبتها ،
بينما يقف طبيب خشن اللسان
يدون وقفة النبض ، وخلجة الجنان ،
على ضوء ساعة دقاتها الصغيرة
أشد وقعاً من ضربات المطرقة الهائلة .

إنه لا يعرف تلك الظمأة الممرضة
التى ترمل الحلق ،
قبل أن يدخل الجلاد من الباب المبطن ،
وقد وضع يديه فى قفازين خشنين ،
ليقيده بثلاثة سيور من الجلد
حتى لا يظمأ الحلق بعدها أبدا .

وهو لا يحنى رأسه ليسمع
شعائر الدفن تقرأ ،
بل ولا يتجاوز نعشه ، فى طريقه إلى جدثه
فى داخل الحظيرة الموحشة ،
بينما ينبئه الفزع
أنه لم يفارق الحياة .

Twitter: @abdulllah1994

إنه لا يحدق في الهواء
من خلال سقف من زجاج :
وهو لا يصلي بشفتين من طين
ليتخلص من الكرب العظيم ؛
ولا يشعر بقبلة كايف[1]
تقع على خده المرتجف !

(٢)

مضت ستة أسابيع وحارسنا يذرع الفناء
في ثوبه الرمادي الخلق ؛
تغطي رأسه قبعته الصغيرة ،
وتبدو خطاه خفيفة قصيرة ،
ولم أر قط رجلا كان ينظر
هكذا في اشتياق إلى اليوم الموعود !

لم أر قط رجلا كان ينظر
بمثل تلك العين المشتاقة
إلى القبة الصغيرة الزرقاء
التي يسميها المساجين السماء ،
وإلى كل سحابة شاردة تسحب
أذيالها المتحررة في الفضاء !

---

(١) كايف Caiphe هو كبير كهنة اليهود الذي حكم على المسيح واضطهد أتباعه ، ثم حاول أن يتخلص من المسئولية بإحالته إلى الحاكم الروماني بيلاطس .
« المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

إنه لم يعتصر يديه ، كما يفعل
أغبياء الرجال من المندفعين
فى محاولة لتنمية الأمل الكاذب
فى كهف اليأس المظلم ؟
وإنما كان ينظر فقط إلى الشمس ،
ويرتشف من هواء الصباح .

إنه لم يعتصر يديه ، ولم يبك ،
ولم يقلب البصر حسرة ، ولم يهلك الجسد حزناً ،
وإنما كان يستنشق الهواء
كما لو كان يحتوى بلسما ؟
ويكرع من أشعة الشمس
كما لو كان يكرع خمرا .

أما أنا وغيرى ممن كانوا فى العذاب ،
وقد كنا نتجول فى حلقة أخرى ،
فقد نسينا ما إذا كنا قد اقترفنا
شيئاً كبيرا أو صغيرا ،
ومضينا نراقب فى دهشة كئيبة
ذلك الرجل الذى وجب أن يشنق .

Twitter: @abdulllah1994

وكان من الغريب أن نراه يمر
بخطى في تلك الخفة والبهجة ،
وكان من الغريب أن نراه ينظر
بمثل ذلك الشوق إلى يوم المحنة ،
وكان من الغريب أن نعتقد أن عليه
أن يؤدى مثل ذلك الحساب !

إن شجر البلوط والدردار له أوراق لطيفة النوّار
يتجدد نبتها كل ربيع :
وإنما المفزع أن ينظر المرء إلى تلك الشجرة الهائلة
بجذرها الذى عضته أفعى قاتلة
وعليها ، خضراء أو جرداء ، يجب أن يعلق إنسان
قبل أن تؤتى شيئاً من الثمار !

إن أرفع الأماكن ذلك الذى تغمره النعمة ،
ذلك الذى يحاول الوصول إليه جميع الماديين
ولكن من ذا الذى يرضى بالوقوف فى حلقة من القنب
فوق سقالة ترتفع فى الهواء ،
وفى ضيق طوق القاتل
يرسل آخر نظراته إلى السماء ؟

Twitter: @abdulllah1994

جميل جداً أن يرقص المرء على أنغام الكمان
حينما يكون الحب والحياة مقسطين :
وأن يرقص على أنغام الناى أو المزهر
فهذا أرق ، وإنما هو أندر ؛
أما أن يرقص بأرجل تتأرجح فى الهواء
فهذا هو القبح ، ويا له من بلاء !

وهكذا بعين من الفضول وحدس من الخيال
مضينا نراقبه يوماً بعد يوم ،
وكنا نتساءل فى عجب ما إذا كان كل منا
سيلقى نفس المصير المحتوم !
وذلك لأن أحداً لا يستطيع أن يخبر ، فى أى جحيم أحمر
قد تستقر روحه القصيرة النظر !

وأخيراً لم يعد الرجل الميت يمشى
بين رجال المحاكمة ،
وقد علمت أنه كان واقفا
فى الحظيرة المرعبة من القفص الأسود ،
وأننى لن أرى وجهه ثانية قط
فى عالم الله الجميل !

Twitter: @abdulllah1994

مثل سفينتين هالكتين تضطربان في عاصفة
عبر كل منا طريق الآخر ؛
غير أننا لم نبد إشارة ، ولم نحرك شفة ،
إذ لم يكن لدينا ما نستطيع قوله ؛
فقد التقينا ، لا في الليلة المباركة ،
بل في يوم الشر !

كان من حولنا سور السجن ،
وكنا اثنين من المنبوذين :
اثنين حرمهما العالم من محبته
وطردهما الله من رحمته ؛
فإذا بنا وقد وقعنا في حبائل
مصيدة جهنمية نصبت للمذنبين !

(٣)

في فناء السجن أحجار قاسية ،
وجدران غطاها الرشح عالية ،
هناك مضى يستنشق الهواء
تحت سماء رصاصية غبراء ،
وعلى كل من جانبيه حارس ،
خشية أن يفارق الرجل الحياة .

Twitter: @abdulllah1994

أو غير ذلك ، كان يجلس بين المراقبين ،
في ليلة سكتت على عذاب ونهار نطق بالأنين ؛
أولئك الذين كانوا يرمقونه كلما نهض ليبكي ،
ويحدجونه كلما قبع ليصلي ،
وكانوا يحرسونه لكي لا يسطو هو نفسه
على سقالتهم فيجردها من الكنز الثمين !

كان المحافظ شديداً في تنفيذ القانون ،
وما أدراك ما القانون !
وكان الطبيب يردد إن الموت حقيقة علمية
لا يشك فيها إلا الجاهلون ؛
أما الكاهن فقد كان يأتي كل يوم مرتين
ليلقي عظة صغيرة من باب التذكير باليقين .

وكان الرجل يدخن غليونه كل يوم مرتين ،
كما كان يتناول جعته كذلك مرتين ؛
وكانت حالته المعنوية عالية ،
ولم يكن هناك محل للخوف في قلبه ؛
فقد كان غالباً يقول إنه مسرور
بوجود الجلاد على قيد خطوتين !

Twitter: @abdulllah1994

ولكنَ لِمَ كان يردد هذا القول الغريب ؟
لم يستطع حارس أن يسأل ؟
وذلك لأن من حكم عليه
بأن يعمل حارسا
يجب أن يضع على شفتيه قفلا ،
وأن يجعل من وجهه حاجباً !

أو غير ذلك ، ربما تحرك قلبه بخاطر
أن يعزى ويواسى ؟
ولكن ماذا تنفع الشفقة الإنسانية
إذا حبست فى جحر قاتل ؟
ما هى كلمة الرحمة التى يمكن فى ذلك المكان
أن تتخلص بها روح إنسان ؟

فى تراخى وتأرجح حول الحلقة
مضينا نؤدى استعراضاً تهريجيا !
لم يكن يهمنا شىء : فقد علمنا أننا
فرقة الشيطان نفسه !
وكانت رؤوسنا المحلوقة وأقدامنا الرصاصية
صورة صادقة لهذه المسخرة الشيطانية

Twitter: @abdulllah1994

مزّقنا حبال القار إلى نتف
بأظافر مثلومة دامية ؛
وحككنا الأبواب ، ومسحنا البلاط ،
ونظفنا الحواجز اللامعة ،
وفي صف بعد آخر صبّنا البطاطين
ثم مضينا نقرقع بالدلاء !

خيّطنا الزكايب ، وكسّرنا الأحجار ،
وحرثنا الأرض ، مستنشقين الغبار ،
وطرقنا الصفائح ، وردّدنا المدائح ،
ثم عرقنا في إدارة الطاحون .
وإنما كان الفزع لا يزال
رابضاً في قلب كل إنسان .

كان لا يزال رابضاً حاله كل يوم
ليزحف كموجة عوقها الخبيث من الأعشاب
وقد نسينا الحظ الأسود
الذي ينتظر الأحمق والوغد ،
حتى حدث مرة في عودتنا من الشقاء
أن مررنا بقبر لا يستره حجاب .

Twitter: @abdulllah1994

بفم فاغر كان الجحر الأصفر ينتظر
ليبتلع المسكين — ذلك الإنسان الحي ؟
وكان الطين نفسه يصرخ مطالبا بدم
من حلقة الأسفلت العطشى دائما :
وقد علمنا أنه قبل أن ينبلج النهار
سيشنق واحد منا بحكم القدر !

ومضينا إلى الداخل ، وقد استغرقت النفس
فى الموت والفزع والقضاء المبرم ؟
وجاء الجلاد بحقيبته النكداء
فأخذ يمد للأمر فى الظلماء
فزحف كل منا إلى قبره المرقوم ،
وهو يرتعد فرقاً .

فى تلك الليلة كانت الطرقات الخالية
تعج بخيالات من الرعب عاتية ،
وفى أعلى المدينة الحديدية وفى أسفلها
مضت تسترق خطى لم نسمعها ،
ومن خلال الحواجز التى حجبت النجوم
تراءت وجوه بيضاء تنظر فى وجوم .

Twitter: @abdulllah1994

أما هو فقد اضطجع كما ينام المرء ويحلم
فوق أرض مرج جميل ،
ومضى الحراس يراقبونه فى نومه ،
ولم يستطيعوا أن يفهموا
كيف ينعم المرء هكذا بنوم هادئ ،
بينما يقف جلاد على رأسه بحبل متين !

إن النوم لا يواتى حينما يبكى الرجال
ممن لم يذرفوا من قبل دمعة قط ؟
وهكذا احتفظنا — نحن الحمق ، الغشاشين ، الأوغاد —
بيقظة لا حد لها ،
وفى مسالك كل مخ ، فى تلافيف من الخوف ،
كان يزحف فزع أكبر .

وا أسفاه ! إنه لأمر فظيع
أن يشعر المرء بجرم غيره !
فسيف الخطيئة المسموم يتغلغل
إلى الأعماق حتى قبضته ،
وكم ذرفنا من دموع كالرصاص السائل
على دم لم نسفكه !

Twitter: @abdulllah1994

بنعال صنعت من اللباد
زحف الحراس نحو الأبواب ،
ومضوا يختلسون النظر ، بعيون ملؤها الحذر ،
إلى أجسام عفراء قبعت فوق الغبراء ،
ثم يعجبون : كيف يركع لتأدية الصلاة
قوم لم يعرفوا قط طريق الله !

•

طوال الليل كنا نركع ونصلى ،
حزانى مسلوبى العقل من الضيق !
رياشاً مضطربة فى منتصف الليل
كتلك التى تهتز فوق عربة الموتى ؛
ونبيذاً مراً أريق فوق إسفنجة
كان فى مذاقه معنى الندامة !

صاح الديك الأغبر ، صاح الديك الأحمر ،
غير أن النهار لم يأت قط !
وفى الزوايا حيث اضطجعنا
قبعت أشباح كريهة من الخوف تفزعنا ؛
وبدت كل جنية شريرة تسرح فى المساء
كأنما تلهو أمامنا فى جلاء .

Twitter: @abdulllah1994

كانت تنزلق بعيداً ، كانت تنحدر سريعا ،
كما يفعل الموغلون في الضباب ،
كانت تسخر من القمر راقصة
في استدارة سريعة وتثنية عابثة ،
وفي خطى محمومة ، وحركة مسمومة
مضت تلهو على ذاك المنوال .

في تقطيب وتكشير رأيناها تعبث
أشباحاً هزيلة يد كل في يد الآخر :
هذا قرب ذاك ، وفي جمهرة شيطانية
مضت تحاكي رقصة إسبانية ،
وتخرج صورا أشبه بزخرفة عربية
كما تفعل الرياح فوق الرمال !

في حركات « القرقوز » البهلوانية
مضت تتخبط في تخطراتها الملتوية ،
وأخذت تصم الآذان بصفير مفزع
إذ هي تتدافع في موكبها المفجع ،
ثم غنت عاليا ، وغنت طويلا ،
فقد غنت لإيقاظ الموتى !

Twitter: @abdulllah1994

وكانت تصيح : « يا هو ! ... إن الدنيا واسعة ،
غير أن الأرجل المقيدة عرجاء !
وأن تقذف بـ « الزهر » مرة بعد أخرى
ففي هذا كياسة ...
ولكن حذار من أن تؤدي بك الخطيئة
إلى البيت السري للعار ! » .

لم تكن تلك الأشباح محض خيال
إذ مضت تعبث هكذا في خبال ،
فقد تبدت حقيقة لمن سلبوا الحرية
وباتت أقدامهم ترسف في الأغلال :
آه يا جراح المسيح ! لقد كانت كائنات حية ،
هي أبشع ما تراءى لمن فقدوا الآمال !

دائرة ، دائرة ، رقصت وغنت ،
بعضها يتلاقى في ازدواج سمج ،
في خطى تعرجت في هوج ،
والبعض كان منساباً فوق الدرج
وفي سخرية خبيثة ، ونظرة خسيسة
مضت تساعدنا في الصلاة !

Twitter: @abdulllah1994

بدأت ريح الصباح تنوح
غير أن الليل استمر على طوله ؛
وأخذ نسيج الكآبة يزحف عبر نوله
حتى ابتلع كل خيط ؛
وبينما كنا نصلي ، كان الخوف يدب فينا
من عدل الشمس !

مضت الريح النائحة تتخبط
حول سور السجن الباكي ،
حتى شعرنا بالدقائق تدب
كأنما هي عجلة من الصلب تدور ؛
أيتها الريح النائحة ! ما الذي فعلناه
لنقاسي هذا كله !

وأخيراً رأيت القضبان المظلمة
كأنما هي شباك صنعت من رصاص ،
تتحرك قدماً عبر السور المطلي بالبياض
الذي يواجه سريري ذي البطاطين الثلاث ،
وعلمت أنه في مكان ما من العالم
كان فجر الله المريع يتوقد جمراً !

Twitter: @abdulllah1994

في السادسة نظفنا الزنزانات ،
وفي السابعة ساد السكون المكان ،
غير أن جناحا هائلا يرف ويتأرجح
بدا كأنما هو يملأ السجن ،
فقد جاء ملك الموت بأنفاسه الثلجية
ودخل إلى المكان ليقتل !

لم يأت في موكب أرجواني ،
ولا ممتطيا صهوة جواد أبيض ؛
فالمشنقة لا تحتاج إلى أكثر
من ثلاث ياردات من الحبل ولوحة تنزلق ؛
وهكذا جاء النذير ومعه حبل العار
ليؤدي عمله في بيت الأسرار !

كنا كمن مضى يتحسس طريقه
في بطحاء يكتنفها ظلام كريه ؛
ولم نجرؤ على أن نتفوه بصلاة
أو أن ننفس من كربنا :
فقد كان هناك شيء ميت في قلوبنا ،
وكان هذا الشيء هو الأمل !

Twitter: @abdulllah1994

فقد اتخذ العدل الإنسانى المتجهم طريقه ،
ولم يكن ليحيد ذرة عن قصده :
فهو يقتل الضعيف ، وهو يقتل القوى ،
وهو ذو وثبة قاضية :
فهو يقتل القوى بسحقة حديدية ،
وهو يفعل بالمستأسد ما يفعله قاتل والديه !

انتظرنا أن تدق الساعة ثمانٍ ،
وقد جف من العطش كل لسان ؛
لأن دقة الثامنة هى دقة القدر
حينما يسجل اللعنة على إنسان .
والقدر يستعمل أحبولة لا تكف عن الجرى
يقع فيها العاصى والطائع على السواء !

لم يكن هناك ما نفعله ،
سوى أن ننتظر مجىء العلامة :
وهكذا ، كحجارة صماء ، فى بقعة جرداء ،
جلسنا ساكنين ، ولبثنا صامتين ؛
غير أن قلب كل منا كان يخفق سريعا ، ويدق ثقيلا ،
كما يدق مجنون على طبل !

Twitter: @abdulllah1994

في هزة مفاجئة دقت الساعة الثامنة
فسرى صداها في الهواء المرتجف ،
ومن جميع جوانب السجن ارتفع عويل
من اليأس الواهن ،
كصوت مجذومين يئنون في مرابضهم
تردد في مستنقعات ملأها الخوف ..

وكما يرى المرء أشد الأشياء هولا
في بلورة من حلم مفزع ،
رأينا حبل القنب وقد لوثه الشحم
منعقداً إلى دعامة بلون الفحم
وسمعنا الجلاد يصلي في همهمة
قطعتها صرخة مفزعة !

ولم يشعر أحد بذلك الفزع
الذي تجلى في تلك الصرخة ،
ولا بالتحسر الهائل ، ولا بالعرق السائل ،
كما شعرت بذلك كله :
وذلك لأن من يعش أكثر من حياة
يعان أكثر من موت !

Twitter: @abdulllah1994

(٤)

إن الكنيسة لا تفتح أبوابها
فى اليوم الذى يشنق فيه رجل :
فقلب الكاهن يكون هابطا للغاية ،
أو إن وجهه قد يتحول إلى شمع ،
أو إن عينيه قد تعبران
عما لا يستطيع أحد أن يقرأه .

وهكذا احتفظوا بنا فى الزنزانات إلى قرب الظهر ،
وحينئذ قرعت الأجراس ،
وجاء الحراس يصلصلون بمفاتيحهم
ففتحوا كل زنزانة تتسمع ،
فهبطنا فوق السلم الحديدى ،
كلا من جحيمه المنفصل !

خارجا فى هواء الله الجميل ذهبنا
غير أن حالنا لم يكن بالطبيعى .
فقد كان وجه أحدنا مبيضا من الخوف ،
وكان وجه الآخر مزرقا ،
ولم أر فى حياتى حزانى كانوا ينظرون
هكذا فى اهتمام إلى ذلك اليوم !

Twitter: @abdulllah1994

لم أر فى حياتى حزانى كانوا ينظرون
بمثل تلك العين المهمومة
إلى تلك القبة الصغيرة الزرقاء
التى دعاها السجناء السماء ،
وإلى كل سحابة غافلة مرت
جانباً فى حرية وصفاء !

وإنما كان بيننا جميعا أولئك
الذين كانوا يمشون منكسى الرأس ،
فقد علموا أنه لو أوتى كل ما يستحقه ،
لكان أحرى أن يموتوا بدلا :
فقد قتل الرجل شيئا حيا
أما هم فقد قتلوا الموتى !

فذلك الذى يخطىء ثانية
هو الذى يوقظ نفسا ميتة لتتألم من جديد ،
ويسحبها من كفنها الملطخ ،
ويجعلها تستنزف من دمائها المزيد ،
ويجعلها تستنزف دماءها فى بقع كبيرة ،
ويجعلها تستنزف دماءها بغير فائدة !

Twitter: @abdulllah1994

كقرود أو أجلاف فى ثياب مريعة
زخرفت بسهام نجمية فظيعة ،
مضينا فى صمت نتحلق ونتحلق
فى الفناء المغطى بالأسفلت الزلق ؟
فى صمت مضينا نتحلق ونتحلق ،
ولم يجرؤ واحد منا على النطق !

فى صمت مضينا نتحلق ونتحلق ،
ومن خلال كل عقل أجوف
اندفعت ذكرى الأشياء الفظيعة
كما تندفع رياح مريعة .
وقد انساب الفزع أمام كل واحد
وزحف الجزع من الخلف !

أخذ الحراس يتقابلون صاعدين نازلين ،
ومضوا يحرسون قطيعهم من المجاولات ،
وكانت كسواتهم أنيقة ،
فقد ارتدوا حلل يوم الأحد ،
غير أننا علمنا ما هو العمل الذى كانوا فيه ،
من آثار الجير الحى فوق نعالهم .

Twitter: @abdulllah1994

فحيثما يُفتح قبر واسعا ،
لا يكون هناك قبر قط :
بل فقط سطح من الطين والرمل
بجانب سور السجن البشع ،
ثم كومة صغيرة من الجير المحترق ،
هي كل ما للرجل من بساط الرحمة !

بلى ، فذلك التعس له كذلك بساط رحمة !
ولكن من نوع لا يتصوره إنسان :
ففي غور سحيق ، تحت فناء سجن
يرقد عارياً ، إمعانا في العار ،
وقد أغلق على كل من قدميه غل ،
ولفه غطاء من نار !

وطوال الوقت يمضى الجير المحترق في مهمته
فيأكل في اللحم ويأكل في العظم ؛
وهو يأكل العظم الهش في الليل ،
ويأكل اللحم الطرى في النهار ،
وهو يأكل اللحم والعظم بالدور ،
وإنما هو يأكل القلب باستمرار !

Twitter: @abdulllah1994

طوال ثلاث سنوات لن تزرع تلك البقعة
ولن تغرس فيها جذور ولن تنثر بذور ،
طوال ثلاث سنوات ستكون المتعوسة
عقيمة جرداء :
تتطلع إلى السماء المتحجبة
بنظرة جديرة بالرثاء !

فهم يعتقدون أن قلب القاتل سيلطخ
كل بذرة بسيطة يزرعونها .
وليس هذا صحيحا ! فأرض الله الطيبة
أشفق مما يتصورونها ،
والوردة الحمراء تزداد هنا احمرارا ،
والوردة البيضاء تزداد نصوعا !

من فمه تخرج وردة حمراء !
ومن قلبه تخرج أخرى بيضاء !
وإلا فمن ذا الذى ينبئ ، بأى طريقة تخرج
إرادة المسيح إلى النور من الظلماء ،
بعد أن ازدهر العود الجاف فى يد الحاج
بنظرة من الوالد الحنون !

Twitter: @abdulllah1994

غير أن وردة بيضاء أو حمراء
لا تنبت فى جوٍّ سممه الشقاء !
فالحصى ، والحجر ، والصوان ،
كل ما يجود به ذلك المكان !
وقد عرف الناس فى الزهور أنها
تزيل اليأس من قلب الإنسان .

وهكذا لن تتناثر قط ورقة بعد أخرى
من وردة حمراء أو بيضاء
فوق ذلك السطح من الطين والرمل
الذى يقع بجانب السور الوعر ،
لتخبر أولئك الذين يذرعون الفناء
أن ابن السماء مات لخلاص البشر !

ومع ذلك ، فإذا كان ذلك السور البشع
سيكتنفه ثم يكتنفه ،
وإذا كانت قد لا تخطر فى المساء
روح ، هى تلك التى قرنت فى الأصفاد ،
وإنما قد تبكى فقط روح ، هى تلك التى وضعت
فى تلك البقعة الدنسة .

Twitter: @abdulllah1994

إلا أنه فى سلام — ذلك التعس —
فى سلام ، أو سيكون سريعاً :
فليس هناك شىء يسبب له الجنون ،
ولا فزع يتطرق إليه فى وضح النهار ،
لأن الأرض المعدومة المصابيح التى يرقد فيها
لا يوجد بها شمس ولا قمر !

لقد شنقوه كما يعلق وحش :
ولم يقوموا حتى بقرع الأجراس
لإقامة صلاة على روحه المفزوعة
قد تعود عليها بشىء من الراحة .
بل أخرجوه فى سرعة ،
وألقوا به فى حفرة !

وقد جردوه من ملابسه الخشنة
وقدموه طعمة للذباب ؛
ومضوا يسخرون من العنق المنتفخ الأحمر ،
ومن العينين المحملقتين الجامدتين ؛
وفى ضحكات مرتفعه مضوا يكومون الكفن
الذى سيرقد فيه مجرمهم .

Twitter: @abdulllah1994

ولم يركع كاهن ليؤدى الصلاة
بجانب قبره الذى وصمه الشين :
ولم يشر إليه بذلك الصليب
الذى جُعل رمزاً للمخطئين ،
وذلك لأن الرجل كان واحدا
ممن وهبوا عفو المخلّص الأمين !

بالرغم من ذلك ، كل شىء حسن ! فهو فقط قد مر
إلى حتمية الحياة ، كما رسمها القدر !
وستذرف عليه دموع غريبة
رحمة بقلبه الذى طالما تكسّر !
وذلك لأن الحزانى عليه هم المنبوذون ،
والمنبوذون هم دائما الحزانى !

(٥)

إننى لا أعلم ما إذا كانت القوانين صحيحة ،
أم إن هذه القوانين باطلة !
وكل ما نعلمه نحن الذين نعيش فى السجون
إن السور جد متين ،
وإن كل يوم فى طول العام ،
وإن عامنا أطول منه بحساب الزمن !

Twitter: @abdulllah1994

غير أنى أعلم أن كل قانون
من وضع الإنسان نفسه ، وقد وضعه ليتحكم فى البشر !
منذ أن اعتدى الإنسان على حياة أخيه ، بحكم القدر !
فمنذ ذلك الحين بدأ العالم الكئيب
يستبعد القمح ويحتفظ بالقش
بعذراة صنعت من الشر !

واعلم أيضا هذا — وكان صوابا
لو علمه كل شخص آخر :
فكل سجن يبنيه الرجال
يبنى بلبنات من صميم العار
وهو ، إذ يحصر بقضبان ، يُحجب حتى لا يرى المسيح
كيف يشوّه الرجال أخوتهم الرجال !

إنهم بتلك الحواجز يلطخون وجه القمر !
وهم بها يحجبون نور الشمس عن البصر !
وإنهم ليفعلون حسنا ، إذ يخفون جحيمهم عن النظر !
ففيه تحدث أشياء
يجب أن ينظر إليها دائما
لا بنى الإنسان ، بل المرتجى المنتظر !

Twitter: @abdulllah1994

إن شر الأعمال ، كالعشب الضار ،
تجد تربة خصيبة فى تلك القفار ؟
وإنما الذي يذوى ويندثر
هو الجانب الخيّر فى البشر ؟
والحارس الأكبر هو الألم الأصفر ،
أما السجان فهو اليأس !

*

إنهم يجيعون الصبي الخائف
حتى يبكي نهاره وليله ؛
وهم يقرعون الضعيف ، ويجلدون الغافل ،
ويستهزءون بالمسن ، ويسخرون من الواهن ؟
فيتحول البعض إلى مجانين ، وينقلب الكل إلى مجرمين ،
ولا يستطيع أحد أن يعترض بحرف !

كل زنزانة ضيقة نقيم فيها
دورة مياه قذرة تراكبت ظلماتها .
والنَّفَس الكريه للموت الحي
يتفشى فى كل ستار مهلهل ،
وكل شيء ، ما عدا الشهوة ، يتحلل إلى تربة
فى دولاب الإنسانية الدائر !

Twitter: @abdulllah1994

الماء الآسن الذى نتجرعه
يتسرب فى حمأ تعافه النفس ،
والخبز المر الذى يوزن بالقسطاس
يمتلئ بالطباشير والكلس ،
والنوم لا نناله فى اضطجاع بل نقتله فى تجوال
بأعين متوحشة وأنات مترنحة نستعجل الزمن !

ومع أن الجوع الهزيل والعطش الغشوم
يقتتلان كحية صغيرة مع أفعى كبيرة ،
إلا أننا لا نعنى كثيرا بخيرات السجن ،
فهناك ما يسقط الهمة ويقتل النفس
وهو أن كل حجر نرفعه فى النهار
يمسى قلبا لكل منا فى الليل !

بحلول ظلام منتصف الليل دائما فى كل قلب ،
ووجود ظلام الغسق فى كل زنزانة ،
نقوم بإدارة ذراع الدولاب ، أو تقطيع الحبال ،
كلا فى جحيمه المنفصل ،
هنالك يكون السكون أشد رهبة
من صوت الجرس النحاسى الهائل !

Twitter: @abdulllah1994

ولا يحدث قط أن يرتفع صوت من قريب
لإلقاء كلمة رقيقة ؟
والعين التي تراقب من خلال الباب
معدومة الرحمة ، قاسية العتاب ،
وفي نسيان من الجميع ، نتعفن ثم نتعفن ،
فتفسد الروح ويفسد الجسم معا .

وهكذا نحدث الصدأ في سلسلة الحياة القوية
معزولين ومنفردين :
والبعض يلعن ، والبعض يبكي ،
والبعض لا يبوح بشيء :
غير أن قوانين الله الخالدة رحيمة
وهي قادرة على أن تنفذ في الحجر الأصم .

وكل قلب إنساني يتحطم ،
في زنزانة السجن أو في فنائه القاتم ،
هو مثل ذلك الصندوق الذي تحطم .
فأعطى كنزه الثمين إلى الرب ،
وملأ بيت المجذوم القذر
بعبير أغلى عطور الناردين .

Twitter: @abdulllah1994

يا إلهى ! إنهم سعداء أولئك الذين يقدر لقلوبهم أن تتحطم
ويربحون سلام العفو !
وإلا ، فبأى شىء يستطيع الإنسان أن يضع خطته فى استقامة
وأن يطهر روحه من الخطأ ؟
بأى طريق ، إن لم يكن طريق القلب المحطم
يستطيع سيدى المسيح أن يدخل إلى كل قلب ؟

وذلك الذى انتفخ عنقه واحمر ،
وجمدت عيناه على نظرة لا تتغير
فى انتظار اليدين القدسيتين اللتين
أخذتا اللص إلى الفردوس ؛
وان يزدرى الرب قط
قلبا محطما ندم وتحسر .

إن الرجل الذى يحكم بالقانون ـ ذاك الذى يرتدى الثوب الأحمر ـ
أعطاه ثلاثة أسابيع من الحياة ،
ثلاثة أسابيع قصيرة يبرئ فيها
نفسه من كل ذنب ،
ويطهر اليد التى قبضت على السكين
من كل أثر للدم .

Twitter: @abdulllah1994

وبدمع من الدم قام بتطهير اليد ،
تلك التى قبضت على الحديد ؛
فالدم لا يمحوه إلا الدم ،
والدموع هى فقط التى تبرئ من الذنب .
واللطخة الحمراء التى جاءت من فعل قابيل ،
أصبحت خاتما للمسيح ناصع البياض !

(٦)

فى سجن ريدنج ، بمدينة ريدنج
توجد حفرة من العار ،
يرقد فيها رجل تعيس
فى كفن ملتهب يضطجع ،
لتأكل فيه ألسنة النار .
ولا يحمل قبره أى اسم !

فهناك دعه يرقد فى سكون ،
حتى يستدعى المسيح الموتى ؛
وليس ثمة حاجة لتذرف عليه دموع الحمقى ،
أو ترسل الحسرات الصاخبة سدى :
فالرجل قد قتل الشيء الذى أحب ،
وهكذا وجب أن يموت !

Twitter: @abdulllah1994

وجميع الرجال يقتلون الشىء الذى يحبون ،

فدع الكل يسمع هذا :

بعضهم يفعل ذلك بنظرة مريرة

والبعض بكلمة تزلف

والجبان يفعله بقبلة ،

أما الشجاع فيفعله بالحسام !

Twitter: @abdulllah1994

خطاب الى :

روبرت روس

Twitter: @abdullllah1994

إلى روبرت روس[1]

(النسخة الأصلية : كلارك)

أول أبريل ١٨٩٧ — سجن صاحبة الجلالة

عزيزى روبى :

أرسل إليك ، فى ملف منفصل ، خطابى[2] إلى ألفرد دوجلاس[3] ، وأرجو أن يصل سالما[4] . وحالما تطلع عليه ، ومعك بالطبع مور أدى[5] ، الذى أشركه معك دائما ، أريد أن تعمل لى نسخه لى بعناية . وهناك أكثر من سبب ، يكفى توضيح واحد منها . فقد رأيت أن تكون وكيلا لأعمالى الأدبية فى حالة موتى ، وأن يكون لك الإشراف التام على تمثيلياتى وكتبى وأوراقى . وحالما أجد لنفسى الحق القانونى فى عمل وصية فإننى سأفعل . إن زوجتى[6] لا تدرك شيئاً من الفن ، كما تعلم . وليس من المحتمل أن تبدى أى اهتمام به ؛ كما أن سيريل لايزال طفلا . فمن الطبيعى أن أعتمد عليك ، كما أفعل دائما . ولذلك أرغب فى أن تحصل على كل أعمالى . أما الخصم الذى يتأتى من بيعها فيمكن وضعه لحساب كل من سيريل وفيفيان[7] .

حسنا . إذا كنت وكيلا لأعمالى الأدبية فيجب أن يكون فى حيازتك

Twitter: @abdulllah1994

الوثيقة الوحيدة التي يمكن بالتأكيد أن تقدم أي توضيح عن سلوكي الغريب فيما يتعلق بكوينزبري والفرد دوجلاس . وحينما تطلع على الخطاب سترى التوضيح السيكلوجي لسلوك إذا ما نظر إليه في الظاهر بدا مزيجا من البلاهة المحضة والعربدة السوقية . وإنما سيتأتى من الأسباب مايؤدي إلى ظهور الحقيقة يوماً ، وليس بشرط أن يكون ذلك أثناء حياتي أو حياة دوجلاس . غير أنني لا أستطيع أن أبقى طوال الوقت في آلة التعذيب التي وضعت فيها ، وذلك بسبب بسيط ؛ فقد ورثت عن أبي وعن أمي اسما له مكانته الرفيعة في عالم الأدب والفن . وبالطبع لا يمكن أن أسمح لكوينزبري بأن يتخذ من هذا الاسم درعا ومخلب قط إلى الأبد . انني لا أدافع عن سلوكي بل أوضحه .

كذلك يوجد بالخطاب فقرات تتناول تقدمي عقليا في السجن ، وما كان لابد من حدوثه معي من تطور في الطبع والوضع الذهني تجاه الحياة . وإني أريد منك وممن لا يزالون يقفون بجانبي ويشعرون بالعطف على أن تدركوا جيدا في أي حالة وبأي أسلوب أرجو أن أواجه العالم . إني بالطبع أعلم ، من إحدى وجهات النظر ، إنني في اليوم الذي أترك فيه السجن لن أكون فعلت أكثر من الخروج من سجن للدخول في آخر . وأنه سيكون هناك أوقات يبدو لي فيها العالم كله وكأنما هو لا يزيد سعة عن زنزانتي . ولن يكون جوه أقل رعباً . ومع ذلك فإنني أعتقد أن الله في البدء قد جعل لكل منا عالمه الخاص . وأن المرء يجب أن يبحث عن الحياة في هذا العالم الذي هو في داخل نفسه . على كل حال ، ستقرأ تلك الأجزاء من خطابي في ألم أقل من ألم الآخرين .

ولست في حاجة ، بالطبع ، إلى أن أذكرك — وأن أذكرك انت ،

Twitter: @abdulllah1994

كيف تكون الفكرة شيئاً مائعا معى — معنا جميعاً ، ومن أى مادة متلاشية تصنع عواطفنا . وإنما أرى أنه لايزال هناك من الأهداف مايمكننى ، بواسطة الفن ، أن أتقدم نحوه . وليس بمستبعد أن تكون قادراً على مساعدتى .

وفيما يتعلق بطريقة النسخ ، من الطبيعى أن الخطاب من الطول بحيث لا يصح التفكير فى أن ينسخ بخط اليد . ثم إن كتابتك ، ياعزيزى روبى ، فى خطابك الأخير جاءت وكأنما قصد بها تذكيرى بأن مثل هذه المهمة يجب ألا تلقى عليك ! ربما كنت مخطئاً فى فهم قصدك ، وأرجو أن أكون ! غير أن الأمر فى الحقيقة يبدو كما لو كنت شغلت بكتابة رواية من ثلاثة أجزاء عن خطورة سيطرة الآراء الشيوعية بين الأغنياء ، أو فى موضوع مريع يثير اهتماما حيوياً . أو كما لو كنت بطريق أو آخر مضيت تفنى شبابا لا يسعنى إلا أن أقول أنه كان مبشراً وسيكون دائماً ! أعتقد أن الشىء الوحيد الذى يمكن فعله أن نتبع الطريقة الحديثة ، فتعمل على نسخه على الآلة ، بالطبع يجب ألا يبعد الأصل عن نظرك . ولكن ، أليس من الممكن أن تسأل مسز مارشال أن ترسل إليك واحدة من بناتها الناسخات إلى هورنتن ستريت أو إلى فيليمور جاردنز ، لتقوم بنسخه تحت اشرافك؟(8) إن النساء خير من يعتمد عليه فى مثل هذا الشأن ، إذ أن ذاكرتهن لاتعى الأشياء الهامة غالباً . وإنى أؤكد لك أن الآلة الكاتبة إذا ما أدت دورها فى التعبير لا تكون أكثر إزعاجا من البيان إذا ما وقعت عليه شقيقة أو إحدى القريبات ، بل أنها مفضلة لدى كثير ممن كرسوا أنفسهم للحياة المنزلية .

أريد أن يكون طبع النسخة على ورق لا من النوع الرقيق بل الجيد ،

Twitter: @abdulllah1994

من ذلك الذى يستعمل فى الروايات . وأن يترك فى الصفحة هامشاً عريضاً لوضع التصحيحات . فإذا تم طبعها وروجعت على الأصل ، حمله مور إلى الفرد دوجلاس . وإنما أرى أن تطبع نسخة أخرى تبقى لديك بجانب تلك التى سأحصل عليها[٩] . بل انى أرغب فى عمل نسختين أيضاً إبتداء من الصفحة الرابعة من الفرخ التاسع حتى الصفحة الأخيرة من الفرخ الرابع عشر ، من فقرة « ... وخاتمة الأمر انى أغفر لك ... » حتى فقرة « ... ليس بين الفن وبينى شىء » ... (انى أقتبس من الذاكرة) . وأيضاً من الصفحة الثالثة من الفرخ الثامن عشر ، من فقرة « ... سيفرج عنى إذا سار كل شىء على ما يرام » ، حتى فقرة « الأعشاب المرة ... جملة » ، فى الصفحة الرابعة[١٠] . فإذا ما تم ربط سياق هذه الفقرات ، مع إضافة أى شىء آخر تراه حسناً جميل القصد ، كالصفحة الأولى من الفرخ الخامس عشر ، فانى أرغب فى إرسال إحدى هاتين النسختين إلى لادى ويمبلدن[١١] . وهى السيدة التى تكلمت عنها بغير أن أذكر اسمها — والثانية إلى فرانسكى فوربس ـ روبرتس[١٢] . وذلك لأن كلا من هاتين المرأتين اللطيفتين — كما أعلم — يهمها أن تعرف شيئاً مما حدث لى ، لا بالمعنى اللاهوتى بل فقط بمعنى اليقظة الروحية فى انفصال عن إنشغالات الجسد . إنه نوع من رسالة ، أو خطاب ، أرسله إلى كل منهما ، هو بالطبع الوحيد الذى أجرؤ على إرساله . فإذا رغبت فرانسكى ، فيمكنها أن تطلع عليه أخاها أريك ، فقد كنت دائماً محباً له . غير أن الأمر يجب أن يبقى سراً مكتوما ، وهذا ما يجب أن تعلمه أيضاً لادى ويمبلدن .

فإذا تم القيام بالنسخ فى هورنتن ستريت فإن السيدة الناسخة يجب أن تتناول طعامها بغير أن تتخطى عتبة الباب الخارجى ، كما يفعل الكردينالات حينما يقومون بانتخاب البابا ، حتى تتمكن من الظهور فى

Twitter: @abdulllah1994

الشرفة لتهتف بالعالم : « إليك أيها العالم خطابا ! » . فالواقع أنه خطاب عام ، وكما أن نشرات الأب المقدس تعرف من كلماتها الاستهلالية فيمكن التكلم عنه بأنه خطاب كتب فى جو السجن والأغلال .

ليس هناك حاجة إلى إخبار الفرد دوجلاس بأن نسخة قدأخذت من الخطاب ، وذلك مالم يكتب هو ويشكو من الاجحاف أو التمويه فيما كتبت. ففى هذه الحالة يجب إخباره . وانى أرجو جادا أن يكون للخطاب أثره فى اصلاحه . فهذه هى المرة الأولى التى يقدم فيها شخص على اخباره بالحقيقة عن نفسه . فإذا سمح لنفسه بأن يتصور أن الخطاب ليس إلا نتيجة لتأثير المضجع الخشن على أسلوبى، وأن آرائى قد فسدت بما لقيته فى حياة السجن من أنواع الحرمان ، فلن يعقب ذلك خير . وإنما أرجو أن يتولى البعض اخباره إن هذا الخطاب هو برمته مايستحقه ؛ فإذا كان جائراً فإنه يستحق الجور كله . ومن ذا الذى يستحق ذلك حقاً أكثر من ذلك الذى كان دائما جائراً مع الآخرين ؟

والواقع ياروبى أن حياة السجن تجعل المرء يرى الناس والأشياء على حقيقتها . وهذا هو السبب فى أنها تحيل الشخص إلى حجر . فأولئك الذين يعيشون خارج السجن يخدعون بوهم من الحياة فى حركتها الدائبة ، وهم يدورون مع الحياة ويساهمون فى باطلها . أما نحن الذين لا نتحرك فإننا نرى ونعلم . وسواء كان الخطاب نافعاً لطبيعته الضيقة ومخه المريض أو لم يكن فإنه أفادنى كثيراً ، إذ أننى به قد « طهرت صدرى من كثير من الحشو الخطير »(١٣) . وإنى هنا استعير عبارة من ذلك الشاعر الذى فكرت معك يوماً فى العمل على تخليصه من الماديين(١٤) . لست فى حاجة إلى أن أذكرك بأن مجرد التعبير هو بالنسبة إلى الفنان أرفع أساليب الحياة،

Twitter: @abdulllah1994

بل أنه أسلوب الحياة الوحيد فى نظر الفنان . فبالنطق نحن نعيش . ومن بين الأشياء الكثيرة ، والكثيرة جداً ، التى يجب أن أشكر عليها محافظ السجن لايوجد أعظم منّة من سماحه لى بأن أكتب إلى الفرد دوجلاس فى حرية تامة ، وبالقدر الذى ابتغيته من الاستفاضة . ولقد كنت طوال عامين أحمل فى نفسى عبأ متزايداً من المرارة ، أما الآن فقد تخلصت من أكثره . يوجد على الجانب الآخر من سور السجن بعض أشجار حقيرة سوداء لطخها السخام ، وهى الآن تتفتح عن براعم فاقمة الخضرة . وانى أعلم تماما ماذا تفعل هذه الأشجار ، فهى تجد طريقها إلى التعبير .

هناك شيء آخر على جانب كبير من الأهمية يجب أن أكتب إليك حوله ، وإنى أوجه إليك قولى لأن لدى ما يوجب لومك ، وإن حبى الشديد لك يمنعنى من أن أبدى هذا اللوم لغيرك . ففى العشرين من مارس ١٨٩٦ (١٥) ، أى قبل مضى أكثر من عام ، كتبت إليك فى أقوى عبارات التعبير ، منبئا انى لا احتمل فكرة قيام خلاف بينى وبين زوجتى على موضوع كالمال ، وذلك بعد أن أبدت الكثير من اللطف بمجيئها من ايطاليا لتدلى إلى بنبأ موت أمى ، وقلت انى أرغب فى أن يقوم اصدقائى بسحب اقتراحهم بشراء الفائدة العمرية الخاصة بى ، إذ أن ذلك يتعارض ورغبتها . وكان يجب أن تهتم بالأمر وتعمل على تنفيذه ، غير انك أهملت ذلك فكان فيه كل الخطأ . فقد كنت فى السجن ، معدوم الوسيلة ، ولم يكن امامى إلا أن اعتمد عليك فإذا بك ترى أن الشيء لا يكون صحيحاً إلا إذا دل على المهارة ، وعلى الحذق ، وعلى البراعة . وكنت فى هذا مخطئا كل الخطأ . فالحياة ليست معقدة ، وإنما نحن الذين نعقدها بما فينا من تعقد . الحياة بسيطة ، والشيء البسيط هو الصحيح وانظر إلى النتيجة ! فهل أنت مرتاح إليها ؟

Twitter: @abdulllah1994

ثانيا ، حدث خطأ فادح فى تقدير شخصية مستر هارجروف[١٦] . فقد اعتبر محامياً من نوع همفريز — واحداً من أولئك الذين يهددون للحصول على غرض ، ويهوشون ، ويبتزون ، إلى غير ذلك وكان الأمر على العكس تماماً . فالرجل على خلق عال ، وله مركزه الإجتماعى الكبير ، وهو يعنى دائماً ما يقول . ففكرة وضعى ، أنا السجين التعيس المتسول ، موضع الخصومة منه ومن سير جورج لويس[١٧] كانت مضحكة ؛ كما كانت فكرة التقاضى ضدها سخيفة . إن مستر هارجروف — وهو محامى عائلة لويد طوال ثلاثين عاما — يستطيع أن يقدم إلى زوجتى عشرة آلاف جنيه بمجرد إشارة منها بغير أن يشعر بأنه فعل شيئاً . لقد سألت مستر هولمان[١٨] . ما إذا كانت التسوية فى حالة الطلاق ليست مما يقع فيه البطلان بنفس الفعل ، فلم أتلق رداً . واخال الأمر كما تصورت .

ثانية ، كم كانت سخيفة تلك الخطابات الجدية الطويلة التى جاءت تنصحنى « بألا أسلم بحقوقى فيما يختص بطفلىّ » ، وهى عبارة تكررت سبع مرات فى المراسلات . حقوقى ! لم يكن لى حقوق. إن ادعاءً يمكن أن يبطله فى عشر دقائق استئناف رسمى يرفع إلى قاضى فى المحكمة لا يمكن أن يعتبر حقا . والواقع اننى مندهش من الوضع الذى وضعت فيه ! فكم كان أفضل لو فعلتم كما طلبت . ففى ذلك الوقت كانت زوجتى من اللطف بحيث كان يمكن أن تسمح لى برؤية ولدى والبقاء معهما أحيانا[١٩] . لقد وضعنى الفرد دوجلاس فى وضع كاذب فيما يتعلق بوالده ، دفعنى إليه ثم ابقانى فيه . وقد فعل هذا مور أدى أيضا ، محولا بأحسن المقاصد . فقد دفعنى إلى موقف كاذب فيما يتعلق بزوجتى . وحتى لو كان لى شىء من الحقوق القانونية ، والواقع أنه ليس لى شىء من ذلك ، فكم كان جميلا أن أحصل على الامتيازات التى منحت لى بالمودة بدلا من تشويهها بالتهديد !

Twitter: @abdulllah1994

إن زوجتى كانت معى غاية فى اللطف ، أما الآن فإنها تتخذ طريقها ضدى تماما ، وهو أمر جد طبيعى . وقد حدث خطأ أيضاً فى تقدير طبعها ، فهى قد حذرتنى من السماح لأصدقائى بالتقاضى ضدها ، وإلا سلكت طريقا معينا . ولا شك أنها فاعلة .

ثانيا ، يقول سوينبورن فى إحدى قصائده ، مخاطباً مارى ستيوارت :

ولكنك بالتأكيد كنت شيئاً ما أفضل

من شىء برىء ! (٢٠)

فمن المؤكد أن أصدقائى سيواجهون هذه الحقيقة (ولندع جانباً تفاصيل اتهامى التى تتعلق بأصدقائى الأخلاء ، وهم ثلاثة) ، وهى اننى لم أكن فى السجن كرجل برىء ، بل على العكس إن سجل شهواتى المنحرفة وتصوراتى الملتوية يملأ عدة مجلدات حمراء ! أعتقد إن من الصواب ذكر هذا — مهما كان وقعه على كثيرين ، فهو بلا شك سيكون مدهشا ، بل ومفجعا — وذلك لأن مور أدى يخبرنى فى خطابه أن الأخصام سيضطرون إلى تقديم معلومات دقيقة عن التواريخ والأماكن والظروف الصحيحة للتهم الفظيعة التى ستوجه إلى . فهل يتصور جديا أن قولى سيلقى تصديقا إذا استسلمت للاستجواب ؟ وهل يرى أن أفعل ذلك ، لألقى من الفشل مالقيته فى قضية كوينزبرى ؟ أنها القضية التى ليست فيها التهم صحيحة ، غير أن الأمر لايزيد عن إسهاب . فإذا سكر رجل ، مثلا ، فليس ثمة أهمية لنوع ماشرب ، أبيض كان النبيذ أو أحمر . وإذا كان رجل يستبطن شهوات منحرفة فليس ثمة أهمية كذلك لطرق ظهورها .

لقد قلت فى البدء انى أعول فقط على صفح زوجتى . وإنما أرى الآن

Twitter: @abdulllah1994

أن صفحا ما لن يكون له أى قيمة حيثما يمكن أن تلقى على أكثر من تهمة .
فستقول زوجتى فى بساطة أنها تصفح فيما يتعلق بالتهمة رقم ١ ، ولكنها لا تعلم شيئاً عن التهمة رقم ٢ ، ولن تسمع شيئا فيما يتعلق بالتهمة رقم ٣ ! هناك كتيب لا يزيد ثمنه عن شلن ، بل يباع نقداً بتسعة بنسات ، عنوانه « كل رجل محامى نفسه » . فلو أن اصدقائى أرسلوه إلى ، أو حتى قرأوه هم أنفسهم ، فقد كان يمكن توفير كل هذه المتاعب ، والنفقات ، والهموم . على كل حال ، وإن كنت ألقى عليك اللوم من البدء إلا انى الآن فى حالة عقلية تجعلنى أرى أن كل مايحدث إنما يحدث فى سبيل الأصلح ، وأن العالم ليس فى حالة من التشوش بحيث يصطدم فيه الحظ بالمهارة . أما مايجب أن أفعله فهو ببساطة أن أبدى التسليم بمسألة الطلاق .
ولست أعتقد أن فى امكان الحكومة أن تعود ثانية إلى مقاضاتى . فحتى لو كانت حكومة بريطانية فإن مثل هذا الاجراء سيكون فى اعتبارها بالغ الهمجية . ثم يجب أن أعيد إلى زوجتى الفائدة عن التسوية المالية بدلا من الانتظار حتى تؤخذ منى . وكذلك يجب أن أعلن انى لن أحصل منها على شىء بالمرة ، لا كدخل ولا كمنحة . فهذا فى نظرى هو الشىء البسيط ، المستقيم ، المهذب ، الذى يجب فعله . أنها ضربة شديدة توجه إلى وإنى أشعر فى ألم بالحرمان القانونى من أولادى .

إن صداقتى لألفرد دوجلاس أدت بى أولا إلى قفص محكمة الجنايات ، ثم أدت بى إلى قفص محكمة التفليسات ، وهاهى الآن تدفع بى إلى قفص محكمة الطلاق . وبقدر ما أستطيع أن أستنتج (بغير اعتماد على ذاك الكتيب المعروض لقاء شلن) لم يعد هناك أقفاص يستطيع أن يدخلنى فيها. فإذا صح ما أرى فإنى أستطيع أن أتنفس الصعداء . غير انى أريد منك أن تهتم جديا باقتراحى ، وأن تطلب إلى مور أن يفعل ، وكذلك يجب

Twitter: @abdulllah1994

أن يفعل محاميه . ثم تكتب إلي بصدد الموضوع بأسرع ما يمكن ، وتجعل مور يفعل . اعتقد أن زوجتي لن تعترض على رد مبلغ الـ ٧٥ جنيها الذي دفع من أجل الوراثة الملعونة للفائدة العمرية الخاصة بي . انها جد عادلة في الشئون المالية . غير اني شخصيا ارجو ألا يكون هناك أي مساومة . لقد وقع خطأ جسيم فيجب أن يعالج بالتسليم . ولذلك اقترح أن تعاد الفائدة العمرية الخاصة بي إلى زوجتي ، فهي صاحبة الحق الشرعي فيها ، كهدية مني بمناسبة الفراق . فهذا يجعل من خروجي من الزواج أمراً أقل خزيا مما لو ترك لينفذ بالالزام القانوني . وسواء كنت متزوجا أو لم أكن فإن هذا لا يعنيني ، فقد تجاهلت الرابطة طوال سنين . غير أني أعتقد أن من الصعب على زوجتي أن تكون مرتبطة بي . لقد كنت أفكر هكذا دائما . ومع إن الأمر قد يدهش بعض أصدقائي فإنني في الواقع محب لزوجتي ومغتم لحالها . واني أتمنى مخلصا أن يتاح لها زواج سعيد ، إذا تزوجت ثانية ، إنها لم تستطع أن تفهمني ، كما انني كنت أستثقل الحياة الزوجية إلى حد الموت . غير أنها كانت تتميز بصفات جميلة ، وكانت مخلصة إلى حد بعيد . وعلى أساس من هذه النقطة ، وهي تسليمي بكل شيء ، أرجو أن تجعل مور يكتب إلي ، وتكتب أنت في الحال ، وذلك بعد أن تكونا درستما المسألة .

كذلك سيكون لمور منة عظيمة إذا كتب إلي من ارتهنوا أو باعوا معطفي الفرو عند دخولي السجن (٢١) ، سائلا عن لساني ما إذا كانوا يتكرمون بالإنباء أين يكون بيع أو رهن ، وذلك لأنني مهتم باقتفاء أثره ، وراغب في استعادته ، إذا أمكن . فقد احتفظت به طوال اثني عشر عاماً ، وكان معي طوال الوقت الذي أمضيته في أمريكا ، وكان حاضراً جميع ليالي الأولى ، وهو يعرفني جيداً ، وإني أريده في الحقيقة.

Twitter: @abdulllah1994

يجب أن يكتب الخطاب بأسلوب رقيق وأن يوجه إلى الرجل أولا . فإذا لم يرد فيكتب إلى المرأة ، إذ أنها هى التى ضغطت على لأتركه فى عهدتها . ويمكن أن يذكر أنى مندهش ومتضايق ، ولا سيما وأنى دفعت من جيبى منذ وقت سجنى جميع نفقات حبسها التى بلغت خمسين جنيهاً ، وقد سلمت بواسطة ليفرسن [٢٢] . يمكن ذكر هذا كسبب لتكدرى . وإنما يجب حفظ هذه الخطابات لأن هناك أسباباً مهمة توجب ذلك . بلى ، فهناك فى الواقع أسباب جوهرية ، وإنما أريد أن يكتب الخطاب فى صيغة مهذبة ، كما أسلفت ، ولذلك فيجب ألا يحتوى على شىء من الجدل أو الانكار . فالواقع أنى لا أريد أكثر من دليل كتابى بقصد حماية نفسى .

أرجو أن أرى فرنك هاريس [٢٣] فى أحد أيام السبت ، أو فى أقرب وقت . وسأرحب بأنباء نسخ خطابى . وإنما يكون ذلك عندما أسمع منك عن مسألة الطلاق . إذا رغب أرثر كلفتن [٢٤] فى الاطلاع على النسخة فلا بأس من اطلاعه عليها ، وكذلك لا بأس من أن يطلع عليها أخوك ألك [٢٥] .

صـــديقك دائماً

أوسكار وايلد

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

خطاب الى :

لورد ألفرد دوجلاس

DE PROFUNDIS

[من الأعماق]

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

إلى لورد ألفرد دوجلاس(٢٦)

(النسخة الأصلية : المتحف البريطانى)

(يناير — مارس ١٨٩٧) سجن صاحبة الجلالة ، ريدنج

عزيزى بوزى ،

بعد انتظار طويل عقيم عزمت على أن أكتب إليك أنا نفسى ، وذلك لمصلحتك بقدر ما هو لمصلحتى ، إذ أننى لا أحب أن أتذكر أننى قضيت عامين طويلين فى السجن بغير أن أتلقى منك حتى سطراً واحداً ، أو أى أنباء ، أو رسالة ، باستثناء مثل تلك الأشياء التى تسبب الألم .

إن صداقتنا السيئة الحظ والتى يرثى لها إلى أبعد حد قد انتهت بجلب الخراب والفضيحة العلنية على ، ومع ذلك فإن ذكرى مودتنا القديمة لا تزال غالبا معى . فإذا ما فكرت فى أن الإشمئزاز ، والمرارة والاحتقار ، كل هذا سيأخذ دائما ذاك المحل من قلبى الذى كان يحمل الحب شعرت بحزن شديد . وأعتقد أنك ستشعر فى قلبك بأن كتابتك إلى حيث أبقى فى وحدة حياة السجن أفضل من أن تنشر خطاباتى بغير إذنى أو تهدى

Twitter: @abdulllah1994

إلى قصائد بغير أن يؤخذ رأيى ، وإن كان الناس لن يعلموا شيئاً عن الكلمات التى تبعث بها إلى فى ردك أو استشهادك ، أهى كلمات حزن أو انفعال أو تبكيت أو عدم اهتمام .

ليس لدى شك فى أن هذا الخطاب الذى وجب أن أتكلم فيه عن حياتك وعن حياتى ، وعن الماضى والمستقبل ، وعن الأشياء الحلوة التى تحولت إلى مرارة ، وعن الأشياء المرة التى قد تنقلب إلى سرور — هذا الخطاب يتضمن كثيراً مما يجرح خيلاءك فى الصميم . فإذا صح ذلك فأعد قراءته مرة بعد أخرى حتى يقضى على غرورك . فإذا وجدت فيه شيئاً تشعر منه بأنك قد اتهمت ظلما ، فاذكر أن المرء يجب أن يكون شاكراً لوجود خطأ يمكن به أن يتهم ظلماً . فإذا كان فيه فقرة واحدة تحرك الدموع فى عينيك ، فابك كما نبكى فى السجن ، حيث خصص النهار كما خصص الليل لسكب الدموع . فهذا هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن ينجيك . فإذا ذهبت تشكو إلى أمك ، كما فعلت يوم أن اعربتُ عن احتقارى لك فى خطابى إلى « روبى »(٢٧) ، لتعيدك بالملق والتهدئة إلى الرضاء النفسى أو الغرور ، فإنك ستكون قد ضعت تماما . فإذا وجدت عذراً كاذبا واحداً ، فإنك فى الحال ستجد مائة ثم تكون تماماً كما كنت من قبل . أوَ لا تزال تقول ، كما قلت لروبى فى إجابتك ، اننى « أعزو إليك بواعث غير مناسبة » ؟ آه ! لم يكن لديك بواعث فى الحياة ، بل كان لديك شهوات فقط . فالباعث هو هدف عقلى . أوَ كنت « صغيراً جداً »

حينما بدأت صداقتنا ؟ لقد كان عيبك لا فى إنك عرفت القليل عن الحياة بل فى انك عرفت الكثير ! لقد تركت وراءك إشراقة الصبا بما فيها من تورد ناعم ووضاءة نقية وسرور يشع من البراءة والأمل — تركت هذا كله وراءك بعيداً ، لتندفع فى عدو سريع من الخيالية إلى الواقعية ؛ ثم

Twitter: @abdulllah1994

بدأت تفتتن بالميزاب والأشياء التي تعيش فيه . وكان هـذا منشأ الاضطراب الذي جعلك تنشد مساعدتي . ولقد منحتك ماطلبت بدافع من الشفقة . وكنت في هذا غبياً بالقدر الذي يتراءى لحـكمة هذا العالم ! يجب أن تقرأ هذا الخطاب إلى آخره بغير توقف ، حتى لو جاءتك كل كلمة جمرة تشوي اللحم الرقيق ، أو مبضعا يسيل الدماء ! تذكر أن الغبي في نظر الناس ليس هو في نظر الآلهة . فالرجل الذي يجهل كل أساليب الفن في ثورته وأمزجة الفكر في اندفاعته ، ولا يعلم شيئاً عن فخامة الأساليب اللاتينية ، ولا يحس بغزارة الموسيقى الاغريقية ، ويجهل النحت التوسكاني ولا يدري ما هي أغنية العصر الاليزابيثي — هذا الرجل قد يكون ممتلئاً بأجمل معاني الحـكمة . أما الغبي الحقيقي ، ذلك الذي تسخر منه الآلهة أو تضره ، فهو الذي لا يعرف نفسه . وقد كنته أنا زمناً طويلا ، وكنته أنت أيضاً زمناً طويلا . فلا تكنه بعد ! لا تخف ! فإن أعظم الرذائل هي ضحالة العقل . وما تم إدراكه فهو صحيح ... اذكر أيضاً أن ما قد تستشعره بؤساً إذ تقرأه ، أستشعره أنا بؤساً أعظم إذ أكتبه ! كانت القوى الخفية طيبة معك ، فقـد سمحت لك بأن ترى أشكال الحياة السحرية العجيبة من الحياة ، كما يرى المرء خيالات في بلورة . بلى ، فقد سمحت لك بأن تنظر إلى رأس « ميدوسا » التي تحيل الأحياء إلى أحجار في مرآة فقط . وكنت تمشي في حرية بين الزهور ، بينما أخـذت مني الدنيا الجميلة ذات الألوان والحركة !

سأبدأ بإخبارك انني ألوم نفسي بعنف . بلى ، بينما أجلس في هذه الزنزانة المظلمة في ملابس المجرم ، لأشعر بنفسي رجلا افتضح أمره ودمرت حياته ، لا أملك إلا أن ألوم نفسي . في الليالي القلقة المتشنجة بفعل العذاب ، والأيام الطويلة المملة بفعل الألم ، ليس هناك من ألومه سوى نفسي ! انني ألوم نفسي لأنني سمحت لصداقة غبية لم يكن هدفها الأول خلق

Twitter: @abdulllah1994

الأشياء الجميلة والتأمل فيها بأن تسيطر كلية على حياتى . فقد كانت هناك ، من البدء ، ثغرة واسعة بيننا . كنت كسولا فى مدرستك ، وأسوأ من كسول فى جامعتك . ولم تستطع أن تميز أن الفنان ، والفنان بنوع خاص، كما هو أنا — أعنى ذلك الذى تعتمد نوعية أعماله على تقوية شخصيته — لكى يتاح له أن يتقدم فى فنه يحتاج إلى جو من العقل وصحبة من الفكر وعزلة يتوفر فيها الهدوء والإطمئنان . ومع أنك كنت تعجب بكل قطعة من أعمالى إذا ما انتهت ، وتسر من كل نجاح مشرق وصلت إليه فى ليالى الأولى ، وتبتهج بالحفلات المتألقة التى كانت تعقب ذلك ، وكنت تفخر — وكان طبيعياً أن تفعل — بكونك الصديق المقرب لفنان ذاع صيته ، مع هذا كله فإنك لم تفهم شيئاً من الشروط التى لا غنى عنها لإخراج العمل الفنى ! انى إذ أذكرك بأنى طوال المدة التى أمضيناها معاً لم أستطع كتابة سطر لا أقول ذلك فى عبارات من المبالغة الخطابية ، بل أقوله فى حدود الحقيقة المجردة ، منبثةً بواقع صحيح . فسواء كنت فى « توركواى » ، أو فى « جورنج » ، أو فى لندن ، أو فى فلورنسا ، أو فى أى مكان آخر ، فإن حياتى كانت عقيمة تماما وغير خلاقة طالما كنت بجانبى . ويؤسفنى أن أقول أنك كنت دائماً بجانبى ، باستثناء فترات قليلة . ولأذكر مثلا من عدد لا يحصى .

فقد حدث فى سبتمبر ٩٣ أن اتخذت مسكناً خاصاً ، وذلك لكى أتوفر على العمل غير متعرض للازعاج ، إذ كنت قد أخلفت وعدى مع « جون هير » بكتابة تمثيلية ، فمضى يلح فى الموضوع . ولم تحضر خلال الأسبوع الأول ، فقد اختلفنا من قبل — وكان ذلك فى الواقع من الأمور العادية — اختلفنا فى تقدير القيمة الفنية للترجمة التى قمت بها لـ « سالومى » ، فلم تسترح إلا بعد أن أرسلت إلى خطابات كلها غباوة

Twitter: @abdulllah1994

حول الموضوع . في ذلك الأسبوع تمكنت من كتابة الفصل الأول من « زوج مثالي » واكملته بجميع تفاصيله ، كما مثل في النهاية . غير انك عدت في الأسبوع الثاني ، فكانت النتيجة أن عملي توقف بصورة تامة . فقد كنت أصل إلى ساحة سان جيمس في الحادية عشرة والنصف من كل صباح لكي تتاح لي فرصة للتفكير والكتابة بغير أن أتعرض لأسباب الازعاج التي لا تخلو منها حياتي المنزلية ، بالرغم مما فيها من هدوء واطمئنان (*) وفي الثانية عشرة كنت تأتي راكباً . وتجلس لتدخن وتثرثر حتى الواحدة والنصف ، حيث كان علي أن أمضي بك لتناول الغداء ، أما في الكافي رويال أو في مطعم بركاي . وهذا الغداء ، ومايتبعه من شراب ، يمتد غالباً حتى الثالثة والنصف . وعندها كنت تمضي لتهجع ساعة في هوايت ، لتعود ثانية وقت تناول الشاي ، وتبقى حتى وقت الاستعداد لتناول العشاء . وكنت تتعشى معي إما في مطعم ساقوي أو في شارع تايت . ولم نكن نفترق ، كقاعدة ، حتى بعد منتصف الليل ، إذ أن وجبة منتصف الليل في مطعم ويليس[٢٩] تستمر حتى تباشير الصباح . كانت هذه حياتي طوال تلك الشهور الثلاثة ، وفي كل يوم منها ، باستثناء تلك الأيام الأربعة التي ذهبت فيها إلى الخارج . وبالطبع

(*) إن تكرر هذا القول من وايلد يدل على ما كان يعانيه من تشوش في الفكر وعدم قدرة على التركيز ، إذا لم تتح له العزلة ويتوفر له الهدوء . وهو يضيف دليلا إلى ما ذكرناه في كتاب آخر ، وهو أن الناس في هذا العالم ينقسمون من حيث التكوين الطبيعي إلى نوعين : الأول أصحاب الاحساس الرقيق والشعور المرهف ، وهم أولئك الذين يتميزون غالباً بالصفاء النفسي والمواهب الفنية ؛ والثاني أصحاب الطبائع الجامدة التي لا تحس ولا تشعر . وهذا التقسيم يتناول الجنس البشري كله من القاعدة إلى القمة . ومعلوم أن « الجنس اللطيف » أقرب إلى أصحاب الطبائع الأولى . (انظر كتابنا جان دارك : عرض وتحليل وتعقيب) .
« المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

كان على حينئذ أن أذهب إلى كاليه لاحضرك ثانية . فقد كان ذلك ، لأول وهلة ، وضعاً كريهاً مؤسياً فى إعتبار واحد فى مثل طبيعتى ومزاجى .

لاشك أنك تدرك الآن ذلك ؟ بلى ، يجب أن ترى الآن أن عدم مقدرتك على البقاء وحيداً ، وأن طبيعتك المتعجلة فى تطفلها الدائب على التفات الآخرين ووقتهم ، وافتقارك إلى أى قوة من التركيز الذهنى الثابت ، ثم الحادثة المشئومة — لأننى أميل إلى الاعتقاد بأنها لم تكن أكثر من ذلك — وهى أنك لم تستطع قط أن تكتسب « طبع أكسفورد » فى الشئون العقلية ، أعنى أنك لم تكن قط قادراً على أن تلعب بالخواطر فى كياسة بل وصلت فقط إلى الآراء بعنف ، كل هذه الأمور ، يضاف إليها أن رغباتك واهتماماتك لم تكن فى الفن بل كانت فى الحياة — كلها كانت عوامل لتحطيم تقدمك فى الثقافة ، كما كانت عوامل لتحطيم أعمالى كفنان ! وعندما أقارن صداقتى لك بصداقتى لأولئك الذين لا يزالون أصغر سناً ، كـ « جون جراى »[٣٠] « وبيير لووس »[٣١] فإنى أشعر بخجل ، فقد كان يجب أن تكون حياتى مع أمثالهم .

انى لا أتكلم عن النتائج المريعة لصداقتى معك ، بل أفكر فقط فى نوعها حينما كانت قائمة . أنها من الناحية العقلية كانت عامل انحطاط بالنسبة إلى . وحقاً أنه كان فى طبيعتك جرثومة المزاج الفنى ، غير انى التقيت بك إما متأخراً جداً أو متقدماً جداً ، لا أستطيع أن أقول . فحينما كنت بعيداً عنى كنت أشعر بأننى فى حالة طيبة . وفى اللحظة التى نجحت فيها فى اقناع والدتك بأن ترسلك خارج انجلترا[٣٢] ، وكان ذلك فى أوائل ديسمبر من السنة التى أشرت إليها ، استطعت أن أستجمع ثانية ما تبدد من خيوط مخيلتى ، وأن أستعيد حياتى فى يدى ، فتمكنت لا من انجاز

Twitter: @abdulllah1994

الفصول الثلاثة التى كانت باقيـة من « زوج مثالى » وحسب بل أيضاً من تصور تمثيليتين أخريين من نوع مختلف تماماً ، وهما « المأساة الفلورنسية » و « الغانية القديسة » ، وكنت فى سبيل اكمالها تقريباً ، وإذا بك تعود فجأة ... هكذا بغير دعوة ، وبغير ترحيب ، وتحت ظروف كانت شؤماً على سعادتى ، فقد بقيت الروايتان ناقصتين ؛ ولم أعد قادراً على اكمالها بعد أن عجزت عن استعادة المزاج الذى خلقتهما فيه . وأحسبك الآن ، وقد قمت أنت نفسك بنشر ديوان شعر ، تستطيع أن تدرك صدق هذا ، ومع ذلك فسواء استطعت أو لم تستطع فإنها حقيقة مهولة فى صميم صداقتنا . فطالما كنت معى كنت عامل تخريب حقيقى لأعمالى الفنية .

ولما كنت أنا الذى سمحت لك بأن تقف فى عناد بين الفن وبينى فإنى أشعر بالخجل وأنحى على نفسى باللائمة بكل ما أملك من قوة ! إنك لم تستطع أن تعلم ، ولم تستطع أن تفهم ، ولم تستطع أن تدرك قيمة الشىء . ولم يكن لدى من الحق ما يجعلنى أتوقع منك شيئاً من ذلك . فقد انحصر كل اهتمامك فى وجباتك وأمزجتك ، وكانت رغباتك كلها متجهة إلى أنواع اللهو ... إلى ألوان السرور ، العادى منه وما هو دون العادى . وكانت تلك الرغبات ما يتطلبه مزاجك ، أو ما رأيت أنه فى حاجة إليه فى لحظته . فكان من الواجب أن أمنعك من دخول منزلى واقتحام مسكنى إلا حينما أدعوك بصفة خاصة ولذلك فإنى الآن ألوم نفسى باستمرار على ضعفى . فقد كان الأمر مجرد ضعف . فقد كانت نصف ساعة فى العمل الفنى أجدى دائماً من قضاء جيل معك . والواقع إن شيئاً ما فى أى فترة من حياتى لم يكن له أقل أهمية إذا ماقورن بالفن . غير أن الضعف فى حالة الفنان ليس أقل من جريمة ، ولاسيما إذا كان يؤدى إلى شل حركته فى التخيل .

Twitter: @abdulllah1994

انى ألوم نفسى ثانية على أن سمحت لك بأن تسوقنى إلى انهيار مالى تام مشين . ومما أذكره انى جلست مع والدتك فى غابة براكنل الصفرة صباح أحد الأيام الأولى من أكتوبر . وفى ذلك الوقت لم أكن علمت عن طبيعتك الحقيقية إلا القليل ؛ فقد مكثت معك فى اكسفورد من السبت حتى الإثنين ، وبقيت أنت معى فى كروص عشرة أيام كنت خلالها تلعب الجولف . واتجه حديثنا إليك ؛ فمضت والدتك تحدثنى عن طبعك ، وأخبرتنى أن عيبيك الكبيرين هما غرورك و « سوء تصرفك فى المال » — هكذا قالت . وإنى أذكر جيداً كيف ضحكت يومها من ذلك القول ، إذ لم يكن لدى فكرة بأن العيب الأول سيؤدى بى إلى السجن وأن الثانى سيؤدى بى إلى الافلاس . فقد خطر ببالى ساعتئذ أن الغرور هنا ليس إلا زهرة لطيفة يتجمل بها شاب غرير . أما عن الاسراف — فقد اعتقدت أنها لم تعن شيئاً آخر — فإن فضائل الحصافة والاقتصاد لم تكن يوماً لا فىَّ شخصياً ولا فى آبائى ولكننى قبل أن يمضى شهر على صداقتنا بدأت أدرك مارمت إليه والدتك . وذلك لأن إصرارك على حياة من الإفراط فى عيش ، ورغبتك المستمرة فى الحصول على نقود ، واعتقادك بأن كل ماتناله من مسرات يجب أن يؤدى حسابه من جيبى ، سواء كنت حاضراً أو غائباً — كل هذا سبب لى متاعب مالية خطيرة بعد وقت قصير . ومما جعل أبواب الاسراف تبدو لى تافهة مملولة ، بينما كانت قبضتك المتشبثة تزداد تحكما فى حياتى ، إنها لم تكن فى الواقع تنفق على أكثر من مسرات الطعام والشراب ، ومايشبه ذلك . وحقا أن المرء قد يسر إذا ما رأى مائدته من حين لآخر وقد ازدانت بحمرة النبيذ أو أضاءتها بعض الزهور ، غير أنك تجاوزت فى ذلك كل ذوق وتخطيت كل مزاج . وكنت دائماً تطلب فى غير لطف وتأخذ بغير شكر ؛ وقد بت تعتقد أن من حقك أن

Twitter: @abdulllah1994

تعيش على حسابى فى رفاهية مفرطة لم تتعودها قط من قبل ، وهو ماجعل شهواتك تزداد تفتحاً . فإذا ما خسرت فى النهاية مبلغاً على مائدة القمار فى بعض نوادى الجزائر لم يكلفك الأمر سوى أن تبرق إلى فى لندن صباح اليوم التالى ، طالبا إيداع المبلغ الذى خسرته لحسابك فى مصرفك ، وذلك بغير أن تعير الأمر أقل أهمية !

وحينما أخبرك انى فى المدة من خريف ۱۸۹۲ حتى وقت دخولى السجن قد أنفقت معك وعليك أكثر من ۵۰۰۰ جنيه ، بجانب القوائم التى تكلفتها ، سيكون لديك فكرة عن نوع الحياة التى أصررت على أن تعيشها . فهل ترى أنى أبالغ ؟ إن نفقاتى المادية معك ، فى اليوم العادى فى لندن — عن الغداء والعشاء ووجبة منتصف الليل ، وألوان اللهو ، والركوب ، وما يتبع ذلك — كانت تتراوح بين ۱۲ و۲۰ جنيهاً . وكان من الطبيعى أن تكون نفقات الأسبوع بهذه النسبة ، فكانت تتراوح بين ۸۰ و۱۳۰ جنيهاً . وفى الشهور الثلاثة التى أمضيناها فى جورنج بلغت نفقاتى ۱۳٤۰ جنيهاً (بما فى ذلك إيجار المسكن طبعا) . وهكذا فى استقبال للافلاس وجدتنى أطأ كل شىء فى حياتى خطوة بعد أخرى . وكان هذا شيئاً فظيعاً . وبالطبع لم تستطع فى ذاك الوقت أن تستسيغ مثالا كهذا « حياة بسيطة مع تفكير عال »(۳۳) . غير أن مثل ذلك الإسراف كان شائناً لك ولى ! إن واحدة من الوجبات التى أذكرها دائماً كأمتع ما تناولته فى حياتى كانت تلك التى تناولتها مرة مع روبى فى أحد مقاهى « سوهو » ، وقد تكلفت من الشلنات قدر ما كانت تتكلفه وجبة معك من الجنيهات ! ومن ذلك الغداء الذى تناولته مع روبى جاءنى أروع حوار(۳٤) كنت فى سبيل وضعه : فكرته ، عنوانه ، معالجته ،

Twitter: @abdulllah1994

أسلوبه ، وكل شيء فيه — جاءني هذا كله بثمن لا يزيد عن ثلاثة فرنكات وخمسين سنتيما لقاء وجبة كاملة . أما في الوجبات المفرطة التي كنت أتناولها معك فلم يتخلف شيء ، اللهم إلا ذكرى ما أفرطنا في تناوله من طعام وشراب ! ثم إن تسليمي لرغباتك كان سيئاً لك ؛ وانك الآن تعرف هذا . فقد جعلك تتشبث غالباً ، في استهتار أحياناً وفي خشونة دائماً . وكمستضيف لك لم أكن أشعر في أكثر المناسبات إلا بالقليل من السرور والامتياز . فقد نسيت — لا أقول المجاملة الرسمية في أداء الشكر ، إذ أن المجاملة الرسمية توتر الصداقة الوثيقة — بل ، في بساطة ، لطف الصحبة الحلوة ، وسحر المحادثة السارة ، وجميع السجايا الخلقية الرقيقة التي تجعل الحياة محبوبة وتكون مصاحبة لها ، كما يمكن أن تكون الموسيقى ، لتجعل الأشياء تتوافق مع الوقت ، وتملأ بالنغم الحلو الأماكن الخشنة أو الصامتة . ومع أنه قد يبدو لك غريبا أن يستطيع من هو في مثل وضعي أن يفرق بين خزي وآخر ، فإنني أقول في صراحة إن خرقي في تبديد كل تلك الأموال عليك ، وتركك تبعثر روتي في طريق يعود عليك بالضرر كما يعود علي ، هذا وذاك يقدم علامة تبرز أمام عيني على تبديد عام أدى إلى إفلاسي ، وهو ما يجعلني أشعر بالخجل مضاعفا . فما لهذا خلقت .

ولكن أعظم من كل ذلك انني ألوم نفسي على أن سمحت لك بأن تجلب علي ذلك الانحطاط الخلقي التام . إن قاعدة الخلق هي قوة الإرادة . وقد أصبحت قوة إرادتي خاضعة لقوة إرادتك بصورة تامة . إن هذا يبدو فظيعا ، ولكنه لا يعدو الحقيقة . فتلك المشاجرات المتوالية ، وكانت تبدو مما لا غنى لك عنه حتى فيزيقيا ، وأخذت تفسد من عقلك وبدنك لتجعل منك شيئاً ينفر منه النظر كما ينبو عنه السمع ؛ وذلك الجنون

Twitter: @abdulllah1994

الذى ورثته عن أبيك — جنونك بكتابة خطابات منفرة ممجوجة ؛ ثم افتقارك كلية إلى التحكم فى انفعالاتك كما كانت تبدو فى مظهر من الاستياء فى وجومك العابس الطويل ، ولم تكن بأقل منها تلك النوبات الفجائية من الغضب الذى كان يبلغ بك حد الصرع . كل هذه الأشياء التى كنت أشير إليها فى خطاباتى ، تلك التى كنت تلقيها جانباً فى فندق سافوى أو غيره ، ليقدمها بعد ذلك مستشار أبيك فى المحكمة ، والتى كانت تحتوى على توسل لا يخلو من العاطفة ، لو كنت فى ذلك الوقت قادراً على أن تدرك ماهى العاطفة ، سواء فى عناصرها أو فى التعبير عنها[٣٥] — أقول أن تلك الأشياء كانت الأصل والسبب فى استسلامى المشئوم لرغباتك اليومية المتزايدة . ولقد أبليتَ فرداً ، فكان فى ذلك انتصار الطبيعة الصغرى على الكبرى . إنها كانت حالة استبداد الضعيف بالقوى التى صورتها فى بعض تمثيلياتى على أنها « النوع الوحيد من الاستبداد الذى يمكن أن يستمر »[٣٦] .

وكان أمراً لا مفر منه . فنى كل علاقة مع الآخرين لا بد أن يبحث المرء عن بعض وسائل الحياة . وفى حالتك كان على إما أن أستسلم لك أو أنبذك . ولم يكن هناك طريق آخر . فمن محبتى العميقة لك ، وإن كانت فى غير موضعها ؛ ومن شفقتى الكبيرة عليك ، بسبب عيوبك وطبعك ومزاجك ؛ ومن طيبتى الخيرة فى مثاليتها ، وذلك الفتور الذى ورثته عن جنسى السلتى ؛ ومن الروح الفنية التى تنفر من المشاجرات الخشنة وتشمئز من الكلمات القبيحة ؛ ومن عجزى حينئذ عن الشعور بالغل مهما كان نوعه ، ومن عدم ميلى إلى رؤية الحياة وقد جعلت مرة وغير لائقة بما بدا لى ، وقد تركزت عيناى على أشياء أخرى ، بمجرد توافه أحقر جداً من أن ينظر إليها أو يهتم بها لأكثر من لحظة — من كل هذه الأسباب ،

Twitter: @abdulllah1994

التي قد تبدو بسيطة ، كنت أستسلم لك دائما . وكنتيجة طبيعية فإن ادعاءاتك ، ومجهوداتك للسيطرة ، وابتزازاتك ، أخذت تزداد عن الحد المعقول ، وأصبح أحقر دوافعك ، وأحط شهواتك ، وأكثر انفعالاتك شيوعاً ، قوانين تسيطر بها دائما على حياة الآخرين ، بل وتضحى فى سبيلها بهذه الحياة فى غير تردد ، إذا اقتضى الأمر . وإذ كنت تعلم أنك باصطناع مشاجرة تستطيع بلوغ أربك ، فقد كان طبيعيا أن تتخذ هذا الطريق ، بغير وعي غالبا ، وهو مالا أشك فيه . ولم تكن تدرى فى النهاية إلى أى مرمى كنت تسرع أو إلى أى هدف كنت تنظر . وحينما استطعت أن تصنع نفسك من عبقريق وارادتى وثروتى لم يقف بك الأمر عند ذاك الحد ، بل مضيت فى عملية جشعك المستنزف تتطلع إلى وجودى كله . وقد استطعت أن تحصل عليه . ففى أعظم لحظات حياتى خطورة وأشدها غولا ، فى ذلك الوقت الذى اتخذت فيه خطوتى المحزنة برفع تلك القضية السخيفة ، كان أبوك على أحد الجانبين يهاجمنى بتلك البطاقات الفظيعة التى تركتها فى النادى الذى أتردد عليه ، وكنت على الجانب الآخر تهاجمنى بخطابات لاتقل فظاعة . وكان الخطاب الذى تلقيته منك فى صباح اليوم الذى تركتك فيه تقودنى إلى محكمة الشرطة للحصول على الأمر المضحك بالقبض على أبيك من أسوأ ما كتبت طوال حياتك ، وكان من أعظم أسباب الحزن . وهكذا فقدت رأسى بينكما معا . فقد هجرنى التمييز وحل الرعب محله ، ولم أر مهربا ممكنا من أى منكما ، وهو ما يجب أن أقوله فى صراحة . فمضيت فى عمى أترنح ، كما يفعل الثور فى المذبح . وإنما اقترفت من قبل خطأ سيكولوجيا هائلا . فقد كنت أفكر دائما أن الاستسلام لك فى الأشياء الصغيرة لا يعنى شيئا . فحينما تأتى اللحظة الكبيرة سيكون فى مقدرى أن أعيد تثبيت قوة إرادتى فى عليائها

Twitter: @abdulllah1994

الطبيعية . غير أن الأمر لم يكن كذلك ، فحينما جاءت اللحظة الكبيرة رأيت قوة إرادتى تخوننى بصورة تامة . والحقيقة أنه لا توجد فى الحياة أشياء صغيرة وأخرى كبيرة فكل الأشياء فى الواقع متساوية فى قيمتها وفى جرمها . وكان أن أصبحت عادتى — وهى ترجع غالبا إلى عدم الاكتراث فى البدء — أصبحت عادتى فى الإستسلام لك فى كل شىء جزءا حقيقيا من طبيعتى . وبغير أن أشعر أخذت تصبغ طبعى بحالة دائمة خطيرة . وهذا ما أشار اليه « باتر Pater » فى ختام الطبعة الأولى من مقالاته ، إذ يقول : « إن الفشل يؤدى إلى تكوين عادات »(٣٧) . وحينما قال ذلك ظن الأغبياء من أهل اكسفورد أن العبارة مجرد عكس مقصود لبعض النصوص المملة من كتاب « الأخلاق » لأرسطو . غير أن هناك حقيقة عجيبة ، بل حقيقة مرعبة ، تختفى فيما قاله . فقد سمحت لك بأن تقوض قوة خلقى ، فتأكد لى أن تكوين العادة يؤدى لا إلى فشل وحسب بل إلى دمار . فقد كنت من الناحية الخلقية أشد وأبعد تدميراً لى مما كنت من الناحية الفنية .

فإذا ما تم الحصول على أمر القبض أصبحت إرادتك توجه كل شىء بطبيعة الحال . ففى الوقت الذى كان يجب أن أبقى فيه فى لندن للحصول على استشارات صائبة ، والتدبر فى هدوء فى الشرك الفظيع الذى سمحت لنفسى بالوقوع فيه — الشرك الخداعى ، كما يسميه أبوك إلى اليوم — أصررت أنت على أن أذهب بك إلى مونت كارلو ، من بين الأماكن المتمردة فى أرض الله ، لتستطيع أن تقامر طوال النهار ، بل وطوال الليل ، طالما كان الكازينو مفتوحاً . أما أنا — ولم أكن من المفتونين بالبكاراه — فقد تركت فى الخارج وحدى . وقد رفضت أن

Twitter: @abdulllah1994

تبحث معى ، ولو لخمس دقائق ، ذلك الموقف الذى عملت أنت وأبوك على دفعى إليه . فقد كانت مهمتى محصورة فى أن أدفع عنك حساب الفندق وما تخسره . وكانت أول إشارة إلى المصيبة التى كانت فى انتظارى شيئاً مضجراً فى نظرك . وكان نوع الشمبانيا الذى امتدح لنا أكثر أهمية فى تقديرك .

وحينما عدنا إلى لندن توسل إلى بعض أصدقائى ممن يودون حقا لى الخير أن أذهب إلى الخارج ، لكى لا أواجه محاكمة مستحيلة . غير أنك عزوت إليهم دوافع منحطة لتقديم مثل تلك النصيحة ، كما اتهمتنى بالجبن لاستماعى إليها . وهكذا أقسرتنى على البقاء لأجمد التهمة — إذا استطعت — وأنا فى قفص الاتهام ، وذلك بأكاذيب تافهة سخيفة . وفى النهاية ألقى القبض على طبعا ، وأصبح والدك بطل الموقف ، بل أكثر من ذلك فى الواقع ، فقد ارتفعت أسرتك إلى مصاف الخالدين ، وهو ما يدعو إلى العجب ؛ فقد استطاع والدك بذلك التأثير المضحك الذى بدا كما لو كان عنصرا قوطيا فى التاريخ ، والذى جعل من « كليو »(*) شيئا لا يذكر بين الملهمات ، استطاع أن يضمن لنفسه مكانا بين الآباء البررة الطاهرى التفكير فى آداب مدارس الأحد ، وأن يضمن لك منزلة لا تقل عن منزلة الطفل صمويل . أما أنا فقد كان على أن أجلس فى حمأة « مالبولج » بين « جيل د ريه » و « مركيز د ساد »(٣٨) .

بالطبع كان يجب أن أتخلص منك . كان يجب أن أقذف بك خارج حياتى ، كما يقذف المرء بشىء علق بثوبه . ففى أعجب تمثيليات «أخيلوس»(٣٩) يخبرنا عن ذلك السيد العظيم الذى أحضر شبلا إلى بيته ،

(*) Clio ربة الشعر الحماسى والتاريخ . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

ثم أغرم به حينما رآه يقبل عليه بعينين متألقتين ، مستجيباً لنـداته ، ويتذلل إليه بسبب الطعام . غير أن الشيء نما وبدأ يشعر بطبيعة جنسه وكانت النتيجة أن حطم السيد ومنزله وجميع ما كان فيه . وإنى أشعر الآن بأنى كنت كذلك الرجل . غير أن خطئى لم يكن فى أنى لم أفارقك بل فى أنى فارقتك غالباً أكثر مما يجب . وبقدر ما أتذكر فإنى كنت أنهى صداقتى معك كل ثلاثة أشهر بانتظام . وفى كل مرة فعلت ذلك كنت تعمد إلى إقناعى بإعادة العلاقة ، مستعملا التوسلات والبرقيات والخطابات ، وموسطا البعض من أصدقائك وأصدقائى . وعندما تركت منزلى فى تركواى فى آخر مارس ٩٣ ، كان فى عزمى ألا أكلمك ثانية قط ، وألا أسمح لك تحت تأثير أى ظروف بأن تكون معى . فقد قمت باصطناع مشاجرة عنيفة فى الليلة السابقة لرحيلك . ولكنك مضيت تكتب إلى وتبرق من برستول طالباً أن أصفح عنك وأن أقابلك . وكان معلمك(٤٠) قد تخلف ، فأخبرنى أنه يعتقد أنك أحيانا تكون غير مسئول تماما عما قلت وفعلت ، وأن جل من كانوا فى كلية ماجدالن يعتقدون ذلك . فرضيت بأن أقابلك ، وصفحت عنك بالطبع . وفى الطريق إلى المدينة إذا بك ترجونى أن آخذك إلى سافوى . والواقع أنها كانت زيارة مشئومة بالنسبة إلى .

بعد مضى ثلاثة أشهر ، فى يونيو ، كنا فى جورنج . وجاء بعض أصدقائك فى اكسفورد فمكثوا معنا من السبت حتى الاثنين . وفى صباح اليوم الذى غادروا فيه قمت بعمل مشاجرة بلغ من عنفها أن أخبرتك أنه يجب أن نفترق . إنى أتذكر جيدا حينما وقفنا على أرض ملعب الكروكى المستوية ، وقد ترامى من حولنا الملعب . فقد مضيت أبين لك أن كلا منا يفسد حياة الآخر ، فقد كنت تخرب حياتى بالتأكيد ،

Twitter: @abdulllah1994

ولم أكن قادراً على أن أجعلك سعيداً . فكان الفراق الذى لا تراجع فيه هو الحل الوحيد . وحينما سمعت ذلك ذهبت فى عبوس بعد الغداء ، مخلفاً خطابا من أقذع ما كتبت ، تركته مع الساقى ليسلمه إلى بعد رحيلك . وقبل مضى ثلاثة أيام كنت تبرق من لندن ، طالبا أن أصفح عنك وأسمح لك بالرجوع . وكنت قد استأجرت المكان إرضاءً لك ، واستعملت خدماً لك بناء على طلبك ، وكنت أشعر بأسى عميق لذلك الطبع المخيف الذى رأيتك فى الواقع ضحية له ، وكنت مغرماً بك . فلم يسعنى إلا أن أسمح لك بالعودة وأصفح عنك . وبعد مضى ثلاثة أشهر ثانية ، فى سبتمبر ، قمت بمشاجرات جديدة ، كان سببها أن أخذت عليك أخطاء فى ترجمتك «سالومى»(٤١) لا يقع فيها إلا الطالب الصغير . إنك الآن يجب أن تكون بلغت فى دراسة الفرنسية درجة تجعلك ترى أن تلك الترجمة لم تكن جديرة بك كشخص عادى من اكسفورد . وهذا ما لم تعلمه بالطبع فى ذلك الوقت . وفى واحد من الخطابات العنيفة التى كتبتها إلى حول هذه المسألة رأيتك تقول انك لا تخضع «لأى إلزام عقلى من جانبى مهما كان نوعه» . وأذكر أنى حينما قرأت هذه الجملة رأيت أنك لم تكتب شيئا أصدق منها طوال مدة صداقتنا . فقد رأيت أن طبيعة أقل مستوى فى الثقافة كانت لا شك أكثر مناسبة لك بدرجة كبيرة . ولا أقول ذلك فى مرارة بل أقوله فى بساطة ، تقريراً لحقيقة مما توجبه الصحبة . فغاية الرابطة فى الصحبة كلها ، زواجاً كانت أو صداقة ، هى المحادثة . والمحادثة يجب أن تقوم على قاعدة مشتركة . فإذا حدثت بين شخصين مختلفى الثقافة بدرجة كبيرة فإن القاعدة الممكنة تكون فى المستوى الأدنى . فالأشياء المادية فى عرض الأفكار وفى التمثيل تكون أكثر سحراً ، وقد جعلت منها أنا نفسى حجر العقد

Twitter: @abdulllah1994

للفلسفة المتألقة التى عبرت عنها فى رواياتى ومتناقضاتى . غير أن الزبد والحرق فى حياتنا أصبح شيئاً مملا بالنسبة إلى . فقد قدر ألا نلتقى إلا فى الوحل ! ومع أن الموضوع الواحد الذى تركز حوله حديثك بغير تغير كان ساحرا ، وساحرا بدرجة مريعة ، إلا أنه أصبح مملا لى بصورة تامة ، وبات يثقل على نفسى إلى حد الموت . وإنما قبلته ، كما قبلت رغبتك المتأججة فى الذهاب إلى صالات الرقص ، أو جنونك بالافراط فى تناول الطعام والشراب إلى حد بالغ السخف ، أو أى شىء من صفاتك التى لم يكن فيها شىء من الجاذبية بالنسبة إلى — قبلت ذلك كله كشىء كان على المرء أن يتعود عليه فى بساطة : جزءا من الثمن الكبير الذى كان على أن أؤديه لكى أعرفك! ولقد ذهبت إلى « دينار » بعد مغادرة جورنج لقضاء أسبوعين ، فإذا بك تثور فى عنف لأنى لم آخذك معى . وقبل رحيلى من هناك إذا بك تقوم بمشاجرة شائنة فى فندق البمارل بسبب الموضوع ، ثم ترسل إلى برقيات سيئة إلى بيت ريفى كنت أقيم فيه لبضعة أيام . وكنت قد أخبرتك ، كما أذكر ، انى أرى من الواجب أن تعود لقضاء بعض الوقت مع أهلك ، إذ أنك أمضيت الفصل كله بعيداً عنهم . غير انى أرى أن أكون صريحا ، فالحقيقة أنه لم يكن فى استطاعتى أن أراك بجانبى مهما كانت الظروف . فقد كنا معا لمدة اثنى عشر أسبوعاً تقريباً ، فكنت فى حاجة إلى الراحة ، بل وإلى التحرر من ذلك الضغط المريع الذى كنت أشعر به فى صحبتك . كان من الضرورى أن أبقى وحدى بعض الوقت . وكان هذا ضروريا من الناحية الفكرية . وأقول لك الحق انى وجدت فرصة طيبة فى ذلك الخطاب الذى اقتبست منه لانهاء تلك الصداقة المشئومة التى قفزت بيننا ، وأن أنهيها غير آسف ، كما حاولت أن أفعل فى ذلك الصباح

Twitter: @abdulllah1994

المشرق من يونيو حينما كنت فى جورنج ، قبل ثلاثة أشهر . غير أن واحداً من أصدقائى[٤٢] — ويجب أن أقول ذلك فى شجاعة — وهو ذلك الذى ذهبت إليه حينما حزبك الأمر ، أبدى أن شعورك سيجرح ، بل ربما شعرت بالمذلة ، إذا ما رأيت عملك وقد أعيد إليك كما يعاد تمرين طفل فى المدرسة ؛ وانى قد انتظرت منك ما هو أعلى كثيراً من مستواك العقلى ؛ وأنه لاضير فيما كتبت أو فعلت طالما كنت تشعر لى بالولاء بصورة كاملة. ولم أكن ، بالطبع ، أود أن أكون أول من يصدمك أو يثبط عزمك فى محاولاتك الأولى فى مجال الأب . وكنت أعلم جيداً أن أى ترجمة ، ما لم يكن قد قام بها شاعر ، لا يمكن أن تعيد اللون والجرس إلى أعمالى فى القياس المضبوط . وقد بدا لى الولاء ، ولايزال يبدو ، شيئا بديعاً لايصح أن يقذف به هكذا فى خفة . فكان أن قبلت الترجمة وقبلتك معها . فإذا مامضت ثلاثة أشهر بالضبط ، وبعد سلسلة من المشاجرات توجت بواحدة بلغت الثورة فيها اكثر من المعتاد ، وذلك عندما جئت فى مساء الاثنين إلى مسكنى مصحوبا باثنين من أصدقائك ، إذا بى أجد نفسى أطير فعلا إلى الخارج هروبا منك ، وذلك بعد أن أبديت لعائلتى[٤٣] بعض الأسباب السخيفة تبريراً لذلك الرحيل الفجائى ، وتركت عنوانا كاذباً لدى الخادم ، خوفاً من أن تلاحقنى بالقطار التالى ! اننى أذكر ذلك الأصيل ، إذ جلست فى عربة القطار المسرع إلى باريس أفكر فيما وصلت إليه حياتى من حالة مستحيلة ، مريعة ، شاع فيها الخطأ بصورة تامة : فها أنذا ، الرجل الذى ذاع صيته فى العالم كله ... ها أنذا أرى نفسى أقسرت على الهروب من انجلترا ، محاولا التخلص من صداقة دمرت كل شىء جميل فى حياتى ، سواء من الناحية الفكرية أو الخلقية ! ولم يكن

Twitter: @abdulllah1994

الرجل الذى هربت منه مخلوقا بشعاً برز من بالوعة أو قفز من حمأة ، لينساب فى الحياة العصرية فترتبك معه حياتى ، بل كان أنت ، أنت نفسك ، الشاب الذى كان فى مستواى الاجتماعى ومركزى ، والذى درس فى نفس الكلية التى تخرجت فيها ، والذى طالما حل ضيفا بمنزلى ! وكما هى العادة ، توالت برقيات التوسل والتأسف ، فتجاهلتها . وأخيراً إذا بك تهدد بأنه ما لم أنزل على رغبتك فى لقائى فإنك لن توافق على الذهاب إلى مصر ، مهما كانت الظروف . وكنت أنا نفسى ، بعلمك وموافقتك ، قد وجهت الرجاء إلى والدتك لتبعث بك إلى مصر ، بعيداً عن انجلترا ، حيث كنت تدمر حياتك فى لندن . وقد علمت أن عدم ذهابك سيكون فيه خيبة أمل كبيرة لها . وبهذا السبب رضيت بأن أقابلك . وتحت تأثير انفعالاتك الشديدة ، التى لا تستطيع أنت نفسك أن تنساها ، رأيت نفسى أصفح عن الماضى ، وإن كنت لم أقل كلمة عن المستقبل .

وحينما عدت إلى لندن فى اليوم التالى أذكر أنى جلست فى غرفتى أفكر فى حزن وجدّ ، محاولا أن أقرر ما إذا كنتَ حقيقة كما رأيتك : هكذا ممتلئا بالنقائص الفظيعة ، مخرِّبا لنفسك وللآخرين ، شؤماً على من عرفك ، أو حتى من اقترب منك ! وقد أمضيت أسبوعا كاملا فى ذلك التفكير ؛ ثم عدت بعد ذلك أسأل نفسى ما إذا كنتُ لست جائراً فى تقديرى ! فى نهاية ذلك الأسبوع تلقيت خطابا من والدتك ، فإذا بما جاء فيه يؤكد ما تصورته عنك بصورة كاملة . وقد تكلمت والدتك عن غرورك الأعمى الذى لم يقف عند حد ، فقالت أنه جعلك تحتقر أهلك وتعامل أخاك الأكبر « كما لو كان منحطا » ؛ كما تكلمت عن طبعك الذى جعلها تتحاشى أن تكلمك عن حياتك : تلك التى شعرت ، بل وعلمت ، أنك كنت تحياها ؛ وعن تصرفك فى الشئون المالية ، وهو

Twitter: @abdulllah1994

ما أورثها الهم بأسباب عديدة ؛ وعما اعتراك من انحطاط وتغير . وقد رأت – بالطبع – أنك ورثت قدراً فظيعاً من آبائك . وقد سلمت بذلك فى صراحة ، بل سلمت به فى هلع ، إذ قالت : « أنه الوحيد من أبنائى الذى ورث ذلك المزاج المشئوم لآل دوجلاس » . ثم ذكرت فى النهاية أنها لا تملك إلا أن تصرح بأن صداقتك معى ، فى رأيها ، قد ضاعفت من غرورك إلى حد جعلها مبعث كل أخطائك . ولذلك فهى ترجونى فى حرارة ألا أقابلك فى الخارج . فكتبت إليها فى الحال بأنى أوافق تماماً على كل كلمة جاءت فى خطابها ، بل إنى ذهبت إلى أبعد من ذلك بقدر ما استطعت ، فأخبرتها أن سبب صداقتنا يرجع إلى ترددك علىّ أيام دراستك فى اكسفورد ، حيث كنت تلتمس مساعدتى فى كل اضطراب جدى صادفك مما يرجع إلى خلقك الغريب . ثم أخبرتها إن حياتك لا تزال تسير على نفس الأسلوب المضطرب . وكنتَ قد عزوت سبب ذهابك إلى بلجيكا إلى خطأ من رفيقك فى تلك الرحلة ، وقد عادت والدتك على باللوم لتقديمك إلى ذلك الصديق . فكان يجب أن أبين لها أن المخطىء ليس هو بل أنت . ثم أكدت لها فى النهاية أنى لا أفكر بتاتاً فى مقابلتك فى الخارج ، بل ورجوتها أن تحاول إبقاءك هناك ، لمدة سنتين أو ثلاث على الأقل ، إما كملحق شرف ، إذا تسنى ذلك ، أو لتتعلم اللغات الحديثة ، أو بأى سبب آخر تراه . لما فى ذلك من خير لك ولى(٤٤) .

وكنت فى نفس الوقت أتلقى منك مكاتبات فى كل بريد جاء من مصر ، فلا ألقى بالاً إليها بل أمزقها بمجرد الاطلاع عليها ؛ إذ كنت قد قررت بصورة باتة ألا يكون بعد شىء بيننا . ولقد شعرت بسرور باتخاذ ذلك

Twitter: @abdulllah1994

القرار ، إذ أصبح فى استطاعتى أن أكرس نفسى للفن . بعد أن سمحت لك بأن تعترض نجاحى فيه . وإنما حدث بعد ثلاثة أشهر أن عادت والدتك فكتبت إلى مدفوعة بضعف الإرادة المحزن الذى هو من خصائصها ، ذلك الذى كان فى مأساة حياتى عنصراً لا يقل شؤماً عن قسوة والدك . ولم يكن لدى شك فى أنها لم تفعل ذلك إلا بتحريض منك . كتبت تقول إنك فى أشد حالات القلق بسبب عدم كتابتى إليك. وقد رأيتَ ألا يكون لى عذر فأرسلت إلى عنوانك فى أثينا ؛ وكنت ، بالطبع ، على علم بهذا العنوان . والواقع أنى شعرت بصدمة شديدة حينما اطلعت على خطابها . وإلا فكيف تعود ، بعد كل ذلك الذى كتبت به إلى فى ديسمبر ، وما رددت به عليها حينئذ ، كيف تعود فتفكر ، مهما كانت الأحوال ، فى القيام بمثل هذه المحاولة لإصلاح صداقتى المنحوسة معك ، أو تجديدها ؟ وبالطبع رددت على خطابها ، غير أنى عدت أحثها على بذل مساعى لجعلك تتصل بأى سفارة فى الخارج(٤٥)، وذلك لكى لا يتاح لك العودة إلى انجلترا . ولكننى لم أكتب إليك ، بل ولم ألق بالا إلى برقياتك أكثر مما فعلت قبل أن تكتب إلى والدتك . وأخيراً لم يسعك إلا أن تبرق إلى زوجتى ، راجيا منها أن تستعمل نفوذها لحملى على أن أكتب إليك . ومع أن صداقتنا كانت دائماً مبعث ألم لها ، لا لأنها لم تشعر قط بميل إليك شخصياً وحسب بل أيضاً لأنها رأت كيف غيرتنى صحبتك المستمرة ، وهو تغير لم يكن إلى أحسن ، إلا أنها ، وقد كانت معك دائماً على أحسن ما يكون من اللطف والكرم ، لم تحتمل أن ترانى قاسياً مع أصدقائى فى أى صورة — هكذا كان تصورها — فقد رأت ، بل وعلمت ، أن هذا بعيد جــــداً عن خلقى . وهكذا لم يسعنى إلا أن أكتب إليك ثانية بناء على رجائها . وإنى أذكر جيداً ما تضمنته

Twitter: @abdulllah1994

برقية ، فقـــد قلت إن الزمن كفيل بشفاء كل جرح ، ولـكننى لن أكتب إليك ولن ألتقى بك لعدة شهور مقبلة . فذهبت إلى باريس فى الحال ، وأرسلت إلى فى طريقك برقيات حارة طالباً أن أراك مرة بأى حال . فرفضت . ووصلت أنت إلى باريس فى وقت متأخر من مساء السبت لتجد خطابا قصيرا منى فى الفندق الذى حللت به ذكرت فيه أنى لن أراك . غير أنى تلقيت منك برقية فى صباح اليوم التالى فى شارع تايت استغرقت عشر صفحات أو إحدى عشرة ، وقد جاء فيها أنه بغض النظر عما حدث منك فإنك لم تـكن تعتقد أنى سأمتنع بتاتاً عن رؤيتك ، مع أنك لـكى ترانى ولو لمدة ساعة قد تجشمت مشقة السفر عبر أوربا ستة أيام بلياليها بغير توقف . وهو قول يجب أن أسلم بأنه مس عاطفتى بصورة شديدة . ولم تـكتف بذلك ، بل ختمت خطابك بما تراءى لى أنه تهديد بالانتحار يكاد يكون سافرا ، لا سيما وقد أخبرتنى أنت نفسك من قبل أن كثيراً من بنى جلدتك قد لطخوا أيديهم بدمائهم ، منهم عمك بتأكيد ، وجدك بالترجيح ، وغيرهما فى حبل السلالة المجنونة السيئة التى انحدرت منها (٤٦) . ومع أنى لم أكن لأتزحزح عن موقفى إلا أن شفقتى عليك ، ومحبتى القديمة لك ، وتصور حال والدتك حينما تعلم بموتك فى مثل تلك الظروف المريعـة فيـكون فى ذلك ضربة قد لا تحتملها ، والفـكرة المفزعة ، وهى أن حياة شابة كهذه لا تزال تبشر بالخير بالرغم مما فيها من أخطاء ستنتهى على هـــذه الصورة المتمردة ، ثم الاعتبار الإنسانى وحده — كل هذه الأسباب حتمت أن ألتمس لنفسى العذر — إن كانت هناك حاجة إلى أعذار — فى أن أتيح لك مقابلة أخيرة . وحينما وصلت إلى باريس رأيت دموعك تطفر وتطفر طوال الليل لتساقط على خديك كالمطر ، وذلك حينما جلسنا فى مطعم ڤوازان

Twitter: @abdulllah1994

لتناول الغداء ، ثم في مطعم بيار لتناول العشاء . وكان الفرح الصادق الذي أظهرته حينما وقع نظرك عليّ ، وتلهفك على تناول يدي كما استطعت كما لو كنت طفلا وديعاً نادما ، وذلك الانكسار الذي بدا منك في بساطة وإخلاص في تلك اللحظة ، كان ذلك كله كافياً لأوافق ثانية على تجديد صداقتنا . وبعد يومين من عودتنا إلى لندن رآك والدك تتناول معي الغداء في الـ« كافي رويال » ، وتشاركني المائدة وتتناول من شرابي . وفي ذلك المساء بدأ حملته الأولى على[47] بواسطة خطاب وجهه إليك .

قد يبدو غريباً إذا قلتُ إن الفرصة للانفصال عنك كانت لدى ، بل وكان هذا ما يفرضه الواجب . ولست في حاجة إلى تذكيرك بأنني أشير هنا إلى سلوكك معي في برايتون من ١٠ إلى ١٣ أكتوبر ١٨٩٤ إنّ تذكر ما حدث قبل ثلاث سنوات ليس بالسهل على مثلك ، غير أنه ليس كذلك بالنسبة إلينا ، نحن الذين نعيش في السجن ، ولا يوجد في حياتنا غير الحزن . فنحن نقيس الزمن بنبضات من العذاب ، ونسايره بسجل من اللحظات المرة . وليس لدينا شيء آخر نفكر فيه . فالتألم — وهو ما قد يبدو لك غريباً — هو وسيلة وجودنا ، إذ أنه الوسيلة الوحيدة التي تشعرنا بهذا الوجود . كما أن تذكر آلامنا الماضية ضروري جداً ؛ فهو الضمان لوجودنا والدليل على استمرارنا في الحياة . ان بيني وبين ذكريات السرور خليجا لا يقل عمقاً عما بيني الآن وبين واقعه . ولو كانت حياتنا هذه كما يتخيلها الناس : سهلة ، يملؤها الاسراف ويغمرها السرور ويشيع فيها الضحك ، ماذكرت عبارة واحدة . ولكن ، لأنها كانت تمتلئ بلحظات مؤلمة ، وأيام مرة في نُـذرها ، مظلمة في إملالها ، قاسية في ثقلها ، فإنني استطيع أن أرى وقائع كل حادثة واسمع حذافيرها . كلا ، فالحقيقة انني لا ارى من تفاصيل الأشياء الأخرى ولا اسمع من

Twitter: @abdulllah1994

وجودها إلا القليل . فالناس في هذا المكان يعيشون في عذاب شديد : وهو ما جعل صداقتى معك ، في الطريق الذى اقسرت على تذكرها فيه ، تبدو لى دائماً كأنما هى نغم متوافق مع تلك الأساليب المتغيرة من العذاب التى يجب أن أحققها كل يوم ، بل التى يجب أن أجعلها مما لاغنى عنه ، كما لو كانت حياتى نغما حقيقياً من الأحزان ، يمر في حلقاته الموزونة النغم إلى قراره المؤكد ، مع تلك الحتمية التى تميز في الفن معالجة كل موضوع عظيم .

لقد أشرت إلى سلوكك معى في ثلاثة أيام متعاقبة قبل ثلاث سنوات . أوَلم أفعل ؟ كنت منفرداً في ورثنج ، أحاول تكملة روايتى الأخيرة ، وذلك بعد أن انتهت الزيارتان اللتان قمت بهما . وإذا بك تظهر فجأة مرة ثالثة ومعك رفيق صح عزمك على أن يحل بمنزلى ، فرفضت ذلك بتاتا (ويجب أن تعترف الآن بأنى كنت مصيباً) ، غير أنى استضفتك بالطبع . ولم يكن لى خيار ، فقد كان يمكن أن يكون صديقك في أى مكان إلا في مسكنى الخاص . وفي اليوم التالى ، أى الاثنين ، عاد رفيقك إلى عمله وبقيت أنت معى . وإذ كنت تشعر بضيق في ورثنج ، وأكثر من ذلك — وهو مالا أشك فيه — من مجهودات تركيزى غير المثمرة ، وهى حصر انتباهى في التمثيلية التى كنت أكتبها — الشىء الوحيد الذى كان في الواقع يهمنى في ذلك الوقت ، فقد أصررت على أن أمضى بك إلى الـ «جراند أوتيل» في برايتون . وفي الليلة التى وصلنا فيها وقعت مريضاً بتلك الحمى الخسيسة التى يسمونها في بلاهة بالانفلونزا . وكانت المرة الثانية ، إن لم تكن الثالثة ، التى تصاب فيها بذلك المرض(٤٨). ولست في حاجة إلى تذكيرك كيف قمت بخدمتك ومقدار ما بذلته من عناية بك . ولم يكن ما بذلته قاصراً على كل لون من الترف ،

Twitter: @abdulllah1994

كالفاكهة والزهور والهدايا والكتب ، إلى غير ذلك من كل ما يشترى بالمال ، بل شمل أيضاً عطفي وحنوّي وحبي ، وهو مهما خطر ببالك مما لا يمكن الحصول عليه بثمن . وباستثناء ساعة كنت أقضيها مشيا في الصباح وأخرى ركوباً في الأصيل ، فإني لم أغادر الفندق قط . وقد بلغ من اهتمامي بك أن أرسلت في طلب نوع خاص من العنب من لندن حينما عافت نفسك ما قدم إليك في الفندق . وكنت أستحدث أشياء لإدخال السرور على نفسك ، وقد بقيت طوال الوقت إما بجانبك أو في الغرفة المجاورة . وكنت أجلس معك كل ليلة لأهدئك وأسرى عنك .

وتبرأ بعد أربعة أيام أو خمسة . وأستأجر مكانا لأستطيع إتمام تمثيليتي ، وتصحبني بطبيعة الحال . وفي مساء اليوم الذي انتقلنا فيه أشعر بمرض شديد ، وتذهب أنت إلى لندن في مهمة ، واعداً بأن تعود بعد الظهر . ولكنك تقابل هناك صديقاً ، فلا تعود إلا في اليوم التالي متأخراً ، وفي ذلك الوقت كنت أعاني من حمى مريعة . ويكتشف الطبيب أن العدوى قد انتقلت منك . ولم يكن هناك ما هو أسوأ من المسكن الذي حللت به بالنسبة إلى رجل مريض . فقد كانت غرفة الجلوس في الطابق الأول بينما كانت غرفة النوم في الثالث . ولم يكن هناك خادم ليعنى بي ، ولا واحد يمكن إرساله لقضاء مصلحة ، أو حتى لإحضار ما نصح به الطبيب . ولكنك كنت هناك ، ولذلك فلم يكن ثمة ما يدعو إلى القلق . وتتركني في اليومين التاليين وحدي تماما ، بغير عناية ، وبغير رعاية ، وبغير أي شيء . ولم تكن مسألة أعناب أو زهور أو هدايا ساحرة ، بل كانت مسألة ضروريات فقط . فقد تعذر علي الحصول حتى على اللبن الذي أمر به الطبيب . أما عصير

Twitter: @abdulllah1994

الليمون فقد كان من المستحيلات . وحينما رجوتك أن تشترى لى كتابا من المكتبة ، أو تختار واحدا إذا تعذر وجود ما أبتغيه ، لم تكلف نفسك عناء الذهاب إلى المكان . فإذا ما أشرتُ إلى أننى تركت طوال اليوم بغير أن أجد شيئاً أقرأه ، رددت على فى برود بأنك اشتريت الكتاب وتركت للمكتبة أن ترسله ، وهو قول مختلق من أساسه ، كما اكتشفت مصادفة فيما بعد . وكنت تعيش طوال الوقت على حسابى ، بالطبع ، فتركب إلى هنا وهناك ، وتتغدى فى الـ « جران أوتيل » ولا تظهر فى غرفتى فى الواقع إلا لطلب نقود . وفى مساء السبت تركتنى كلية بغير رعاية ، وحيدا منذ الصباح . فسألتك أن تعود بعد الغداء لتجلس معى قليلا ، فرددت فى صوت حاد وأسلوب فظ بأنك ستفعل . وانتظرت حتى الحادية عشرة فلا تحضر بالمرة . فأترك لك مذكرة فى غرفتك لم أزد فيها عن الإشارة إلى وعدك ، وكيف حققته ! وفى الثالثة صباحاً ، إذ كنت لا أستطيع النوم ، وأتعذب من العطش ، مضيت ألتمس طريقى فى الظلام والبرد ، فهبطت إلى غرفة الجلوس ، مؤملا العثور على ماء هناك . فإذا بى أجدك ! وإذا بك تنهال على بأقبح ما يمكن أن تستوحيه طبيعة جاهلة فاجرة من كلمات ، وأحط ما تستعمله من أساليب . فقد جعلك الزيف الذى أشاعته فيك أثرتك تصب على جام غضبك بدلا من تأنيب ضميرك . فقد اتهمتنى بالأنانية لأنى توقعت منك أن تكون معى فى حالة مرضى ، وبأنى أحول دونك ووسائل لهوك ، وأحاول أن أحرمك من مسراتك . وقد أخبرتنى — وهو ما علمت أنه صحيح — أنك لم تعد فى منتصف الليل إلا لتغيير ملابسك ، لتخرج ثانية فى طلب مسرات جديدة . أما وقد تركت لك خطاباً ذكرتك فيه بأنك أهملتنى طوال النهار والليل ، فإننى بذلك قد سلبتك

Twitter: @abdulllah1994

رغبتك فى مزيد من الاستمتاع وقلت من طاقتك لتذوق جديد من المسرات ! فلم يسعنى بعد سماع ذلك إلا أن أعود أدراجى صعدا فى اشمئزاز. وقد لبثت مؤرقا حتى الفجر. وحتى وقت طويل بعد ذلك لم أستطع الحصول على شىء أطفىء به ذلك العطش الذى كانت الحمى تزيد من شدته. ولقد جئت إلى غرفتى فى الحادية عشرة. وكنتُ فى المشاجرة السابقة قد لاحظت — مهما كان الأمر — أننى بذلك الخطاب قـد وقفت فى طريقك فى ليلة زاد فيها الإفراط عن الحد العادى. أما فى الصباح فقد رأيتك فى حالة طبيعية. فانتظرت بطبيعة الحال أن أسمع ما قد تبديه من أعذار، وأن أرى ما هو الطريق الذى قـد تتخذه لطلب الصفح، بعد أن علمت فى قرارة نفسك أنه دائما فى انتظار طلبك، مهما كان فعلك. والواقع أن ثقتك التامة بأنى سأصفح دائماً عنك كانت الشىء الذى أحببته فيك دائماً، بل ربما كانت أحسن ما يحب فيك ! ولـكن بدلا من أن تفعل ذلك أخذت تعيد نفس المشاجرة بأسلوب آخر من التشديد والتعنيف. فلم يسعنى إلا أن أطلب إليك أن تغادر الغرفة. وتظاهرت بأنك تفعل. غير انى حينما رفعت رأسى عن الوسادة رأيتك لا تزال واقفاً. وفى ضحك هستيرى وهوج بربرى إذا بك تتقدم فجأة نحوى. فلم أتمالك أن أشعر بالهلع، إذ لم يكن هناك سبب واضح. وقفزت من فراشى فى الحال، ثم أسرعت حافى القدمين، وفى الحالة التى كنت فيها، متخذاً طريقى عبر الدرج إلى أسفل حيث وصلت إلى غرفة الجلوس. ولم أغادرها حتى جاء مالك البيت — وقد قرعت فى استدعائه — فأكد لى أنك قد تركت غرفة نومى، ثم تعهد بأن يكون مستجيبا لندائى إذا تطلب الأمر. وبعـد ساعة حضر أثناءها الطبيب، ورآنى بالطبع فى أشد حالات التوتر

Twitter: @abdulllah1994

العصبي ، كما رآني في حالة من الحمى أشد مما كانت في البدء ، عدت في سكون ، لمجرد الحصول على نقود ا ثم مضيت تجمع ما وجدته على مائدة الزينة وفوق خزانة الملابس ، لتترك المنزل حاملا حقائبك . هل يتطلب الأمر أن أخبرك ماذا كنت أتصورك أثناء اليومين المشئومين اللذين أمضيتهما بعد ذلك وحيداً أعاني من المرض ؟ هل من الضروري أن أذكر أنني رأيت وقتها في وضوح أنه سيكون من العار على أن أستمر، حتى لو اقتصر الأمر على مجرد معرفة ، على علاقتي بشخص مثلك ، بعد أن أظهرت نفسك على حقيقتها ، وأنني أدركت حينئذ أن اللحظة الحاسمة قد جاءت ، وأن في مجيئها فرجاً عظيما ؟ وأنني علمت أن فني وحياتي في المستقبل سيتاح لهما حرية أكثر واتجاه أحسن وجمـال أعظم في كل الطرق الممكنة ؟ ومع أنني كنت مريضاً إلا أنني شعرت براحة ، فقد رأيت أن انفصالنا لا رجعة فيه هذه المرة ، وهو ما جعلني أشعر بالاطمئنان . وفي يوم الثلاثاء تركتني الحمى ، وللمرة الأولى استطعت أن أتناول غذائي في الطابق الأسفل . وكان الأربعاء ذكرى ميـلادي(٤٩) ، ومن بين البرقيات والخطابات التي رأيتها على المائدة كان هناك خطاب بخط يدك ، ففضضته في إحساس بالغ من الحزن ، فقد كنت أعلم أن الوقت قد مضى ليصبح للجملة اللطيفة أو عبارة المودة أو كلمة الأسى تأثيرها في حملي على استعادة صلتي بك . غير أنني كنت مخدوعا تماما ، والواقع أنني كنت مستهينا بك في ذلك التقدير . فقد كان الخطاب الذي أرسلته بمناسبة عيد ميلادي إعادة متعمدة للمشاجرتين السابقتين ، دبجتها على الورق في مهارة بالغة الخبث . فقد مضيت تسخر مني بنكات سوقية ، وكان شفاء علتك الوحيد ــ كما ذكرت ــ أنك رجعت إلى الـ «جران أوتيل» وأدخلت ثمن غذائك في حسابي قبل أن تعود إلى المدينة . وقد

Twitter: @abdulllah1994

هنأتنى على حصافتى بمغادرة فراشى وهروبى توا إلى أسفل ، وقد قلت : « لقد كانت لحظة سيئة بالنسبة إليك ... أسوأ كثيراً مما تتصور ! » .

آه ! لقد شعرت بذلك فعلا ، ولكن أكثر من أن يكون شعوراً بالخير . ماذا كان يعنى الأمر حقيقة ، أننى لا أعلم ! أكنت حينئذ تحمل تلك الغدارة التى اشتريتها لتخيف بها والدك ، وأطلقتها يوما فى أحد المطاعم العامة ، وأحسبها كانت خلوا من الرصاص — بينما كنت فى صحبتى[٥٠] ، أو أن يدك كانت تتجه إلى مدية عادية حدث أن كانت فوق المائدة التى كانت تفصل بيننا ، أو أنك ، وقد نسيت فى غضبتك ما أنت عليه من ضعف بدنى ، فكرت فى القيام بأى اعتداء على أو تهجم ، بينما كنت أمامك طريح المرض ! لا أستطيع أن أقول ماذا كان الأمر ، ولست أعلم حتى هذه اللحظة . كل ما أعلمه أن شعوراً من الرعب الشديد استولى على ، وأنك ما لم أترك الغرفة كنت مقدما على أمر يبقى مبعث خزى طول الحياة ، حتى بالنسبة إليك . ولم يحدث طوال حياتى أن شعرت بمثل هذا الخوف من إنسان إلا مرة واحدة . وكان ذلك فى مكتبتى بشارع تايت ، وذلك حينما مضى والدك يلوح بيديه الصغيرتين فى الهواء فى حركة هستيرية بينما وقف بينى وبينه مشاغبه ، أو صديقه ، ويندفع فى إخراج كل كلمة خطرت بتفكيره القذر ، ويصرخ بتلك التهديدات الكريهة التى استطاع بخبثه أن ينفذها فيما بعد . وفى تلك الحالة كان يجب عليه — بالطبع — أن يترك المكان ، وقد دفعته إلى الخارج . أما فى حالتك فقد كان على أنا أن أذهب . ولم تكن المرة الأولى التى اضطررت فيها إلى إنقاذك من نفسك .

ثم ختمت خطابك بقولك : « حينما لا تكون قائماً على قدميك لا يكون فيك مايشوق . وإذا حدث مرة أخرى أن وقعت مريضاً فإنى

Twitter: @abdulllah1994

أهجرك في الحال ! » . آه ! أي خشونة في النسيج يكشف عنها هذا القول أي نقص في المخيلة ! أي تحجر ! بل أي شعور سوقي أصبح عليه طبعك في ذلك الوقت ! . . . « حينما لا تكون قائماً على قدميك لا يكون فيك ما يشوق . وإذا حدث مرة أخرى أن وقعت مريضاً فإنني أهجرك في الحال ! » . كم عاودتني هذه الكلمات في انفرادي التعس في زنزانتي في السجون المختلفة التي أرسلت إليها ! لقد مضيت أعيدها على نفسي ، ورأيت فيها — وهو ما أرجو ألا يكون حقاً ! — شيئاً من سر سكوتك الغريب . مثل هذه الأقوال إذا صدرت منك إلي ، مع إن مرضي قد حدث بسبب قيامي بتمريضك ، تعتبر شيئاً تشمئز منه النفس ، لما فيها من خشونة وهمجية ، ولكنها لو صدرت من إنسان إلى آخر في العالم كله فإنها تعتبر جريمة لا تجد غفرانا إن كان هناك جريمة لا تغتفر .

الواقع انني بعد قراءة خطابك شعرت بأنني تدنست ، كأنما كنت بصحبتك بما أنت عليه من طبيعة قد لطخت حياتي بالعار إلى الأبد . وهو ما حدث فعلا . ولكنني لم أفطن إلى الأمر إلا بعد ستة شهور كاملة . ولقد قررت العودة إلى لندن يوم الجمعة (٥١) ، وذلك لمقابلة سير جورج لويس شخصيا ، لكي أرجوه أن يكتب إلى والدك بأنني عزمت — مهما كانت الظروف — على ألا أسمح لك قط بأن تدخل منزلي ، أو تجلس إلى مائدتي ، أو تتحدث معي ، أو ترافقني ، أو تكون في صحبتي في أي مكان أو في أي وقت . ورأيت أن أكتب إليك بعد ذلك لمجرد احاطتك علما بالأمر ، تاركا لك استنتاج الأسباب . وفي مساء الخميس كنت رتبت كل شيء . فإذا كان صباح الجمعة جلست أتناول إفطاري قبل الرحيل ، وحانت مني التفاتة إلى الصحيفة ، فإذا بي أطالع برقية جاء فيها أن أخاك الأكبر ، رب العائلة الحقيقي ، ووريث اللقب ، وعماد البيت ، وجد

Twitter: @abdulllah1994

مقتولا فى خندق وبجانبه بندقية أطلقت حديثاً(٥٢) . فكان من الهول لمأساة إن كانت الآن فى حكم الحادثة إلا أنها لن تلبث أن تتلطخ بتفسيرات أشد قتاما ؛ ومن الشفقة لموت واعد أحبه كل من عرفه ، وموته هكذا فجأة ، بل وفى ليلة زواجه ؛ ومن تصورى ما ستكون عليه من حزن ، أو ما يجب أن تكون عليه ! وادراكى ما ينتظر والدتك من بؤس لفقد من كانت تتعلق به دائما التماساً للراحة والسرور ، بل ومن لم يحدث منه قط منذ أن ولد ما جعلها تذرف دمعة واحدة . كما أخبرتنى ؛ ومن تيقظى لما ستشعر به من عزلة ، ولا سيما لأن إخوتك الآخرين كانوا خارج أوربا ، وهو ما يجعل آمال والدتك وشقيقتك تتجه إليك ، لا لمشاطرتهما أحزانهما وحسب بل أيضاً لتحمل ما يتأتى فى ظروف الوفاة من مسئوليات ثقيلة ذات تفاصيل مربكة ، وكان من مجرد الشعور بالدموع التى صنعت هذا العالم والأحزان التى تملأ قلوب الناس جميعاً — كان من كل هذه الأفكار والانفعالات التى تزاحمت فى واعيتى ما جعلنى أشعر بشفقة لاحد لها عليك وعلى أسرتك . وقد نسيت ما كنت أشعر به نحوك من ألم ومرارة . ولم أستطع أن أكون معك فى مصيبتك كما كنت معى فى مرضى . فأبرقت إليك فى الحال معربا عن عطفى العميق ، وطلبت إليك فى خطاب تال أن تسرع إلى بقدر ما يسمح ظرفك . فقد شعرت بأننى إذا هجرتك فى تلك اللحظة فإن ذلك يكون فظيعاً بالنسبة إليك . فما بالك إذا جاءك نذير الهجر بصورة رسمية ، على يد محام ! .

وحال عودتك من مشهد المأساة جئت إلى فى أسلوب غاية فى اللطف والبساطة . وكنت مرتديا ثوب الحداد ، وكانت آثار الدموع لا تزال فى عينيك . وقد جئت كالطفل ، تلتمس العزاء والمساعدة . فلم يسعنى إلا أن أفتح لك بيتى ، بل وقلبى ، وأن أشاطرك أحزانك للتخفيف عنك .

Twitter: @abdulllah1994

ولم يحدث أن أشرت بكلمة إلى مسلكك معى ، ولا إلى تلك المشاجرات الثائرة ولا إلى ذلك الخطاب الذى أظهرت فيه التمرد . بل إن أبيك — وكان حقيقيا — بدا كأنما يقربك منى أكثر مما كنت ، ولم تكن الزهور التى أخذتها منى لوضعها على قبر أخيك رمزاً لما كان فى حياته من جمال وحسب ، بل كانت ترمز أيضاً إلى ما فى كل نفس من جمال خامد يستطاع ابرازه فى الضوء .

إن أمر الآلهة لعجيب ، فهى لا تكتفى بأن تصنع من رذائلنا وسائل للتنكيل بنا[٥٣] بل تدفع بنا إلى الدمار بفعل ما هو فينا من خير ورقة وانسانية وحب ! غير انى أشعر برحمة ومودة لك ولذويك ، ولذلك فلا أريد أن أبكى الآن فى هذا المكان المريع .

انى أدرك بالطبع ما كان فى مراحل علاقتنا من أثر لا المقدر وحسب بل المحتوم أيضاً — المحتوم الذى يمشى دائما سريعاً ، لأنه يتجه إلى إراقة الدماء ! فقد جئت عن طريق أبيك من سلالة كانت الصلة بها مخيفة إذا حدثت عن طريق الزواج ، ومشئوما إذا جاءت عن طريق الصداقة . وفى كلتا الحالتين كانت تضع يدين قاسيتين إما على حياة الشخص نفسه أو على حياة الآخرين . ففى كل ظرف تافه تلاقت فيه طرق حياتنا ، وفى كل نقطة عظيمة أو عديمة الأهمية فى ظاهرها فى اتجاهك إلىّ متطلعاً إلى السرور أو المساعدة، وفى كل المناسبات الصغيرة والحوادث البسيطة التى كانت تبدو فى اتصالها بالحياة كتلك الهباءات التى تتراقص فى شعاع ، أو تلك الأوراق التى ترفرف فوق شجرة — فى كل حالة من تلك كان الخراب يتبع دائماً ، كذلك الصدى الذى يتردد إثر صيحة منكرة ، أو ذلك الظل الذى يتابع وحشاً مفترساً . إن صداقتنا قد بدأت

Twitter: @abdulllah1994

فى الواقع برجاء منك وجـــه إلىّ فى خطاب عاطفى ساحر لمساعدتك فى موقف كان مرعباً لأى شخص ، ومرعبا بصورة أشد لطالب فى أكسفورد . ومع ذلك فقد أقدمت على مساعدتك . غير انى ، بعد أن استعملت اسمى كصديق لك مع سير جورج لويس ، بدأت أفقد احترام ذلك الرجل وصداقته ، وهى صداقة قامت طوال خمسة عشر عاما . وحينما حرمت من نصحه ومساعدته وتقديره أصبحت وقد حرمت الوسيلة العظيمة لحماية حياتى .

وترسـل إلى قصيدة بديعة من شعر مدرسة الطلاب الجامعيين ، متطلعاً إلى استحسانى . فأرد عليك بخطاب من التصورات الأدبيـة الخيالية (٥٤) ، لا أعالك فيـه أن أضعك فى مرتبة هيلاس Hylas أو هياسنث Hyacinth أو جونكيل Jonquil أو نارسيس Narcisse أو أى واحد ممن حاباهم إلـه الشعر وشرفهم بحبه . وكان الخطاب كفقرة من إحدى قصائد شـكسبير حولت إلى تركيب أقل تعقيداً . ولم يكن من السهل فهمه إلا على أولئك الذين قرأوا ... أفلاطون ، أو من استطاعوا أن يدركوا روح قطعة ثقيلة جعلت جميلة بالنسبة إلينا بوضعها فى مرمر إغريقى . لقد كان ، دعنى أقول فى صراحة ، خطابا من ذلك النوع الذى ربما كنت أكتبه فى بعض اللحظات السـعيدة ، إذا واتت الرغبة ، إلى أى شاب جامعى أرسل إلى قصيدة من نظمه ، مع التأكد من مقـدرته العقلية والثقافية على إدراك ما فيه من معانى خيالية . انظر إلى تاريخ ذلك الخطاب ! لقـد انتقل منك الى يدى زميل قذر ، ومنه إلى عصابة ممن يهددون بالتشهير قصد الابتزاز ، فكان أن أرسلت منـه نسخ فى مختلف نواحى لندن ، إلى أصدقائى ، بل وإلى مدير المسرح الذى كانت تمثل عليه رواياتى (٥٥) . وقد حول فيه الإنشاء

Twitter: @abdulllah1994

إلى كل معنى غير الذى قصدت إليه ! ولما كان المجتمع مولعاً بالشائعات السخيفة فقد اضطررت إلى دفع مبلغ كبير من المال لأنى كتبت إليك خطابا شائنا ! هذا الخطاب يشكل القاعدة الأساسية لقيام والدك بأسوأ هجوم على . ولقد قدمت الأصل فى المحكمة للتدليل على حقيقة الخطاب ، فأعلن محامى والدك أنه محاولة ثائرة خبيثة لإفساد الطبيعة البريئة . وأخيراً أصبح الخطاب يشكل جزءاً من تهمة جنائية ، فقد وضعه التاج فى الاعتبار ، كما وضعه القاضى أساساً لتقديره الذى بنى على قليل من المعرفة وكثير من التأويل الأدبى . وهكذا ذهبت فى النهاية إلى السجن بسببه . هذه هى نتيجة كتابة خطاب ساحر إليك !

بينما كنت أقيم معك فى سالزبورى إذا بك تتلقى خطابا تهديديا من رفيق سابق ، فتنزعج كل الانزعاج ، ثم ترجونى أن أرى الكاتب وأساعدك فى الأمر . وأفعل ذلك ، فتكون النتيجة خراباً على ، فقد اضطررت إلى أن آخذ على عاتقى كل شىء فعلته ، وأن أتولى الدفاع عنه .

عندما أخفقت فى الحصول على الدرجة الجامعية لم يكن أمامك إلا أن تترك أكسفورد . فتبرق إلى فى لندن راجياً أن أذهب إليك . وأفعل ذلك فى الحال . فتطلب إلى أن آخذك إلى جورنج لأنك — بحكم الظروف — لا تريد العودة إلى أهلك . وفى جورنج ترى منزلا يروقك فأستأجره لأجلك . فتكون النتيجة خراباً علىّ من كل ناحية .

تحضر إلى ذات يوم فتسألنى معروفاً شخصيا ، وهو أن أكتب شيئاً برسم مجلة لطلاب أكسفورد كان صديق لك فى سبيل إصدارها ولم أكن سمعت به طوال حياتى ولا علمت عنه شيئا . ولكى أسرك — وما هو الشىء الذى لم أفعله دائما لكى أسرك ؟ — أرسلت إليه صفحة من «المتناقضات»

Twitter: @abdulllah1994

كنت أعددتها خصيصاً لصحيفة « ساتردای رڤيو »[٥٦] . وبعد شهور قليلة أجد نفسى واقفاً فى قفص الاتهام بمحكمة « أولد بيلى » بسبب طبيعة تلك المجلة . فقد كان الأمر يشكل جزءاً من التهمة التى وجهها إلى التاج . وقد دعيت لأدافع عن نثر صديقك وعن شعرك . ولم أستطع أن أدافع عن الأول ، أما عن الآخر فإننى لم أستطع إلا أن أكون وفياً إلى أبعد حد لأدبك الفنى ولحياتك الشابة ، فكان يجب أن أدافع عنه بشدة ، حتى لا أسمع بك كاتبا يعالج موضوعات شائنة . ومع ذلك فقد ذهبت إلى السجن ، لا بسبب مجلة صديقك الجامعى وحسب بل أيضاً بسبب « الحب الذى لا يجرؤ على أن يبوح باسمه »[٥٧]

بمناسبة عيد الميلاد قدمت لك « هدية جميلة جداً » على حد تعبيرك فى خطاب الشكر الذى تلقيته منك . وكنت قد علمت أن قلبك كان متعلقا بها . وكان ثمنها لا يزيد عن أربعين أو خمسين جنيها . ومع ذلك فعندما تعرضت حياتى للافلاس ، ووجدت نفسى فى خراب ، وجاء محضر فاستولى على مكتبتى ووضعها فى المزاد ، حدث ذلك كله بسبب « الهدية الجميلة جداً » ! فقد حدث التنفيذ فى بيع محتويات بيتى لتسديد ثمنها .

فى اللحظة الأخيرة المروعة ، حينما كنت توجه إلى التقريع لحثى على الإسراع فى رفع قضية على والدك ليتم القبض عليه ، كانت القشة الأخيرة التى تعلقت بها فى صراعى اليائس للخلاص عجزى عن دفع النفقات المريعة التى تتطلبها القضية فقد أخبرت المحامى فى حضورك أنه لا يوجد لدى مدخرات ، وأنى قد لا أستطيع تقديم ما يلزم من نفقات ، وأنه لا يوجد مال تحت يدى . وكان ما قلته صحيحاً ، كما تعلم . وفى يوم

Twitter: @abdulllah1994

الجمعة المشئوم ذاك[٥٨] ، بدلا من أن أكون فى مكتب همفريز[٥٩] ، استسلم فى ضعف لما يؤدى إلى جر الخراب علىّ ، كان يمكن أن أكون سعيداً ، متمتعاً بحريتى فى فرنسا ، بعيداً عنك وعن والدك ، غير آبه لبطاقته القذرة ولا مهتم بخطاباتك ، وذلك لو استطعت أن أغادر فندق أفندال فى ذلك الوقت . ولكن إدارة الفندق رفضت بتاتاً أن تسمح لى بالمغادرة . فقد جئت من قبل فأقمت معى عشرة أيام . بل وجئت رفيقك لك فأقام أيضاً على حسابى ، وهو أمر لا يسعك إلا أن تسلم بأنه كان مما يثير الحنق . وهكذا بلغ ما على من حساب عن عشرة أيام ما يقرب من ١٤٠ جنيها رفض مدير الفندق السماح بخروج متاعى حتى أؤديها كاملة . وكان هذا ما حملنى على البقاء فى لندن . ولو لم تكن قائمة الحساب تلك لكنت ذهبت إلى باريس فى صباح الخميس .

* * *

نتوقف هنا ، واعدين القارئ بإكمال الخطاب وإضافة التعليقات فى جزء آخر نرجو أن يكون فى متناول يده بمجرد انتهائه من قراءة هذا القسم . وإنما نرى أن نشير إلى أن هذه التعليقات تحتوى على خطابات أخرى ، ومن بينها بعض ما كتبه وايلد إلى دوجلاس معبرا عن عاطفته فاتخذت بعد ذلك دليلا جنائيا فى محاكمته .

Twitter: @abdulllah1994

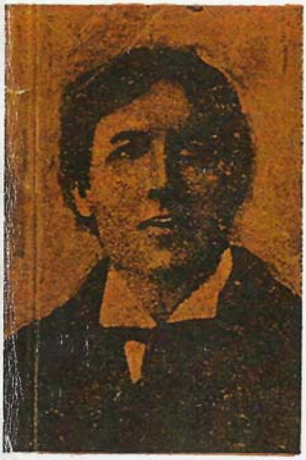

إننى لاأدافع عن سلوكى ، بل أوضحه ..

هكذا كتب أوسكار وايلد من سجن ريدنج ، حيث حبس بسبب مخالفته قوانين انجلترا الصارمة ضد اللواط .

ان العلاقة الغرامية التى نشأت بين وايلد وابن مركيز كوينزبرى ، لورد الفرد دوجلاس ، بما فيها من تشهير ، حملت المركيز على أن يهاجم وايلد علانية فى خلقه وسلوكه . فقابل وايلد ذلك برفع الامر الى القضاء باعتباره مجرد افتراء . ولشد ما كانت دهشته حينما أدى ذلك الى سلسلة من المحاكمات التشهيرية والادانات . وفى زنزانته فى السجن كتب رسالته الشهيرة « د برفوندى » « De Profundis » فجاءت انشاء تفصيليا لايرحم لغرامه ومأساته .

وهذا الكتاب يحتوى على النص القطعى لهذه الوثيقة الشهيرة ينشر لأول مرة ، كما تنشر معه قصيدة وايلد العنيفة :

القصة الشعرية عن سجن ريدنج

نشر وتوزيع
مطبعة ومكتبة الدار المصرية
مؤسسة عربية للطباعة والنشر والتوزيع
٢٢ شارع سامى - المالية ت : ٣٢٥٧٨
القاهرة ج.ع.م

الثمن ٣٠ أو ما يعادلها

أوسكار وايلد

Twitter: @abdulllah1994

الكتاب الرابع
٢٠١٧/٨/١٩

De Profundis

من الأعماق

النص الثابت المعتمد للتصريح
المثير الذي أرسله وايلد من سجنه
تعليقات بقلم: روبرت هارت ديفيز
مقال تحليلي بقلم: و. هـ. أودن
القصيدة الشعرية عن سجن ريدنج

الجزء الثاني والأخير

ترجمة

عبد اللطيف محمد الدمياطي

أوسكار وايلد

DE PROFUNDIS

[من الأعماق]

مع تعليقات بقلم : روبرت هارت داڤيز

ومقال تحليلي بقلم : و . هـ . أودن

ثم

القصيدة الشعرية عن سجن ريدنج

ترجمة

عبد اللطيف محمد الدمياطي

Twitter: @abdulllah1994

خطاب الى :

لورد ألفرد دُوجلاس

DE PROFUNDIS

[من الأعماق]

Twitter: @abdulllah1994

إلى لورد الفرد دوجلاس

(النسخة الأصلية : المتحف البريطانى)

(يناير — مارس ١٨٩٧) سجن صاحبة الجلالة ، ريدنج

(وصل لما سبق فى الجزء الأول)

وحينما صارحت المحامى بأنه ليس لدى مال لمواجهة النفقات الباهظة تدخلت أنت فى الحال ، فقلت إن أسرتك يسرها أن تقوم هى بدفع جميع التكاليف اللازمة . فقد كان أبوك شيطانا يسبب المتاعب لأفرادها ، وهو ما جعلهم يفكرون فى وضعه فى مصح عقلى ليتخلصوا من شره . وقلت إنه كان دائما مصدر إزعاج وتكدير لوالدتك ولغيرها ، وهو ما يجعلني أبدو فارسا فى نظر العائلة ، بل ومحسناً إليها ، إذا قمت بما يؤدى إلى حجزه بعيداً ، وإن أقارب والدتك الأثرياء سينظرون إلى الأمر بارتياح فلا يشق عليهم دفع جميع النفقات . وبسماع ذلك أغلق المحامى باب الحديث فى الحال . فلم يبق لى عذر للتردد فى الذهاب إلى المحكمة ، والواقع أنى أكرهت على ذلك . وبالطبع لم تدفع العائلة شيئا من النفقات . وحينما أشهر إفلاسى كان ذلك بتدبير والدك ، وبسبب تلك النفقات نفسها ، أو الجزء الذى كان باقيا منها ، وكان حوالى ٧٠٠ جنيه(٦٠) .

Twitter: @abdulllah1994

إن زوجى ، وقد شعرت بالنفور منى بسبب الخلاف على مسألة هامة ، وهى ما إذا كان يجب أن أحصل منها على ثلاثة جنيهات فى الأسبوع ، أو ثلاثة وعشرة شلنات ، لأعيش عليها ، تعد الآن قضية للطلاق . ولابد لهذه القضية من بينة جديدة ، ومحاكمة جديدة ، بالطبع ، وقد تتخذ فيها إجراءات أشد عنفا . ولست أعلم ، بطبيعة الحال ، ماهى التفاصيل . وكل ما أعلمه هو اسم الشاهد الذى يعتمد عليه دفاع زوجى للادلاء بالبينة ؛ فهو نفسه خادمك فى أكسفورد ، ذلك الذى ألحقته بخدمتى بناء على طلبك حينما ذهبنا للاصطياف فى جورنج .

غير إنى فى الواقع لست فى حاجة إلى عرض أمثلة أكثر من المحتوم العجيب الذى يبدو أنك جلبته على فى جميع الأمور ، كبيرها وصغيرها . فالأمر يجعلنى أشعر أحيانا كما لو كنت أنت نفسك مجرد دمية تحركها يد غير منظورة ؛ لتأتى بحوادث مريعة تتمخض دائما عن نتيجة مريعة ! غير أن الدمى نفسها لها أهواؤها ؛ فهى تأتى بعكيدة جديدة فيما تحدثه . ثم تلوى النتيجة المفروضة عليها من وراء التغييرات لترضى هوى لها أو تشبع رغبة . وأن يكون الإنسان حراً تماماً ويكون فى نفس الوقت محكوماً تماماً بقانون ، فهذا هو التناقض الأزلى فى الحياة الإنسانية الذى نميزه فى كل لحظة . وهذا هو التفسير الوحيد الممكن لطبيعتك ، كما فكرت دائماً ، إذا كان يمكن أن يكون هناك حقيقة أى تفسير لماتنطوى عليه النفس البشرية من أسرار عميقة مخيفة ، اللهم إلا ذلك الذى يجعل من السر أشد غرابة !

بالطبع كان لك تصوراتك ، وقد عشت فيها بلاشك ، ورأيت من خلال ضبابها المتغير وحجبها الملونة جميع الأشياء تتغير . ولقد اعتقدت ،

Twitter: @abdulllah1994

وهو ما أذكره جيداً ، أنك بتكريس نفسك لي إلى حد تجاهل أسرتك واستبعاد حياتها تماماً قد أقمت الدليل على تقديرك وحبك لي إلى أبعد حد . وإنما فاتك أن تذكر أنك معي قد وجدت الترف ، والحياة الراقية ، والمسرات التي لا حد لها ، والمال الذي يعطى بغير حساب . لقد كانت معيشة أسرتك مملة لك ، وكان « نبيذ سالزبوري البارد الرخيص » — على حد تعبيرك — مما تمجه نفسك . أما بجانبي ، وعلى ذول ألوان جاذبيتي ، فقد كنت تجد المن والسلوى . وحينما كنت تفتقدني لم يكن الرفاق الذين استعضت عني بهم من المتملقين .

ولقد اعتقدت ثانية أنك بإرسال خطاب إلى أبيك عن طريق محام تعلن فيه أنك بدلا من قطع صلتك الخالدة بي تفضل التنازل عن المنحة التي خصصها لك — وكانت ٢٥٠ جنيها في العام ، بعد حسم ديونك في أكسفورد على حد علمي — اعتقدت أنك بذلك الإجراء قد قمت بأروع ضروب الفروسية في الصداقة وضربت على أسمى النغمات في انكار الذات . غير أن تنازلك عن تلك المنحة الصغيرة لم يكن يعني استعدادك للتنازل عن شيء لا مما يستغنى عنه من الضروريات بل ولا حتى من الكماليات . بل على العكس لم تكن شهيتك إلى حياة الترف أشد مما كانت يوم أن اتخذت ذلك القرار . لقد بلغت نفقاتي في ثمانية أيام في باريس ، عن نفسي وعنك وعن خادمك الإيطالي ، حوالى ١٥٠ جنيها ، ابتلع منها فندق « بيار » وحده ٨٥ جنيها . وبالمعدل الذي رغبت في أن تعيش عليه فإن إيرادك السنوي كاملا لم يكن يكفيك لأكثر من ثلاثة أسابيع ، حتى لو قصرت الأمر على تناول الطعام وحده ، واكتفيت بألوان من اللهو الرخيص . إن تنازلك عن تلك المنحة كيفما كانت ، وهو في الواقع ضرب من الشجاعة الصورية ، هيأ لك أخيراً سبباً شبه معقول ، أو هكذا رأيته ،

Twitter: @abdulllah1994

المطالبة بأن تعيش على حسابي . وقد حدث كثيراً أن استفدت جديا من ذلك ، بل وعبرت عن حقك فيه بكل وضوح . ولم يكن ذلك الاستنزاف المستمر ، وقد وقع أكثره عليّ بالطبع ، وإن كان — كما علمت — قد وقع على والدتك أيضاً إلى حد ما ، لم يكن قط هكذا محزنا ؛ وذلك لأنه ، فيما يتعلق بي على كل حال ، لم يكن قط مصحوباً بأقل كلمة شكر ولا بأضعف إحساس بالقناعة .

ولقد اعتقدت ثانية أنك بمهاجمة والدك بخطابات مخيفة ، وبرقيات بذيئة وبطاقات جارحة ، كنت تقوم حقيقة بمعارك لصالح والدتك ، وتتقدم كبطلها المدافع للثأر عما لا شك في أنه كان أخطاءً مريعة وآلاماً في حياتها الزوجية . وكان هذا وهما منك ، بل كان بالتأكيد من أسوأ أوهامك . فالطريق للثأر من أبيك عما ارتكبه مع والدتك من أخطاء ، إذا كنت ترى أن مثل هذا الأمر من واجب الإبن ، كان في أن تجعل من نفسك ابناً لها أصلح مما كنت ، فلا تجعلها تخشى أن تكلمك في الأمور الجدية ، ولا تقسرها على تسديد حساب فواتير وقعت عليها في رعونة ، ولا تخاشنها في المعاملة ، ولا تجلب الأحزان إلى حياتها بأي سبب . لقد قام أخوك فرنسيس[٦١] بتعويضها عما قاسته بدرجة عظيمة ، وذلك بمعاملته الرقيقة الطيبة لها خلال السنوات القليلة من حياته التي كانت في عمر الزهور . فكان حريا بك أن تتخذ منه مثالا . ولكنك كنت مخطئاً حتى في تصورك أنك ستجعل والدتك تشعر بسرور كبير إذا استطعت بواسطتي أن تدفع أباك إلى السجن . كنت مخطئاً في ذلك بلاشك . فإذا أردت أن تعلم ماذا يكون عليه شعور المرأة إذا رأت زوجها ووالد بنيها قد ارتدى ملابس السجن وأصبح يعيش في زنزانة منه ، فما عليك إلا أن تكتب إلى زوجتي في ذلك ، فهي تستطيع أن تنبئك بالحقيقة .

Twitter: @abdulllah1994

وكان لى أيضاً تصوراتى . فقد اعتقدت أن الحياة صائرة إلى ماهاة متألقة ، وأنك واحد من كثيرين سيكونون فيها مثالا للطف الشمائل فإذا بى أراها مأساة متمردة منفرة ، وأراك مناسبة منحوسة لنكبة كبرى ، وقد كانت منحوسة بتركيز هدفها وتكثفه فى قوة الإرادة المحدودة ؛ وذلك بعد تجردك من ذلك القناع من البشر والسرور الذى لم يكن انخداعك به أقل من انخداعى ، وهو ماذهب بنا بعيداً عن الواقع .

إنك تستطيع الآن أن تدرك ولو قليلا مما أتألم منه . أم تراك لا تستطيع ؟ لقد ذكرت إحدى الصحف — وأحسبها كانت « البال مال غازيت » — ذكرت شيئاً عن التجربة الأخيرة لواحدة من تمثيلياتى ، فكان مما ذكرته أنك كنت متابعاً لى ، كما لو كنت ظلا . وأقول إن ذكرى صداقتنا هى الظل الذى يتابعنى هنا ؛ والذى يبدو أنه لا يتركنى قط . فهو يوقظنى فى الليل ليخبرنى نفس القصة ، ثم يعيدها على ويعيدها حتى يهجرنى النوم بفعل تكرارها الممل وهكذا حتى مطلع الفجر . وعند الفجر يبدأ ثانية . وهو يتبعنى إلى فناء السجن ويجعلنى أكلم نفسى بينما أنا أدور حول المكان وكل شىء من التفاصيل التى حدثت فى كل لحظة مخيفة أرى نفسى مقسراً على تذكره . وليس هناك شىء حدث فى تلك السنوات المنحوسة لا أستطيع إحياءه فى ذلك الجزء من مخى الذى خصص للحزن واليأس . إن كل نبرة متوترة من صوتك ، وكل حركة عصبية من يديك ، وكل كلمة مرة ، وكل جملة مسمومة — كل ذلك يعاودنى باستمرار . انى أتذكر الطريق أو النهر الذى سرنا بجانبه ، والحائط أو الحرج الذى اكتنفنا ، كما أتذكر الأرقام التى وقفت عليها عقارب الساعة ، والاتجاه الذى انطلقت فيه الرياح ، وماذا كان شكل القمر ، وماذا كان لونه .

Twitter: @abdulllah1994

هناك جواب واحد عن كل ذلك ، كما أعلم ، وهو أنك أحببتنى . وأنك طوال الثلاثين شهراً التى مضت الاقدار تنسج خلالها من خيوط حياتينا المنقسمتين نموذجاً قرمزياً كنت تحبنى حقاً . بلى ، إنى أعلم ذلك . فبغض النظر عما كان عليه سلوكك معى شعرت دائماً بأنك فى أعماق قلبك كنت تحبنى حقا . ومع أنى كنت أرى فى وضوح أن مركزى فى عالم الفن ، وما كانت تثيره شخصيتى دائما من اهتمام ، وما كان فى يدى من مال ، وما كنت أعيش فيه من ترف ، وغير ذلك من أسباب جعلت حياتى تبدو لك ساحرة وغير متوقعة بصورة عجيبة — مع إنى كنت أرى أن كل هذا أو بعضه كان من عوامل افتتانك وتعلقك بى ، إلا أنه كان هناك شىء آخر أكثر أهمية .. شىء من الجاذبية الغريبة بالنسبة إليك . فقد أحببتنى أكثر من أى شخص آخر ؛ غير أنك ، كما حدث معى ، كنت قد عشت مأساة مريعة من حياتك ، وإن كانت مأساتك ذات طبيعة مضادة تماماً لمأساتى . فهل تريد أن تعلم ماذا كانت ؟ لقد كان البغض دائما فى نفسك أقوى من الحب . وكان بغضك لأبيك من المدى بحيث تجاوز حبك لى وقهره وطغى عليه . ولم يكن بينهما كفاح بالمرة ، أو ربما كان بينهما القليل . بتلك الأبعاد كان البغض فيك ، وفى ذلك التوحش نما . ولم تدرك أنه لا يوجد محل للانفعالين معاً فى النفس الواحدة ؛ فهما لا يستطيعان أن يعيشا جنباً إلى جنب فى ذلك المأوى الذى قسم بإنصاف .

إن الحب يغذيه الخيال . فبالخيال نصبح أعقل مما نعلم ، وأحسن مما نشعر ، وأنبل مما نحن . وبه نستطيع أن نرى الحياة كاملة . وبه ، وبه وحده ، نستطيع أن نفهم الآخرين فى صلاتهم الحقيقية وندركهم فى علاقاتهم المثالية(٦٢) . والحب لا يغذيه إلا ما هو جميل ، أو ما أمكن

Twitter: @abdulllah1994

إدراكه فى جمال . أما البغض فيغذيه كل شىء . وهكذا لم يكن هناك قدح من جيد النبيذ تجرعته ، ولا طبق من شهى الطعام تذوقته ، طوال تلك السنوات ، لم يغذ فيك روح البغض ويجعله أشد استشراء . ولكى تشبعه فى نفسك مضيت تقامر بحياتى ، كما كنت تقامر بنقودى ، وتفعل ذلك فى غير اكتراث ، وفى غير ترو ، وفى غير تقدير للعواقب . فإذا جاءت النتيجة خساراً تصورت أنه لن يقع عليك ، وإذا جاءت ربحا رأيت أنك جدير بنشوة الانتصار وما يتأتى من أكاليل الغار !

إن البغض يعمى البصائر . وهـذا ما لم تكن تعلمه . أما الحب فيستطيع أن يقرأ ما سطر على أبعد النجوم . وإنما أعماك البغض فلم تستطع أن ترى أكثر من حديقة رغباتك السافلة ، بما هى فيـه من ضيق وحصر وشهوات ذبلت . وكان قصورك المريع فى التخيل ، وهو فى الواقع ما اعتور طبعك من نقص مشئوم(٦٣) ، كان بصورة تامة نتيجة لما نما فيك من بغض . فقد مضى البغض يأكل فى طبيعتك فى خبث وسكون وخفاء ، كما تأكل حشيشة البحر فى نبات أصفر ، حتى عدت لا ترى من بواعث الاهتمام إلا أتفهها ، ولا من الأهداف إلا أحقرها . فقد استطاع البغض أن يسمم فيك تلك الملكة التى كان الحب قادراً على أن يغذيها ، وأن يشلها .

عندما هاجمنى والدك فى البدء كان ذلك باعتبار أننى صديق لك ، وفى خطاب خاص بعث به إليك . وحالما اطلعت على ما جاء فى الخطاب من تهديدات وقحة واعتداءات خشنة رأيت فى الحال أن خطراً مريعاً أخذ ينسج خيوطه على أفق أيامى التعسة . فأخبرتك أننى لن أكون مخلب قط بينكما فى بغضكما القديم أحدكما للآخر ؛ وأننى لم أكن صيدا سهلا له فى لندن كما كان وزيرا للشئون الخارجية فى هامبورج(٦٤) ؛ وأن لدى

Twitter: @abdulllah1994

لشغل حياتي ما هو أفضل من الدخول في مشاجرات مع رجل سكير ، منحرف الوضع ، شبه معتوه . ولم يكن من السهل أن أجعلك ترى ذلك ؛ فقد أعماك البغض فأصررت على أن النزاع لا يعنيني في الحقيقة ، وأنك لن تسمح لوالدك بأن يملي عليك فيما يتعلق بصداقاتك الشخصية ، وأنني أكون ظالما إذا تدخلت في الأمر . وقبل أن تحدثني في ذلك كنت قد أرسلت إلى والدك برقية حمقاء سافلة(٦٥) . وقد أداك ذلك بالطبع إلى اتخاذ نهج كله حماقة وسفالة .

إن الأخطاء المشئومة في الحياة لا ترجع إلى طيش الشخص ؛ فرب لحظة طيش تكون أبدع اللحظات ، بل ترجع إلى منطقه . وهناك فرق كبير . فقد تحكمت تلك البرقية فيما تلا ذلك من علاقات لك بأبيك ثم تحكمت في حياتي كلها نتيجة لذلك . وإنما الشيء المخيف عن تلك البرقية إنها كانت مما يخجل منه أحقر الرعاع ! وهكذا ، من برقيات وقحة إلى خطابات ملأها الغرور أرسلت من مكتب محامي ، كان الأمر يتقدم بشكل طبيعي وكان لتلك الخطابات التي أرسلت من مكتب المحامي أثرها في حث والدك على المضي أبعد . فالواقع أنك لم تترك له فرصة للاختيار ، بل فرضت عليه الأمر كمسألة شرف ، أو بالأحرى مسألة عدم شرف ، وذلك لكي يكون لإثارتك تأثير أشد . وقد كان ، فإذا ما مضى يوجه إلى حملة ثانية لم يفعل ذلك في خطاب خاص ، ولم يتكلم عني كصديق لك ، بل مضى يهاجمني علانية ، باعتبار أنني من العامة . فإذا ما طردته من بيتي ذهب يبحث عني في مطعم بعد آخر ، وذلك ليجرسني أمام الناس جميعاً ، ويفعل ذلك في أسلوب إن قابلته بالمثل كان في ذلك خراب علي ، وإن تجاوزت عنه كان فيه خراب علي كذلك .

وحينئذ ، أو لم يكن ذلك بالتأكيد هو الوقت المناسب لك لكي

Twitter: @abdulllah1994

تتقدم وتعلن أنك لا ترى أن تعرضني بسببك لمثل تلك الحملات الشنيعة والاضطهاد الشائن بل تتنازل ، فى رضاء وتسليم ، عن كل ادعاء لك فى صداقى ؛ أعتقد أنك تشعر الآن بأن ذلك كان ما يقتضيه الحال . غير أن هذه الفكرة لم تخطر لك ببال . فقد أعماك البغض فكان كل ما فكرت فيه (بجانب تلك الخطابات والبرقيات الجارحة التى كنت تمطره بها) شراء غدارة مضحكة ، تنطلق فى مطعم « بركلى » فى ظروف كانت كافية لخلق فضيحة أسوأ مما خطر لك ببال ! والحق إن تلك الفكرة ، وهى أنك موضوع خصام فظيع بين والدك وبين رجل فى مثل مركزى ، قد بدت لك سارة ؛ فهى ، كما افترض منطقيا ، قد أرضت غرورك وتملقت فيك أهمية الذات . وكان من الحلول المؤلمة المسألة فى تقديرك أن يكون أبوك قد استأثر بجسدك الذى لا يهمنى وترك لى روحك التى لا تهمه ! فكان أن شعرت بفرصة الفضيحة علنية فجريت إليها . وكان منظر معركة تكون فيها فى أمن من بواعث سرورك ولا أذكر أنك كنت مبتهجا قط كما كنت فى ذلك الوقت . وإنما كانت خيبة أملك الوحيدة فى أن شيئاً ما لم يحدث عمليا ، وأنه لم يعد هناك بيننا لا اجتماعات ولا مشاجرات . فلم يكن أمامك إلا أن تعزى نفسك بإرسال برقيات إليه كانت بطبيعتها كافية لحمل الرجل التعيس فى النهاية على أن يكتب إليك قائلا أنه أصدر أمراً إلى خدمه بعدم تقديم أى برقية إليه تحت أى ادعاء مهما كان . غير أن هذا لم يثبط عزمك ، فقد وجدت الفرصة فى بطاقات البريد المفتوحة ، واغتنمتها كاملة : فمضيت تثيره ليندفع أبعد فى المطاردة . وأعتقد أنه لم يكن قادراً على التراجع . فقد كانت غرائز الأسرة قوية فيه ، وكان بغضه لك لا يقل ثباتاً عن بغضك له ، وكنت أنا حصان المطاردة لكليكما ،

Twitter: @abdulllah1994

وسهم الهجوم ودرع الدفاع . ولم تقتصر شهوته للتشهير على ما كان يعتمل في نفسه ، بل كانت خطاباتك وبطاقاتك تثيره من جديد فيعود إلى تأججه السابق . فكان من الطبيعي أن يمضي قدماً . وهكذا ، فبعد أن هاجمني خفية كرجل ذي مكانة عاد فهاجمني علنا كرجل من العامة . ثم صمم أخيراً على أن يوجه إلى ضربته النهائية كفنان ، وأن يوجهها في نفس المكان الذي يعرض فيه فني . فاستطاع بالخداع أن يحجز مقعدا في الليلة الأولى لتمثيل واحدة من رواياتي ، ورسم خطة خبيثة لمقاطعة التمثيل وإلقاء كلمة قذرة عني على النظارة ، وإهانة الممثلين ثم توجيه مقذوفات بذيئة إلى حينما أدعى في الختام للوقوف أمام الستار . كل ذلك للقضاء على بطريقة خبيثة في مجال أعمالي ! وإنما حدث بمحض الصدفة ، في لحظة إخلاص عرضية من حالة كانت عادة أشد من حالة رجل ثمل ، حدث أن مضى يفاخر بخطته أمام بعض الناس ، فوصل النبأ إلى الشرطة ، وكان أن حجزته بعيداً عن المسرح . وكان لديك الفرصة حينئذ ، فقد جاءتك المناسبة في ذلك الوقت . أو لا تدرك الآن أنه كان يجب عليك أن تراها ، فتتقدم لتقول انك لا تود أن تترك فنى يقضى عليه بسببك مهما كانت الأحوال ؟ لقد علمت ماذا كان فني بالنسبة إلى . إنه كان العلامة الكبرى التي استطعت بها أن أكشف عن نفسي ، لنفسي أولا ثم للعالم بعد ذلك . لقد كان الانفعال الحقيقي لحياتي كان الحب الذي لم يكن كل حب آخر بالنسبة إليه أكثر من ماء المستنقع بالنسبة إلى النبيذ الأحمر ، أو يراعة المستنقع بالنسبة إلى مرآة القمر السحرية . أو لا تدرك الآن أن افتقارك إلى التخيل كان حقاً ما اعتور خلقك من نقص مشئوم(٦٦) ؟ لقد كان الشيء الذي وجب أن تفعله في منتهى البساطة ، بل وفي منتهى الوضوح . غير أن البغض كان

Twitter: @abdulllah1994

قد أعماك ، فلم تستطع أن ترى شيئاً ! لم يكن في استطاعتي أن أعتذر لوالدك عن مضيه في تجربتي واضطهادي بأقذر الأساليب لمدة تقرب من تسعة أشهر . كذلك لم يكن في استطاعتي أن أقذف بك خارج حياتي ، فقد حاولت ذلك مرة بعد أخرى ، وذهبت في محاولتي إلى حد ترك انجلترا والذهاب إلى الخارج لكي أتخلص منك ، دون جدوى . إذن فقد كنت الشخص الوحيد الذي كان في استطاعته أن يفعل شيئاً . فقد بقي معك مفتاح الموقف كله ، وقد واتتك أعظم الفرص لتقوم بشيء طفيف كرد على ما أبديته نحوك من محبة ومودة وشفقة وسماحة . ولو كنت قدرتني ولو عشر قيمتي كفنان لفعلت ذلك . غير أن البغض أعماك . وكانت المقدرة العقلية « التي بها ، وبها وحدها ، نستطيع أن نفهم الآخرين في علاقاتهم الحقيقية والمثالية »(٦٧) ميتة فيك . فقد مضيت تفكر في بساطة كيف تستطيع أن تضع أباك في السجن . . . كيف يمكن أن تراه « في القفص » ، كما كنت تقول دائما . كانت تلك فكرتك الوحيدة ، وقد أصبحت تلك العبارة من « المناشير » العديدة في حديثك اليومي . وكنت أسمعها منك أثناء كل وجبة . حسناً ، لقد أوتيت سؤلك وأشبعت رغبتك . فقد أتاح لك البغض كل شيء رغبت فيه . وكان سيدا لك ، كما هو في الواقع مع كل من خضع له . فقد جلست طوال يومين في مقعد عال بجانب رجال الادارة ، ومضيت تمتع ناظريك بمرأى والدك واقفاً في قفص المحكمة الجنائية المركزية ؛ ثم حدث في اليوم الثالث أن رأيتني آخذ مكانه ! فما الذي حدث ؟ لقد حدث أننا كنا في لعبة البغض المخيفة التي تباريتما فيها ألقيتما بـ « الزهر » مقامرين على حياتي ؛ فحدث أن كنت أنت الخاسر . كان هذا كل شيء .

إنك ترى أن على أن أكتب لك حياتك ، وأن عليك أن تدركها .

Twitter: @abdulllah1994

لقد عرف أحدنا الآخر الآن لمدة تزيد عن أربع سنوات . وكنا معاً نصف ذلك الوقت ،أما النصف الآخر فقد كان على أن أقضيه فى السجن ، كنتيجة لصداقتنا . أين ستتسلم هذا الخطاب ، إذا قدر له قط أن يصلك ، هذا مالا أعرفه . ليس لدى شك فى أن روما ، أو نابولى ، أو باريس ، أو ڤينسيا ، أو بعض المدن الجميلة على البحر أو على النهر ، مما يجتذبك . وإذا كنت لا تحيط نفسك الآن بشيء من وسائل الترف التى لا جدوى منها ، كتلك التى أتيحت لك معى ، فلا شك أنك لست محروما مما يسر العين والأذن والذوق ، على الأقل . فالحياة محبوبة لك للغاية . ومع ذلك ، فإذا كنت عاقلا ، وإذا رغبت فى أن تجد فى الحياة ما هو أحب كثيراً مما عرفته ، وأن تتذوقه بأسلوب آخر ، فيجب أن تجعل قراءة هذا الخطاب المريع — فالواقع إنى لا أجهل أنه كذلك . يجب أن تجعل قراءة هذا الخطاب تثبت لك أنها مهمة ، كأزمة ونقطة تحول فى حياتك ، كما فعلت كتابته معى . إن وجهك الشاحب كان يحمر بسهولة كلما تناولت النبيذ أو شعرت بشيء من السرور . فإذا شعرت حال قراءتك ما كتب هنا بأنه يلتهب خجلا من حين لآخر ، كما لو كان واقعاً فى أتون صهر ، فسيكون فى هذا كل الخير لك . تذكر أن أعظم الرذائل هو الضحالة ، أما مايدركه فهو صحيح مهما كان .

لقد وصلت الآن فى حديثى إلى مرحلة دخولى السجن . أو لم أفعل ؟ فبعد قضاء ليلة فى زنزانة الشرطة أرسلت إلى هناك فى عربة . وكنت غاية فى الإهتمام واللطف . فكل مساء تقريباً ، إن لم يكن توكيدا ، كنت تجشم نفسك مشقة القيام برحلة إلى « هولواى »(٦٨) . لكى ترانى . ومازلت تفعل حتى ذهبت إلى الخارج . كذلك قمت بكتابة خطابات كلها رقة ومودة . ولكن ، أن تكون أنت لا والدك من وضعنى

Twitter: @abdulllah1994

فى السجن ، وأن تكون أنت المسئول من البداية إلى النهاية ، وأن أكون هناك عن طريقك أنت ، وبواسطتك أنت ، ومن أجلك أنت — كل هذا لم يخطر لك ببال ! وحتى منظرى من وراء قضبان ذلك القفص الخشبي لم يستطع أن يحرك تلك الطبيعة الميتة بنضوبها من الخيال . لقد كنت تبدي العطف وتظهر الشفقة كمن يشاهد رواية محزنة ؛ غير أنه لم يخطر ببالك أنك كنت مؤلف تلك المأساة المخيفة ! فدل ذلك على أنك لم تستطع أن تدرك شيئاً مما فعلته . ولم أر أن أخبرك بما كان يجب أن ينبئك به قلبك ، بل وما كان فعلا قد أنبأك به لو لم تكن تركت البغض يحجره ويجعله عديم الإحساس . كل شيء يجب أن يأتى إلى المرء من طبيعته هو ، وليس هناك فائدة من إخباره بما لا يشعر به ولا يستطيع فهمه . فإذا كنت اكتب إليك الآن فقد كان ذلك لأن سكوتك وسلوكك أثناء سجنى الطويل جعل الأمر ضرورياً . فضلا عن ذلك ، فقد تكشف الأمر ووضح أن الضربة وقعت على وحدى ؛ وكان ذلك من بواعث سرورى ؛ فقد كان هناك أسباب عديدة جعلتنى أرضى بالعذاب . وإنما لاحظت شيئا ما فى تعاميك المقصود جعلنى أشعر لك بالاحتقار . إنى أذكر كيف جئت فى عجب كبير تحمل خطابا نشرته عنى[٦٩] فى واحدة من الصحف الرخيصة . وكان حقا خطابا رزيناً هادئاً من النوع العادي فقد مضيت تتوسل فيه إلى « الادراك الانجليزى المنصف » — أو قلت شيئاً ما بهذا المعنى الكئيب — ليلتفت إلى رجل « كان يهوى إلى الحضيض » . ومثل هذا الخطاب قد يكتب حال توجيه تهمة قاسية إلى رجل من ذوى المكانة لم تكن لك به صلة ؛ ولكنك اعتقدت أنه كان مدهشا ، ومضيت تنظر إليه كدليل على فروسية تتواضع حيالها فروسية « دون كيشوت » ؛ ولا شك أنك كتبت خطابات أخرى إلى

Twitter: @abdulllah1994

صحف أخرى فلم تنشر(٧٠) . ولم يكن ذلك إلا لأنك كتبتها فى بساطة لتعلن أنك تبغض والدك . فهذا ليس بالأمر الذى يهتم به أحد ، فعلته أو لم تفعله . إنك لاتزال فى حاجة إلى أن تعلم أن البغض ، إذا اعتبر عقليا ، هو السلبية الأبدية . فإذا اعتبر من وجهة نظر الانفعال العاطفى فهو شكل من الضمور يقتل كل شىء ماعداه إن من يكتب إلى الصحف ليقول إنه يكره زيداً أو عمروا من الناس لا يختلف عمن يكتب إليها معلنا أنه يعانى من مرض سرى مخجل . أما أن يكون الشخص الذى تبغضه والدك ، وأن يكون مثل هذا الشعور متبادل بصورة تامة ، فإن هذا لا يجعل من بغضك شيئاً نبيلا ولا جميلا بأى حال . فإن دل على شىء فهو لا يدل على أكثر من أنه مرض وراثى .

إنى أذكر أيضا يوم أن وضع الاجراء التنفيذى على بيتى ، ووقع الحجز على كتبى وأثاثى ، وأعلن عن بيعها ، إذ كنت واقعاً تحت طائلة الافلاس . وكان من الطبيعى أن أكتب إليك بهذا كله ؟ ومع ذلك فلم أذكر أن دخول المحضرين إلى منزلى ، حيث كنت تتغدى غالبا ، لم يكن إلا لتسديد أثمان بعض الهدايا التى قدمت إليك ! فقد اعتقدت ، مصيباً أو مخطئاً ، أن مثل ذلك القول قد يسبب لك بعض الألم . فاكتفيت بذكر الحقائق مجردة ، إذ كان من المناسب أن تحاط علماً بها . ووردت على من « بولونيا » فى نغم كاد أن يلهبه الجذل الحماسى : فقلت أن والدك « يعبد القرش » ، وأنه كان مضطراً إلى تخصيص ١٥٠٠ جنيه كمصاريف للقضية ، وأن وصولى إلى حالة الافلاس يعتبر « كسبا بديعا » منه ؟ إذ أنه لن يستطيع فى هذه الحالة أن يحصل منى على شىء من تلك المصاريف ! فهل تدرك الآن ماهو البغض إذ يعمى الشخص ؟ هل تميز الآن انى حينما قلت أنه ضمور يدمر كل شىء إلا نفسه كنت أصف علميا واحدة من

Twitter: @abdulllah1994

الحقائق النفسية الصحيحة ؟ لقد كان بيع كل الأشياء المحبوبة التي كانت لدي ، من مجموعة صور « بيرن - جونز » ، ومجموعة « هويسلر » ، ومجموعة « مونتتشللي » ، ومجموعة « سيميون سولوموز » ، ومجموعتي من الخزف ، ومكتبتي بما حوته من مجلدات أهديت إلى من كل شعراء عصري تقريباً ، من « هوجو » إلى « هوايتمان » ، ومن « سوينبورن » إلى « مالارمي » ، ومن « موريس » إلى « ڤرلين » ، مع الطبعات ذات التجليد الفاخر من مؤلفات والدي ووالدتي ، والجوائز المدهشة التي حصلت عليها من المدارس والكليات ، وطبعات « د — لوكس » وغيرها — كان بيع كل ذلك ليس شيئاً بالمرة في نظرك فقد قلت إن ذلك كان عبثاً ثقيلا ، وكان هذا كل شيء ؛ أما الذي استطعت أن تراه فقد كان ذلك الاحتمال ، وهو أن والدك ربما خسر في النهاية بضع مئات من الجنيهات . وكان ذلك التقدير التافه كافياً لجعلك تشعر بسرور لا حد له ! ومع ذلك فربما أهملت — بصدد نفقات القضية — أن تعلم أن والدك قد قال علانية في « نادي أورليان » أنه إذا حدث أن كلفته القضية ٢٠٠٠٠ جنيه فإنه سيعتبر أن هذا المبلغ قد أنفق بطريقة سديدة ، إذ سيكون قد حصل على ما يبتغيه من استمتاع وسرور ونصر . وإنما استطاع أن يحصل على أكثر من ذلك ، وهو مالم يكن قد توقعه . فقد استطاع لا أن يضعني في السجن لمدة عامين وحسب ، بل أن يأخذني أيضاً إلى الخارج بعد ظهر أحد الأيام يعلن إفلاسي على ملأ ! وكان في هذا أقصى درجات اذلالي ، وكان فيه أقصى درجات انتصاره .

إني أعلم جيداً أنه لو لم يفكر والدك في الحصول مني على شيء من تلك النفقات لكنت أبديت كثيراً من الأسف على ضياع مكتبتي كاملة . وهي خسارة لا تعوض بالنسبة إلى رجل يشتغل بالأدب . والواقع إنها ،

Twitter: @abdulllah1994

من بين جميع خسائرى المادية ، كانت الوحيدة التى آلمتنى . وكان الواجب يقتضيك أن تشترى لحسابى ولو بعض كتبى . فأحسن ما فيها قد ذهب لقاء مبلغ لا يصل إلى ١٥٠ جنيها ، وهو ما يقل عما كنت عادة أنفقه عليك فى أسبوع . وحتى لو لقيت فى ذلك بعض المشقة فقد كان يجدر بك أن تذكر تلك المبالغ التى أنفقتها عليك فى إسراف ، وكيف عشت سنوات على حسابى . غير أن السرور الحقير الذى استولى عليك حينما قدرت أن والدك سيخسر بضعة قروش من جيبه جعلك لا تفكر فى القيام بمحاولة لترد إلى بعض ما أسديته إليك من صنيع . وكان ما وجب عليك فعله شيئاً طفيفاً ، هينا ، لا يكلف كثيراً ، وكان يلقى منى أعظم ترحيب إذا فعلته . فهل ترانى جانبت الصواب إذ قلت إن البغض يعمى النفوس ؟ أفلا ترى ذلك الآن ؟ إن لم تكن رأيته فحاول أن تراه !

كيف رأيت ذلك بوضوح حينئذ ، كما أراه الآن ! لست فى حاجة إلى أن أخبرك . غير إنى قلت لنفسى : « مهما كلف الأمر ، فيجب أن أحتفظ بالحب فى قلبي . وإلا ، فماذا يصير إليه حال روحى إذا دخلت السجن بغير حب ؟ » . وكانت الخطابات التى كتبتها إليك من « هولواى » فى ذلك الوقت تعبر عما كنت أبذله من مجهود للاحتفاظ بالحب كدليل مسيطر من طبيعتى الحقة . وكان فى استطاعتى ، لو أردت ، أن أقطعك إرباً بأساليب من التعنيف المرير ؛ وكان فى استطاعتى أن أمزقك باللعنات ؛ وكان فى استطاعتى أن أرفع أمامك مرآة تنعكس عليها صورة منك لا تستطيع أن تميز فيها صورتك إلا بعد أن ترى ما فيها من انعكاس لحركات الرعب الذى استولى عليك . وحينئذ تعلم لمن تكون ، فتبغضها وتبغض نفسك إلى الأبد . من المؤكد أنى كنت أستطيع أكثر من ذلك ، فقد كانت هناك خطايا شخص آخر موضوعة تحت

Twitter: @abdulllah1994

تصرف وداخلة فى رصيدى ، إذا أردت . وكان فى استطاعتى فى كل من المحاكمتين أن أنقذ نفسى على حساب صاحب تلك الأخطاء ، لا من السجن وحسب بل من الفضيحة أيضاً . فلو كنت قبلت أن أعلن أن شهود التاج — أقصد الثلاثة المهمين منهم — قد دربوا جيداً بواسطة والدك ومحاميه ، لا على الاخفاء وحسب بل على التوكيد أيضاً ، فعزوا إلى أفعال شخص آخر وتصرفاته ، وفعلوا ذلك عن قصد وعن تدبير وعن تلقين ، لكان ذلك كافياً لحمل القاضى على طردهم من المحكمة فى الحال ، كما فعل مع شاهد الزور ايتكنز(٧١) السكين . وإذن لخرجت من المحكمة رابط الجأش ويدىّ فى جيبى : رجلا يتمتع بكامل حريته . والواقع أنه وقع على ضغط شديد لأفعل ذلك ، ووجه إلى النصح والرجاء والتوسل فى حرارة من جانب أناس يبتغون الخير لى ولبيتى . غير إنى لم أر أن أسلك ذلك السلوك . ولم أشعر بأسف على هذا الرأى حتى فى أحلك ساعات سجنى ؛ فقد كان مثل ذلك التصرف دون مستواى . ولا عجب ، فخطايا الجسد ليست بشىء ، فهى فى الواقع أمراض يتولاها الطبيب بالعلاج ، إن كان من الضرورى أن تعالج . أما خطايا النفس فهى المخزية ، ولو كنت سلكت تلك الطريقة لأنجو من السجن لبقى الأمر طوال حياتى مصدراً لعذابى . ولكن ، هل تعتقد أنك كنت حقاً جديراً بالحب الذى كنت حينئذ أشعر به نحوك ؟ أو إنى رأيتك جديراً به لحظة واحدة ؟ هل تعتقد أنك كنت حقاً فى أى وقت من صداقتنا جديراً بالحب الذى كنت أظهره لك ؟ أو إنى رأيتك جديراً به لحظة واحدة ؟ غير أن الحب ليس مما يباع ويشترى فى سوق عام . وهو ليس مما يوضع فى كفتى بائع متجول . فالسرور فيه ، كما هو السرور فى كل شىء عقلى ، أن يشعر بنفسه حيًّا ؛ والهدف منه هو الحب نفسه ، لا أكثر ولا أقل . لقد

Twitter: @abdulllah1994

كنت عدوّى ، وكنت عدواً لم يره قط إنسان . فقد أعطيتك حياتى فاطرحتها جانبا لكى تشبع فى نفسك أحط الغرائز وأحقرها ، وهى البغض ، والغرور ، والجشع . وفى أقل من ثلاث سنوات كنت حطمتنى تماما من جميع النواحى . أما من جانبى فإنه لم يكن لى غرض سوى أن أحبك . فقد كنت ولا أزال أضرب فى صحراء الوجود الجافة ؛ وقد علمت أنى لو سمحت لنفسى بأن أشعر نحوك بالبغض لوجدت كل صخرة فى هذه الصحراء فقدت ظلها ، وكل نخلة جفت ، وكل بئر جادت بدليل على أنها مسمومة من القاع . فهل بدأت الآن تفهم قليلا ؟ هل تشعر بأن مخيلتك بدأت تستيقظ من ذلك السبات الطويل الذى وقعت فيه ؟ لقد علمت من قبل ما هو البغض ، فهل بدأت تدرك ما هو الحب ، وما هى طبيعته ؟ إن الوقت لم يفت لتعلم شيئاً عن ذلك ؛ وإن كنتُ ، لكى أعلمك ما هو الحب ، وجب أن أدخل زنزانة متهم !

بعد صدور الحكم المريع ، وحينما وجدت نفسى أرتدى ملابس السجن ، ورأيت بابه يغلق على ، جلست بين خرائب حياتى العجيبة ، وقد عصرنى الكرب ، وأربكنى الهول ، ودوخنى الألم . غير إنى لم أشعر لك ببغض . فقد كنت كل صباح أقول لنفسى : يجب أن أحتفظ بالحب فى قلبى هذا اليوم ؛ وإلا فكيف أعيش طوال اليوم ؟ وكنت أذكر نفسى بأنك لا تعنى شراً ، بالنسبة إلى على الأقل . فقد وطنت نفسى على أن أراك لم تفعل أكثر من أن استعملت قوساً فى مجازفة فحدث أن اخترق السهم ملكا بين فاصلق عدة الحرب(٧٢) . وقد شعرت بأنى لو وزنتك بأقل أحزانى وأتفه خسائرى لما كان فى ذلك إنصاف . فعزمت على أن أعتبرك شخصاً يتألم كذلك . لقد أقسرت نفسى على الاعتقاد بأن الغطاء قد سقط أخيراً عن عينيك اللتين أصابهما العمى طويلا ، ومضيت أتخيل

Twitter: @abdulllah1994

فى ألم ماذا سيكون عليه حالك من الفزع يوم أن تكون تأملت فى عملك المريع ! كانت هناك أوقات ، حتى فى تلك الأيام المظلمة التى كانت أسود أيام حياتى ، كنت أشعر فيها برغبة شديدة فى تعزيتك ؟ فقد كنت أعتقد أنك أدركت أخيراً ماذا فعلته .

ولم يكن قد خطر ببالى حينئذ أنك منيت بأعظم الرذائل ، وهى الضحالة . والواقع إننى شعرت بحزن بالغ حينما رأيت نفسى مضطراً إلى إخبارك أننى احتفظت بأول فرصة للمكاتبة ليكون ذلك فى شئونى العائلية . غير أن صهرى كان قد كتب إلى قائلا إننى لو كتبت إلى زوجتى ، ولو مرة واحدة ، فإنها — إكراماً لى ولأولادنا — ستعدل عن رفع قضية لطلب الطلاق . فشعرت بأن الواجب يقتضينى ذلك . وحتى لو طرحت جانباً أسباباً أخرى فإنى لم أكن لأحتمل فكرة انفصالى عن « سيريل » ، طفلى الجميل ، الحب المحبوب ، أصدق أصدقائى جميعا ورفيق بعد كل الرفاق — ذلك الذى كانت الشعرة الواحدة من رأسه الذهبى الصغير أعظم قيمة فى نظرى دائماً ، لا أقول فقط منك من رأسك إلى قدمك بل من جميع مرجان العالم كله(٧٣) ، وإن كنت لم أدرك ذلك إلا فى وقت متأخر .

بعد مضى أسبوعين على طلبك وصلتنى منك أخبار . فقد جاء « روبرت شيرارد »(٧٤) ، أشجع الرجال اللامعين وأنبلهم ، جاء ليرانى ، وأخبرنى — بين أشياء أخرى — أنك فى سبيل نشر مقال عنى ، مع نماذج من خطاباتى ، فى « ميركير د فرانس » ، تلك الصحيفة المضحكة التى زعمت فى سخف أنها المركز الحقيقى للفساد الأدبى ! ثم سألنى ما إذا كنت حقا قد رغبت فى ذلك ؛ فاندهشت وانزعجت ، وأمرت بإيقاف ذلك فورا(٧٥) . لقد علمت أنك تركت خطاباتى مطروحة هنا وهناك ، ليسرقها رفاق من المشهرين ، ويختلسها خدم الفنادق وتبيعها الخادمات .

Twitter: @abdulllah1994

ورأيت أن هذا يرجع فى بساطة إلى قصور حاستك فى تذوق ما كنت أكتبه . أما أن تعمد جادا إلى نشر مختارات من ذلك الرصيد فإن هذا كان مما صعب على تصديقه . ثم أيآ من خطاباتى كانت تلك ؟ لم أستطع معرفة ذلك . كان هذا أول ما وصلنى منك من أنباء . وقد كدرتنى طبعآ .

ثم جاءت الدفعة الثانية من الأنباء بعد ذلك بوقت قصير . فقد جاء محاميو أبيك إلى السجن ، وقدموا لى شخصيآ إعلانا بالافلاس عن مبلغ تافه هو ٧٠٠ جنيه كان إجمالى أتعابهم المفروضة . وقد صدر الحكم معلنا أنى مفلس ، وأمر القاضى بإحضارى إلى المحكمة . فرأيت ، ولا أزال أرى — وسأعود ثانية إلى الموضوع — رأيت أن هذه الأتعاب كان يجب أن تدفع بواسطة عائلتك . فقد أخذت على نفسك شخصيا مسئولية ذلك حينما ذكرت أن العائلة ستقوم بذلك . وكان هذا ما جعل المحامى يقبل القيام برفع الدعوى بالطريقة التى اتبعها . إنك كنت المسئول تماماً . وحتى لو صرف النظر عن تعهدك اصالح عائلتك ، فقد كان يجب أن تشعر بأن أقل ما يجب عليك ، وقد كنت المتسبب فى جر كل ذلك الخراب على ، أن تكفينى عناء فضيحة أخرى جاءت بإعلان إفلاسى بسبب مبلغ حقير للغاية ، إذ كان أقل من نصف ما أنفقته عليك فى ثلاثة شهور قصيرة من الصيف فى «جورنج» . على كل حال لن أقول هنا أكثر فى هذا الموضوع . إنى أسلم بأنى تلقيت رسالة جاءت منك عن طريق المحامى بصدد الموضوع ، أو انها كانت تتصل بالمناسبة على كل حال . ففى اليوم الذى جاء فيه ليتلقى إقرارى وأقوالى مال نحو المائدة — وكان السجان موجودا — وبعد أن راجع ورقة أخرجها من جيبه قال لى فى صوت منخفض : «إن الأمير فلير د ليس[٧٦] يبلغك تحياته» . فحملقت فيه ، لأسمع منه إعادة لنفس الرسالة . ولم أدرك

Twitter: @abdulllah1994

ما يعنى . فأضاف فى غموض : « إن السيد فى الخارج حالياً » . فوضح لى كل شىء .. وإنى أذكر أنى ضحكت ساعتئذ المرة الأولى ، بل والأخيرة ، فى حياتى فى السجن . وكانت تلك الضحكة تعبيراً عن سخريتى من العالم كله . الأمير د ليس ! ... لقد رأيت ، وأظهرت لى الحوادث المتعاقبة أنى كنت محقا فيما رأيت ، رأيت أن كل ما حدث لم يمنك على إدراك شىء ! فقد كنت لا تزال ترى نفسك أميراً خفيف الروح فى ملهاة ، لا شخصية مظلمة فى مأساة . فكل ذلك الذى حدث لم يكن سوى ريشة فوق قبعة تزين رأسا ضيقة ؛ أو زهرة تزخرف صدرية تخفى قلباً لا يبعث فيه الحرارة إلا البغض ، أما الحب فإنه يجعله أكثر برودة ! الأمير فلير د ليس ! ... لا شك أنك كنت مصيباً حينما رأيت أن تراسلنى تحت اسم مزعوم ؛ فالواقع أنى أنا نفسى لم يكن لى اسم فى ذلك الوقت . ففى ذلك السجن الكبير ، حيث حبست حينئذ ، لم أكن إلا رقما ، أو حرفا ، للزنزانة الصغيرة من الممر الطويل ، وواحداً من ألف رقم عديم الحياة ، كواحدة من ألف نفس انعدمت فيها الحياة ! غير أنه كان هناك ، بالتأكيد ، أسماء حقيقية كثيرة تضمنها التاريخ الصحيح ، كانت أكثر ملاءمة لك . ولم يكن من الصعب على أن أميز أياً منها فى الحال . فلم أكن قد فكرت فى البحث عنك خلف وميض حبات « الترتر » التى ترصع ثوباً تهريجياً لا يلبس إلا فى حفل تنكرى ! يا للأسف ، فلو كانت نفسك قد جرحت بفعل الألم ، وانحنت بفعل الندم ، وتواضعت بفعل الأسى ، وكان حريا بها أن تفعل ، ولو بدافع من السعى نحو الكمال ، لو كانت نفسك قد فعلت ذلك لما اختارت مثل ذلك الأسلوب التنكرى باحثة تحت ظله عن مدخل إلى بيت الآلام ! إن الأشياء العظيمة فى الحياة هى كما تبدو : وبذلك السبب ، وهو ما قد

Twitter: @abdulllah1994

يبدو لك غريباً ، فإنها صعبة التفسير . أما الأشياء الحقيرة فإنها رموز . ونحن نتلقى بواسطتها أشد دروسنا مرارة ، ونتلقاها بكل سهولة . وقد كان اختيارك اسماً مصطنعاً ، وقد حدث بطريقة عرضية كما يبدو ، كان شيئاً رمزياً ، وسيبقى كذلك ، فهو يكشف عن حقيقتك .

بعد ستة أسابيع جاءت دفعة ثالثة من الأنباء . فقد دعيت من أحد عنابر المستشفى حيث كنت طريح المرض أعانى منه فى تعاسة — دعيت لأتلقى رسالة خاصة منك بواسطة مدير السجن . وقرأ على من خطاب وجهته إليه ما صح عليه عزمك ، وهـو نشر مقال « عن قضية مستر أوسكار وايلد » فى صحيفة « ميركير د فرانس » (التى تناظر مجلتنا الإنجليزية « فورتنايتلى ريفيو ») ، كما أضفت بسبب غريب . وأنك مهتم بالحصول على موافقتى على نشر مختصرات ومختارات من ... أى خطابات ؟ أهى تلك التى كتبتها إليك من سجن « هولو واى » ! ... أهى تلك الخطابات التى وجب أن تكون فى تقديرك من الأشياء المقدسة والسرية التى ترتفع فوق كل شىء فى العالم كله ! تلك كانت فى الواقع نفس الخطابات التى رأيت أن تنشرها للطائشين المستهترين ليعجبوا ، ولحثالة الصحفيين ليسجلوا ، ولسباع الحى اللاتينى الصغيرة ليفغروا أفواههم دهشة ! لو لم يكن فى صميم قلبك شىء يحملك على أن تصرخ احتجاجا على مثل هذه الفضيحة السوقية لكان حرياً بك على الأقل أن تذكر قصيدة ذلك الذى شاهد فى حزن واحتقار كيف بيعت خطابات « جون كيتس » فى مزاد علنى بلندن ، وأن تفهم أخيراً ما هو المعنى الحقيق فى أبياتى هذه :

أعتقد أنهم لا يحبون الفن
أولئك الذين يحطمون بلورة قلب شاعر
لتستطيع عيون مريضة أن تحدق وتتفرس (٧٧)

Twitter: @abdulllah1994

وإلا فأى شيء قصدت أن تكشف عنه مقالتك ؟ أهو أنى كنت مغرماً بك إلى أبعد حد ؟ لقد علم عيال باريس بهذه الحقيقة ؛ فهم جميعا يطلعون على الصحف ، وكثير منهم يكتب إليها . أم أنى كنت عبقرياً ؟ إن الفرنسيين قد أدركوا ذلك ، بل وعلمـــوا ما هى الصفة المميزة لعبقريتى ... علموها أحسن كثيراً مما علمتها ، أو أحسن مما كان منتظرا منك أن تعلمه عنها . أو لتقول إن شذوذا عجيبا من الشهوة والرغبة يساير العبقرية غالباً ؟ مدهش ! غير أن الموضوع هنا لا يخصك بقدر ما يخص « لمبروزو »(٧٨) . فضلا عن ذلك ، فهذه الظاهرة قد وجدت أيضاً بين من لم يكونوا من العباقرة . أو لتقول إننى فى حرب البغض بينك وبين والدك كنت دائما درعا وسهما لكليكما ؟ كلا ، بل أكثر من ذلك ، ففى تلك المطاردة المخيفة لحياتى بعد أن توقفت تلك الحرب لم يكن قادراً قط على الوصول إلى لو لم تكن شرا كك قد نصبت من قبل حول قدمى ؛ هذا حق بلا ريب . غير أن « هنرى بوير »(٧٩) قد فعل ذلك من قبل بطريقة حسنة جداً ، كما علمت . فإذا كنت رأيت أن تعزز رأيه فإن هذا لم يكن يستوجب نشر خطاباتى ، أو تلك التى كتبتها فى سجن « هولو واى » على الأقل .

هل ستقول ، رداً عن أسئلتى ، إننى فى واحد من الخطابات التى كتبتها فى هولو واى سألتك أنا نفسى أن تحاول قدر استطاعتك أن تنصفنى بعض الشيء ولو مع جزء قليل من العـــالم ؟ لقد فعلت ذلك بالتأكيد . وإنما يجب أن تذكر كيف كنت ولم أنا هنا فى هذه اللحظة ! فهل تعتقد أنى هنا بسبب علاقاتى مع شهود قضيتى ؟ إن علاقاتى مع أناس من هذا النوع ، حقيقية كانت أو مفترضة ، لم تكن بذات أهمية ، لا فى اعتبار الحكومة ولا فى تقدير المجتمع . فهم لم يعلموا عنها شيئاً ،

Twitter: @abdulllah1994

ولا يهمهم أن يعلموا . وإنما أنا هنا لأنني حاولت أن أضع أباك فى السجن . وقد أخفقت مساعى بالطبع . فقد ألقى دفاعى أوراقه جانباً ، فاستطاع أبوك أن يقلب المائدة على بصورة تامة ، وأن يضعنى فى السجن حيث لا أزال . هذا هو السبب فى أن الناس يحتقرونني ويشمئزون منى . هذا هو السبب فى أنه أصبح لزاماً على أن أقضى كل يوم ، وكل دقيقة ، من مدة سجنى المرعب . هذا هو السبب فى أن جميع التماساتى قد رفضت .

لقد كنتَ الشخص الوحيد الذى كان فى استطاعته أن يعطى المسألة كلها لونا آخر ، وأن يضع الأمر فى ضوء يختلف ، وأن يوضح ماذا كان الوضع إلى درجة كبيرة . كان فى استطاعتك أن تفعل ذلك بغير أن تعرض نفسك للخطر أو اللوم أو السخرية من أى ناحية .

بالطبع لم أكن أتوقع منك ، بل ولا أريد ، أن تذكر كيف ولأى غرض جئت تلتمس منى المساعدة فى متاعبك فى اكسفورد ؛ ولا كيف ولأى غرض ، إذا كان لك غرض قط ، لم تترك جانبي عمليا طوال ما يقرب من ثلاث سنوات . كذلك لم أكن فى حاجة إلى أن تكلف نفسك عناء تأريخ المحاولات المستمرة ، بنفس الدقة التى اتبعتها هنا ، التى قمتُ بها لإنهاء صداقة كانت مخربة لحياتى كفنان ، وكرجل له مركزه ، أو حتى كعضو فى المجتمع ؛ بل ولم أكن أريد منك أن تصف تلك المشاجرات التى تعودت على اصطناعها فى تكرار رتيب ، ولا أن تطبع تلك السلسلة العجيبة من البرقيات التى كنت تبعث بها إلى وقد حوت خلطا مستهجنا بين القصة والمال ، ولا أن تقتبس من خطاباتك أعنف ما جاء فيها من عبارات وأشدها تمرداً ، كما اضطررت أن أفعل هنا . لم أرد شيئا من هذا كله ، ولم أفكر فيه . بل رأيت أنه ربما كان من

Twitter: @abdulllah1994

الخير لك ولى لو استطعت أن توجه شيئا من الاحتجاج على رواية أبيك عن صداقتنا ، إذ أنها لم تكن أقل فى قبحها مما انطوت عليه فى ضغنها ؛ ولم تكن أقل فى سخفها بالنسبة إليك منها فى عارها بالنسبة إلى . لقد دخلت هذه القصة عمليا فى صلب التاريخ ؛ فنقلها الناقلون ، وصدقها المصدقون ، وأرخها المؤرخون ، وأصبح الواعظ يجد فيها شاهدا للغوه كما أمسى الأخلاقى يجد فيها مادة لموضوعه العقيم . وهكذا كان على ، أنا الذى استشهد بكل العصور ، كان على أن أقبل بالحكم الذى أصدره على قرد وبهلول ! لقد قلت ، وهو ما أسلم بههنا فى مرارة ، قلت إن من سخرية القدر أن يعيش أبوك ليكون بين أبطال مدارس الأحد ، وأن ترتفع أنت إلى درجة الطفل صامويل ، وأن أهبط أنا لأجد نفسى بين « جيل د ريه » و « الماركيز د ساد » ! ومع ذلك فربما كان هذا أفضل . والواقع أنى لا أشعر بشىء من الرغبة فى الشكوى .

إن من بين الأشياء الكثيرة التى يتعلمها المرء فى السجن أن الأشياء هى ما هى ، وأنها ستكون ما هى كائنة . كذلك ليس لدى شك فى أن « أرض القرون الوسطى » ومؤلف « جستين » سيثبتان أنهما أحسن صحبة من « ساندفورد ومرتون »(٨٠) .

غير أنى فى الوقت الذى كتبت إليك فيه شعرت بأنه — باعتبار صالح كلينا — ربما كان حسنا ، ولائقاً ، وصواباً ، عدم قبول الرواية التى وضعها والدك سلفا معتمدا على مستشاريه فى سبيل إنشاء عالم مادى . وكان هذا ما حملنى على أن أسألك أن تعمل فكرك وتكتب شيئا أقرب إلى الحقيقة . فقد كان هـــذا أفضل لك ، على الأقل ، من الذى فى كتابات ركيكة تبعث بها إلى الصحف الفرنسية ، كاشفا عن حياة أبويك العائلية ! وإلا فماذا يهم الفرنسيين إذا كان والداك قد عاشا حياة

Twitter: @abdulllah1994

سعيدة أو لم يعيشا ؟ إن المرء لا يستطيع أن يتصور أن هناك موضوعا أقل أهمية بالنسبة إليهم . وإنما الذى يهمهم أن فنانا من طبقتى ، هو من أثّر على اتجاه الفكر الفرنسى بدرجة ملحوظة بواسطة المدرسة والحركة التى كان هو نفسه تجسدا لها ، قد استطاع باتباع تلك الحياة أن يأتى بذلك . لو كنت ارتأيت أن تضمن مقالك تلك الخطابات الفائقة الحصر التى حدثتك فيها عن الخراب الذى كنت تجره على حياتى ، وعن نوبات الغضب الجنونى التى كنت تسمح لها بأن تسيطر عليك لتؤذيك كما تؤذينى ، وعن رغبتى التى بلغت حد التصميم فى إنهاء صداقة كانت شؤما على فى كل الاتجاهات ، لكنت رأيت معنيً لذلك . ومع ذلك فإنى لم أكن لأسمح قط بنشر مثل تلك الخطابات . لقد أراد محامى والدك أن يضبطني فى موقف تناقض ، فقدم فجأة إلى المحكمة خطاباً بعثت به إليك فى مارس ٩٣ (٨١) ، ذكرت فيه أنى بدلا من التعرض لتلك المشاجرات المريعة التى كنت تعاود القيام بها بدافع من سرور فظيع ، كما كان يبدو ، أفضل « تقديم الاتاوة إلى كل مشهّر فى لندن »(٨٢). فكان أن شعرت بحزن عميق ، بعد أن رأيت هذا الجانب من صداقتنا يكشَف للنظرة العامة بصورة عرضية . غير أنى لم أتصور أن تكون هكذا بطىء الفهم ، قاصر الإحساس ، غبيّ الادراك ، فلا تفطن إلى الشىء النادر ، الرقيق ، الجميل ، بل تفكر فى نشر الخطابات التى كنت أحاول فيها أن أحتفظ بروح الحب حية ، لعلها تستوطن جسدى خلال السنوات الطويلة من إذلال هذا الجسد . والواقع أن هذا كان ولا يزال من أشد أسباب ألمى . إنه أنكى أنواع الخيبة . فلم فعلت ذلك ؟ أخشى أن أقول إنى أعلم ، بل وأعلم جيدا . فإذا كان البغض يعمى العيون فإن الغرور يخيط الجفون بأسلاك من حديد ! ولا عجب ، فقد كانت

Twitter: @abdulllah1994

« المقدرة العقلية التي بها ، وبها وحدها ، نستطيع أن نفهم الآخرين في علاقاتهم الواقعية والمثالية »[٨٣] آلة ثالمة فيك ، أثلمتها أنانيتك الضيقة وجعلها طول عدم الاستعمال عديمة الجدوى . لقد كانت مخيلتي من الغزارة في السجن بقدر ما كنت فيه ؛ أما أنت فقد أغلق الغرور عليك النوافذ ووقف عليها حارس يدعى البغض .

لقد حدث هذا كله في الشطر الأول من نوفمبر من العام الماضي . غير أن هناك نهراً من الحياة يجري بينك وبين تاريخ هكذا بعيد ! فمن النادر ، بل ربما كان من المحال ، أن تستطيع إرسال نظرة عبر صحراء في مثل ذلك الاتساع . وإنما يختلف الأمر بالنسبة إلي . فهو يبدو كما لو كان حدث ، لا أقول بالأمس بل اليوم . إن العذاب لحظة طويلة واحدة لا يمكن تقسيمها إلى فصول . وإنما نستطيع فقط أن نسجل نوباتها ، ونؤرخ تكرارها . والزمن لا يتقدم بالنسبة إلينا ، بل يدور . وهو يبدو كما لو كان يدور حول مركز الألم . إن الجمود الشل في لون من حياة وضع كل ظرف منها على نموذج لا يقبل التغيير : نأكل فيها ونشرب ، ونمشي ونضطجع ، ونصلي ، أو نركع على الأصح في صورة المصلين ، نفعل هذا كله تحت قوانين صلبة من قاعدة حديدية — حالة الجمود هذه التي تجعل من كل يوم مريع في أدق تفاصيله صورة من سابقه تبدو كأنما هي تصل نفسها بالقوى الخارجية التي يعفى جوهر وجودها في تغير مستمر . ونحن لا نعلم شيئاً لا عن وقت الزرع ولا عن وقت الجنى ، ولا عن الحصّاد إذ ينحنون فوق القمح ولا عن جامعي الأعناب إذ يتغلغلون وسط الكروم . ونحن لا نعلم شيئاً عن العشب في المروج إذ يصفر وقد تناثرت بينه زهور تحطمت ، أو تبعثرت فوقه ثمرات هوت . لا نعلم شيئاً من ذلك ، ولا نستطيع أن نعلم . فليس

Twitter: @abdulllah1994

لنا سوى فصل الأحزان . بل إن الشمس والقمر يبدوان كما لو كانا أخذا منا . ربما كان النهار في الخارج واضحا ، يجمع بين زرقة السماء ووضاءة الشمس ؛ غير أن الضوء الذي يزحف من خلال المنور الزجاجي المموه في كثافة من نافذة تغطيها قضبان من الحديد ، هي تلك التي نجلس تحتها — هذا الضوء يأتي قاتما مظلما . فالوقت دائما هو الغسق في الزنزانة ، وهو ظلمة منتصف الليل في القلب . وليس الحال في دائرة الفكر بأقل منه سوءا في دائرة الزمن . فالشيء الذي نسيته أنت منذ زمن طويل ، أو تستطيع بسهولة أن تنساه ، يحدث لي الآن ، وسيحدث ثانية غدا . تذكر هذا ، فتستطيع أن تدرك قليلا لم أكتب إليك ، ولم أكتب بهذا الأسلوب !

بعد مضي أسبوع [٨٤] أنقل إلى هذا المكان . وبعد مضي ثلاثة شهور أخرى تموت والدتي . وقد علمت أكثر من غيرك كيف أحببتها وكيف أعززتها . ومع أني كنت يوماً من أعلام البيان إلا أن موتها كان من الهول بحيث جعلني أعجز عن الوصول إلى كلمات تعبر عما شعرت به من ألم وخجل . بل انه لم يحدث ، حتى في أتم أيام تقدمي كفنان ، أن استطعت يوما العثور على كلمات تليق بحمل مثل هذا العبء المهيب ، أو تتحرك بما يكفي من موسيقى رائعة في المشهد الأرجواني للحزن الذي أطبق عليه قلبي . لقد أورثتني هي ووالدي اسماً استطاعا أن يكسباه نبلا وشرفا ، لا في الأدب والفن والآثار والعلوم وحسب ، بل أيضاً في التاريخ العام لوطني في تطوره كشعب . فكان أن لطخت شرف ذلك الاسم إلى الأبد . فقد جعلت منه مثلا سافلا بين أناس من السفلة ، وجررته إلى الوحل المحض ، فقدمته إلى وحوش ليسبغوا عليه من صفاتهم ، وإلى حمقى ليجعلوا منه مرادفا للحماقة . فلم يكن ما تألمت منه

Twitter: @abdulllah1994

حينئذ ، ولا أزال أتألم ، حاجتى إلى قلم لأكتب أو ورق لأسجل .

وكانت زوجتى فى ذلك الوقت رحيمة رفيقة ؛ فبدلا من أن تتركنى ألقى الخبر من شفتى جامد أو أجنبى جشمت نفسها عناء السفر ، بينما هى تعانى من المرض ، طوال الطريق من « جنوى » حتى انجلترا ، لتدلى إلى هى نفسها بنبأ تلك الخسارة التى لا تسترد ولا تعوض . ثم وصلت رسائل تحمل العطف من جميع أولئك الذين كانوا لا يزالون يشعرون لى بالمودة . بل إن أشخاصاً لم يعرفونى من قبل ، وقد سمعوا بما حل بحياتى المحطمة من هم جديد ، كتبوا هم كذلك طالبين التعبير لى عن أساهم . وكنت أنت الوحيد الذى تسامى عن ذلك ، فلم تبعث برسالة ولم تكتب خطابا ! أفضل ما يشار به إلى مثل هذا التصرف ما قاله « فرجيل » لـ « دانتى » عن أولئك الذين خلت حياتهم من الباعث النبيل وكانت ضحلة فى القصد :

« دعنا لا نتحدث إليهم ، بل لننظر ونمض ! »(85) .

ثم تمضى ثلاثة شهور أخرى ، فأدرك أن الوقت هو مايو ، يخبرنى بذلك التقويم المعلق إلى باب زنزانتى من الخارج ، يحمل اسمى ومدة الحكم ، ويشير إلى سلوكى وما أقوم به من عمل . ويأتى أصدقائى ثانية لرؤيتى ؛ فاسأل عنك ، كما أفعل دائما . ويخبرنى بعضهم أنك تقيم فى « الفيلا » الخاصة بك فى « نابولى » ، وأنك مهتم بإعداد ديوان من الشعر . وفى نهاية الجلسة يخبرنى أحدهم عرضاً أنك ستهدى إلى تلك الأشعار . فلم أقل شيئا بل عدت فى صمت إلى زنزانتى ، وقد امتلأ قلبى بالاشمئزاز والاحتقار . كيف حلمت بأن تهدى إلى ديوانا من الشعر قبل أن تحصل على موافقتى ؟ حلمت ! أهذا ما قلته ؟ كيف جرؤت على التفكير فى ذلك ؟ هل ستجيب بأنى فى أيام عظمتى وشهرتى وافقت على

Twitter: @abdulllah1994

أن نهدى إلى باكورة أعمالك ؟ لقد فعلت ذلك بلا ريب : تماماً كما كنت أقبل ولاء أى شاب آخر بدأ نشاطه فى مجال الأدب ، بما فى ذلك من صعوبة وجمال . فكل نوع من الولاء مما يسر الفنان . وإنما يتضاعف السرور إذا ما جاء الولاء من الشباب . إن أوراق الغار تذبل إذا ما اقتطفتها أيدى مسنة . والشباب فقط هو الذى له الحق فى تتويج الفنان هذه هى الميزة الحقيقية للشباب ، إذا استطاع أن يدركها . غير أن أيام الأذلال وسوء السمعة غير أيام العظمة والشهرة

إنك لا تزال فى حاجة إلى أن تدرك أن الرخاء ، والنجاح ، والسرور ، ربما كانت خشنة فى ذراتها ، حقيرة فى أليافها ؟ وأما الحزن فهو أشد الأشياء حساسية . فليس هناك شىء فى عالم الفكر والحركة بأكمله لا تتصل به ذبذبة من الحزن فى خفقان مريع ، إذا كان شديداً . إن الورقة البالغة الدقة المرتجفة ، المصنوعة من الذهب ، تلك التى تسجل اتجاه القوى التى لا تدركها العين ، تعتبر خشنة بالمقارنة(٨٦). فالحزن هو الجرح الذى ينضح كلما لمسته يد ، إلا يد الحب ؟ بل ويعود فينضح ، وإن لم يكن ذلك مدعاة للألم .

لقد استطعت أن تكتب إلى محافظ سجن « واند سورث » للحصول على تصريح منى بنشر خطاباتى فى « ميركير د فرانس » (المناظرة لصحيفتنا الإنجليزية فورتنايتلى ريفيو) ، فلم لم تكتب إلى محافظ سجن « ريدنج » للحصول على تصريح منى بإهداء أشعارك إلى ، مهما اخترته لها من وصف خيالى ؟ أكان الأمر فى حالة انك رأيت اننى منعت تلك المجلة من نشر خطابات تعلم جيداً أن حق نشرها يرجع إلى دون سواى ، وفى حالة أخرى انك اعتقدت انك مستطيع أن تستمتع بعنادك فى فرض

Twitter: @abdulllah1994

رأيك بغير علم منى حتى يفوت وقت تدخلى ؟ إن مجرد نظرة إلى حالق ، كرجل لحق به الشنار وحل به الخراب ودخل إلى السجن ، كانت كافية لك — إذا رغبت فى وضع اسمى على أولى صفحات كتابك — على التقدم إلىّ ملتمساً السماح لك بذلك كمعروف ، وكشرف ، وكامتياز . فهذا هو الطريق الذى يتخذه المرء ليقترب من أولئك الذين يشعرون بالهمّ ويجلسون فى العار .

حيثما يكون حزن ، تكون أرض مقدسة . وستدرك يوماً ما ينطوى عليه هذا القول من معنى . ولن تكون عرفت شيئاً من الحياة حتى تدركه . أما « روبى » ومن هم فى طبيعته فإنهم يستطيعون إدراكه : فحينما أحضرت بين جنديين من السجن إلى محكمة التفليسة كان ينتظر فى الممر الكئيب ؛ لكى يستطيع ، أمام جمهور تحمله الحركة اللطيفة البسيطة على أن يلوذ بالصمت ، أن يرفع قبعته فى حزن تحية لى ، بينما كنت أمر على مقربة منه ، مغلول اليدين محنى الرأس . لقد ذهب رجال إلى الفردوس بفعل أقل مغزى ! ففى مثل هذه الروح وبمثل هذا الأسلوب من الحب ، ركع القديسون لغسل قدمى الفقير ، وانحنوا لتقبيل الأبرص فوق وجنته . ولم أقل له كلمة قط عما فعل . ولست أعلم حتى هذه اللحظة ما إذا كان أدرك أنى حتى شعرت بفعله ! إن مثل هذا الفعل ليس مما يؤدى عليه الشكر رسمياً فى كلمات جوفاء ، بل هو مما يجب الاحتفاظ به بين ذخائر القلب ، وقد احتفظت به فى أعماق قلبي كدين خفى يسرنى أن أرى نفسى عاجزاً عن أدائه إلى الأبد ، وذلك بعد أن ضمخته بعطور استخلصته من دموعى الغزيرة . وعندما أصبحت الحكمة عديمة الجدوى ، وأضحت الفلسفة عقيمة المعنى ، وأمست أمثال المواسين كما لو كانت تراباً فى فمى — عندما عزفت النفس عن هذا

Twitter: @abdulllah1994

كله تفجرت ينابيع الشفقة نفعل ذكرى ذلك الفعل اليسير الذى جاء فى تواضع ؛ فإذا بصحراء أملى وقد ازدهرت كالوردة ، وإذا بى وقد خرجت من مرارة النفى الموحش إلى حلاوة التوافق مع القلب الكبير للعالم ، بما هو فيه من جراح وانكسار . وحينما تستطيع أن تدرك كيف كان فعل روبى جميلا ، ولم كان بالغ الأهمية بالنسبة إلى ، وسيبقى هكذا دائما ، فعندها ربما استطعت أن تدرك كيف وبأى أسلوب كان يجب أن تقترب منى للحصول على موافقة بإهدائى أشعارك .

غير أن من الصواب أن أذكر أننى لم أكن لأقبل هذا الإهداء بأى حال . ولو أنه ربما سرنى فى ظروف أخرى أن أكون مثلت ذلك . وما كان الرفض إلا لمصلحتك ، وذلك بصرف النظر عن مشاعرى الشخصية . ذلك لأن أول كتاب يخرجه إلى العالم شاب فى ربيع حياته يجب أن يأتى كزهرة جاءت مع الربيع : كتلك النوارة البيضاء فى مرج « مجدالن » أو « زهرة الحقل » فى وادى « كمبور » . فهو يجب ألا يخرج وقد ناء بعبء مأساة مريعة ثائرة ، بل فضيحة شنيعة مدمرة . ولو كنت سمحت بأن يؤدى اسمى مهمة البشير لكتابك لكان فى ذلك خطأ فنى جسيم كان كافياً لخلق جو سيء حول الموضوع كله . وهذا الجو يعمل له كل حساب فى عالم الفن الحديث .

إن الحياة الحديثة كما أنها معقدة فهى نسبية . هاتان هما علامتاها المميزتان . ولجعلها تكتسب الخاصية الأولى نحتاج إلى الجو ، بما فيه من حذق فى تنويع الألوان ، ودهاء فى الاستهواء ، وتحايل فى جعل المناظر تبدو غريبة ؛ أما فيما يختص بالثانية فإننا نحتاج إلى المنظر الخلفى للصورة . هذا هو السبب فى أن النحت قد توقف عن أن يكون فنا

Twitter: @abdulllah1994

مثلا ؛ بينما لا تزال الموسيقى تؤدى هذا الدور . أما الأدبَ فقد كان ، ولا يزال ، وسيكون دائما ، أسمى ممثل للفن .

إن كتابك الصغير كان يجب أن يأتى معه بروائح من صقلية واركاديا لا بدنس من قفص مجرم ، أو نفَس من زنزانة مدين . ولم يكن ذلك الإهداء الذى فكرت فيه خطأ فى الذوق الفنى وحسب ، بل كان غير ملائم من جميع وجهات النظر . فقد كان فيه دليل على التزامك ما كنت عليه من سلوك قبل القبض علىّ وبعده ؛ وكان فيه ما يحمل على الاعتقاد بأن الأمر ليس إلا محاولة لإظهار بطولة كاذبة : مَثلا من تلك الشجاعة الصورية التى تباع وتشترى بثمن بخس فى طرقات العار . وبقدر مايعنى الأمر صداقتنا فالظاهر أن إلهة النقمة « نمسيس Nemesis » قد حطمتنا معاً ، كما يحطم الذباب ! والواقع إن إهداء أشعار إلى بينما كنت فى السجن لم يكن إلا كسعى أخرق فى وقت تطلب الأمر فيه تصرفا جاداً . وهو من نوع تلك الإنجازات التى كنت تباهى بها علانية وتجد سرورا فى التبجح بها أيام أن كنت عاكفاً على كتابة خطاباتك المفزعة — تلك الأيام التى أرجو مخلصا ، لصالحك ، ألا تعود . ومثل ذلك السعى لم يكن ليأتى بالنتيجة الجدْية الحسنة التى أعتقد أنك كنت تهدف إليها . ولو كنت أخذت رأيى لنصحتك بأن تؤخر نشر أشعارك بعض الوقت ؛ أو تنشرها بغير توقيع فى البدء ، إذا لم يكن ذلك مرضياً . فإذا مارأيت أنك اكتسبت معجبين — أقصد من يستحقون الاكتساب — كان يمكنك أن تلتفت حولك وتهتف بالعالم قائلا : « إن هـذه الزهور التى أعجبتم بها مما زرعتُ ؛ وإنى أقدمها إلى من اعتبرتموه منبوذاً مطروداً ، دليلا على ما أحبه فيه وأقدره وأعجب به » . غير أنك اخترت الطريقة السيئة واللحظة السيئة . هناك حاسة فى الحب وحاسة فى الأدب . ولم يكن فيك شيء من هذا ولا من ذاك .

Twitter: @abdulllah1994

لقد أسهبت فى حديثى عن هذه النقطة ، لعلك تستطيع أن تدرك كل ما فيها من معانى ، فتفهم لم كتبت فوراً إلى « روبى » معبراً عما شعرت به نحوك من احتقار واشمئزاز(٨٧) ، ومعترضاً بصورة باتة على ذلك الإهداء ؛ وهو ما حملنى على تكليفه نسخ كتابى بعناية وإرسال صورته إليك . فقد شعرت بأن الوقت قد حان أخيراً لحملك على أن تتبصر ، وتميز ، وتدرك ، ولو قليلا مما فعلته . إن الغباوة قد تحمل هكذا بعيداً حتى تصبح شيئاً يدعو إلى السخرية ؛ كما أن الطبيعة القاصرة فى التصور ، إن لم يكن هناك باعث يوقظها ، قد تتحجر فتصير بلادة محضة . وفى هذه الحالة ، بينما يمضى الجسد على نهجه ، فيأكل ، ويشرب ، ويحصل على ما يبتغى من السرور ، تكون الروح ، وهى التى اتخذت منه بيتاً ، كما كانت روح « برانكا د أوريا » فى تصوير « دانتى » ، ميتة تماما(٨٨) . وإنما يبدو أن خطابى لم يستطع أن يسعفك . وبقدر ما استطعت أن أحكم كان وقعه عليك كالصاعقة .

فقد قلت فى ردك على « روبى » إنك « قد جردت من كل قوة للتفكير والتعبير » . وكما هو واضح ، فالواقع إنك لا تحسن التفكير فى شىء أكثر من الكتابة إلى أمك شاكيا . أما هى فإنها ، بالطبع ، تتعامى عن مصلحتك الحقيقية ، وهو الأمر الذى خلق لها سوء الحظ ، كما خلقه لك ؛ وتتفانى فى تهيئة جو لك من كل ما يخطر ببالها من وسائل التسرية ثم تمضى فى تهدئتك ، وهو ما أعتقده ، لتعود إلى وضعك بما فيه من تعاسة وفقدان قيمة . فإذا ما فتح باب الحديث عنى فإنها تخبر أصدقائى أنها « منزعجة جداً » بسبب قسوتى فيما أبديه من ملاحظات عليك . وهى لا تقصر الأمر على أصدقائى حينما تعبر عما ينتابها من شعور بالانزعاج بل تفعل ذلك أيضاً مع من ليسوا لى بأصدقاء ؛ وهم أكثر

Twitter: @abdulllah1994

عدداً ، كما تعلم . وقد علمت حالياً عن طريق أشخاص يميلون إليك وإلى ذويك أن قدراً كبيراً من العطف الذى اكتسبته بسبب ما تميزت به من عبقرية ، وما تحملته من آلام ، قد ضاع تدريجيا نتيجة لتصرف والدتك . فسيقول الناس : « آه ، لقد حاول فى البدء أن يضع الوالد الرحيم فى السجن فلما فشل التفت إلى الابن البرىء ليوسعه لوماً على فشله ! ... كم كنا محقين فى احتقاره ! كم هو جدير بالاحتقار ! » .

أوَ لم يكن من اللائق أن تلتزم والدتك الصمت إذا ما ذكر اسمى ، طالما كانت لا تستطيع أن تبدى كلمة حزن أو أسف — حتى لو كانت تافهة — بعد أن رأت ما حل بى من خراب ؟ أما عنك ، أفلا تعتقد أنه كان يجدر بك أن تكتب إلى مباشرة فى كل الأحوال بدلا من أن تهرع إليها شاكيا ؛ وأن تتذرع بالشجاعة لتقول ما كان لديك ، أو ما تصورت أنه لديك ؟ لقد مضى ما يقرب من عام منذ أن كتبت ذلك الخطاب . وليس من المعقول أن تكون بقيت طوال ذلك الوقت « مجرداً من كل قوة للتفكير والتعبير » ! فلم لم تكتب إلى ؟ لقد رأيت من خطابى إلى أى عمق جرحت ، وإلى أى مدى فضحت ، من جراء سلوكك كله ، أكثر من ذلك ، لقد رأيت صورة كاملة من صداقتك معى ، بعد أن وضعت أمامك فى ضوئها الحقيقى ، وبأسلوب لا يعتوره خطأ . وكنت فى الأيام الأولى أخبرك كثيراً أنك تدمر حياتى ، فكنت تضحك دائماً . وعندما رأى « ادوين ليفى »[٨٩] فى بدء صداقتنا أسلوبك فى دفعى لأتحمل صدماتك ومضايقاتك وتلك النفقات التى نجمت عن كارثتك المشئومة فى أكسفورد — إذاً كان لنا أن نعبر عنها هكذا — وهى التى لجأنا إليه بسببها طالبين منه النصح والعون ، فحذرنى طوال ساعة كاملة من مغبة معرفتك ، وعدت إلى « براكنل » لأقص عليك ما سمعت

Twitter: @abdulllah1994

وما انطبع فى تصورى ، مضيت تضحك ، وعندما أخبرتك كيف أن ذلك الشاب التعيس الذى وقف أخيراً بجانبي فى قفص الاتهام مضى هو نفسه يحذرنى أكثر من مرة من أنك أبعد شئوماً فى جلب الدمار الكامل على ، من أى واحد ، حتى من أولئك « الأولاد العموميين » الذين بلغت بى الغفلة حد التعرف إليهم ، مضيت تضحك ؛ وإن لم يكن فى ضحكك حينئذ معنى للهو . وعندما مضى أصدقائى الأكثر تعقلا يحذروننى ، ومضى غيرهم ممن كانوا أقل تعلقا يهملوننى ، بسبب صداقتى معك ، كنت تضحك فى ازدراء . وعندما كتب والدك إليك أول خطاب بذىء عنى ، فأخبرتك أننى أشعر بأننى سأصبح مجرد وسيلة فى نزاعكما المريع ، وسأتعرض للشر بينكما ، مضيت تضحك بإفراط . ومع ذلك فقد حدث كل شىء تماماً كما قلت أنه سيحدث ، وبقدر ما توقعت النتيجة . ولم يكن لك عذر فى عدم رؤية ماسارت عليه الأمور . فلم لم تكتب إلى ؟ أكان ذلك عن جبن ؟ أم عن قسوة ؟ أم عن شىء آخر ؟ إن ما حدث هو أننى فضحت معك ، ثم عبرت عن شعورى بهذه الفضيحة . وكان فى ذلك أقوى باعث على أن تكتب . فإذا كان فى خطابى إنصاف فقد وجب أن تكتب ؛ وإذا كان فيه ذرة من ظلم فقد وجب أيضاً أن تكتب . لقد لبثت أنتظر منك خطاباً . وكنت متأكداً من أنك سترى فى النهاية أنه ، إن كان الود القديم ، والحب البالغ الدلالة ، والألف فعل من الشفقة التى قوبلت بأسوأ جزاء ، والألف دين من الجميل التى بقيت بغير وفاء ، إن كان هذا كله ليس شيئاً فى اعتبارك ، فإن الواجب وحده ، بأشد صوره جفاء بين رجل وآخر ، هذا الواجب كان يقتضيك أن تكتب . إنك لا تستطيع أن تقول أنك اعتقدت أننى قصرت تسلم المكاتبات على ما كان يبعث به أعضاء عائلتى فى شئون عملية . فقد علمت أن « روبى » كان يكتب إلى كل ثلاثة شهور مجملا صغيراً بالأنباء الأدبية . ولم يكن

Twitter: @abdulllah1994

هناك ما هو أشد سحراً من خطاباته بما تضمنته من نكات ، ونقد ركز في براعة ، ولمسات خفيفة . فهي خطابات حقيقية ، وهي كشخص يتحدث إلى آخر . بل إن فيها خاصية الأسلوب الفرنسي في المحادثة الودية « Causerie intime » . وكان بأساليبه الرقيقة التي تدل على ما يكنه لي من احترام ، إذ كان يرجع مرة إلى رأيي وأخرى إلى حاستي من الانبساط وثالثة إلى غريزتي للجمال ، أو إلى ثقافتي ؛ ويذكرني بمختلف الأساليب بأنني كنت يوماً الحكم في أساليب الفن بين كثيرين ، والحكم الأعلى بين البعض — كان يظهر كم به من حاسة في الحب ومن حاسة في الأدب . لقد كانت خطاباته رسلا صغيرة بيني وبين ذلك العالم الخيالي الجميل للفن ، حيث كنت يوماً ملكا ، وكان من الممكن أن أبقى ملكا ، لو لم أترك الإغراء يجر نفسي إلى عالم ناقص ، قوامه الأهواء الخشنة ، والشهوات التي لا وضوح فيها ، والرغبات التي لا حد لها ، والجشع الذي لا شكل له . ومع ذلك ، فعندما يقال كل شيء فمن المؤكد أنك ربما استطعت أن تفهم ، أو تتصور كيفما كان ، أنه لو لم يكن هناك غير الأسباب العادية من الفضول النفسي فقد كان يهمني أن أسمع منك أكثر من أن أعلم أن « ألفرد أوستن » كان يحاول إخراج ديوان من الشعر[٩٠] ، أو أن « ستريت » كان يكتب فصولا من النقد المسرحي لصحيفة « الدايلي كرونيكل »[٩١] ، أو أن واحداً لا يستطيع أن يلقي كلمة ثناء بغير أن يتلعثم قد وقف ليعلن أن « مسز مينل » هي « سيبيل الجديدة » في الأسلوب[٩٢] .

آه ! فلو كنتَ في السجن — ولا أقول بسبب خطأ من جانبي ، إذ أن هذه الفكرة لا تحتمل — بل منك أنت ... غلطة منك أنت : إيمانا بمن لم يكن جديراً به ، أو انزلاقاً في حمأة الشهوات ، أو ثقة وضعت في غير موضعها ، أو حباً منح لغير أهله ، أو لا شيء من ذلك ، أو هذا

Twitter: @abdulllah1994

كله . فهل تعتقد أنني كنت أسمح لك بأن تأكل في قلبك بعيداً في الظلام والوحدة ، بغير أن أحاول بأي طريقة مهما كانت يسيرة أن أساعدك على تحمل العبء المرير من عارك ؟ أتعتقد أنني كنت أتركك بغير أن تعلم أنك إن كنت تتألم فإنني أتألم ، وإن كنت تبكي فإن الدموع تملأ عيني ، وإن كنت قد طُرحت في بيت الاستعباد ولقيت من الناس الاحتقار فإنني قد بنيت لنفسي بيتاً من صميم أحزاني لأقيم فيه حتى تخرج وأعددت لك كنزاً مما أنكره عليك الناس جميعاً ، لتجد فيه البرء من جميع ما ألم بك ، وتراه دائماً في زيادة مستمرة ؟ فإذا منعتني الضرورة المرة ، وهي لا تزال مرة معي ، أو الحيطة ، من أن أكون قريباً منك ، وسلبتني ما أشعر به من سرور بوجودك ، وإن ظهرت من وراء قضبان السجن ، وفي صورة من العار ، كتبت إليك في المناسبات ، وفي غير المناسبات ، برجاء أن تصل إليك ولو مجرد عبارة ، أو حتى كلمة واحدة ، أو حتى صدى متكسر من حبي . فإذا ما رفضت أن تتسلم مني خطاباً لم يقلل ذلك من همتي في مواصلة الكتابة ، وذلك لتعلم أنه مهما كان الأمر فإن هناك دائماً خطابات في انتظارك . لقد فعل كثيرون معي ذلك . فكل ثلاثة شهور يكتب إلى أناس ، أو يبدون رغبة في الكتابة . وقد حفظت خطاباتهم ومكاتباتهم ، لتسلم إليّ حال خروجي من السجن . إنني أعلم أنها هناك ، بل وأعلم أسماء من كتبوها ، كما أعلم أنها تمتلئ بالعطف والمودة والشفقة . وهذا يكفيني ، فلست أريد أن أعلم شيئاً أكثر . أما سكوتك فقد كان مريعاً . فهو لم يكن سكوتاً لأسابيع أو لشهور ، بل كان لسنين ... لسنين حتى لو قام بتقصيه من هم مثلك ممن يختطفون الحياة في سعادة ، ولا يكادون يشعرون بمرور الأيام إذ تتوالى من حولهم ، بينما تتقطع أنفاسهم من الجري في طلب المسرات !

Twitter: @abdulllah1994

إنه سكوت بغير عذر ، وبغير تلطف . لقد علمت أن لك قدمين من طين ومن هو أعلم بذلك مني ؟ فبينما كتبت بين خلاصات مبادئي أن الأقدام الطينية هي ببساطة التي جعلت من ذهب الصورة شيئاً ثميناً (٩٣) كنت أفكر فيك بالذات . غير أنها لم تكن صورة ذهبية بقدمين من طين تلك التي صنعتها من نفسك . فمن محض تراب الطريق العام الذي يتحول بفعل حوافر المخلوقات ذات القرون إلى وحل صنعتَ مثالك الكامل لكي أنظر إليه ! وعليه فمهما كانت رغبتي الخفية أصبح من المستحيل على أن أشعر نحوك إلا بالازدراء والاحتقار وباطراح جميع الأسباب الأخرى ، فإن عدم اهتمامك ، أو حكمتك الدنيوية ، أو جمودك ، أو حيطتك ، أو ما عن لك أن تتصوره ، كان أكثر مرارة لي بسبب الظروف العجيبة التي لابست سقوطي وأعقبته .

إن الآخرين من التعساء حينما يطرحون في غيابة السجن إذا ما حرموا من جمال الدنيا يكونون في أمن ، إلى درجة ما على الأقل ، من أشد الرميات وأفظع السهام . فهم يستطيعون التخفي في ظلمات زنزاناتهم ، وهم يستطيعون أن يصنعوا من صميم عارهم حالة تكون لهم بمثابة الملجأ أو القدس . ولما كان العالم قد أنفذ إرادته فيهم فإنه يذهب في سبيله ويتركهم ليعانوا من عذابهم في غير إزعاج . ولم تكن حالي هكذا . فقد توالت الأحزان واحداً بعد آخر ، ومضت تقرع باب السجن باحثة عني ؛ ففتحت لها الأبواب واسعة ، وسمح لها بالدخول . ولقد حدث نادراً ، إن كان قد حدث مطلقاً ، أن تحمل أصدقائي عناء رؤيتي ؛ أما أعدائي فقد تسنى لهم الوصول إلى دائماً . فقد حدث مرتين في ظهوري علانية أمام محكمة التفليسة ، كما حدث أيضاً مرتين في نقلي علانية من سجن إلى آخر ... حدث أن تعرضت لنظرة الناس وسخريتهم

Twitter: @abdulllah1994

فى ظروف بالغة المهانة . ولقد جاءنى رسول الموت بأنبائه ثم مضى فى طريقه . فكان على أن أحمل عبئاً لا يحتمل من التعاسة والندامة جاءت به ذكرى والدتى ، ولا يزال جاثماً على صدرى ، وقد فعلت ذلك وأنا فى وحدة تامة ، وفى عزلة عن كل ما يمنح العزاء ويوحى بالسلوى ، ولم يكد ذلك الجرح يجف — ولا أقول يبرأ — بمرور الزمن حتى جاءتنى من زوجتى خطابات قاسية مرة خشنة بعث بها محاميها ، فوجدت نفسى فيها أعير بالفقر وأهدد به . وكان هذا مما أستطيع احتماله ، بعد أن وطنت النفس على احتمال ما هو شر منه . ولكن أن يؤخذ منى ولداى بإجراء قانونى (٩٤) فقد كان هذا ، وسيكون دائما ، مصدر هم وألم لا نهاية له ، ومبعث أحزان لا تقف عند حد . بلى ، فإذا كان للقانون أن يقرر ، وأن يأخذ على عاتقه أن يقرر ، أننى لست جديراً بأن أكون مع ابنائى أنا نفسى ، فان هذا يكون شيئا مريعاً بالنسبة إلى . وليست فضيحة السجن شيئا بجانبه . والواقع أنى أغبط الرجال الآخرين ممن يرعون بجانبي فناء السجن . فلست فى شك من أن أطفالهم ينتظرونهم ، وأنهم يتطلعون إلى مجيئهم ، وأنهم سيكونون مصدر سعادة لهم .

إن الفقراء أعقل منا وأكرم ، وهم أكثر شفقة وأشد حساسية . فالسجن فى نظرهم ليس إلا مأساة فى حياة الإنسان ، مجرد سوء حظ ، أو حادث ، شيئاً ما يحرك العطف فى الآخرين . انهم يتحدثون عن ذلك الذى يعيش فى السجن كواحد وقع « فى متاعب » ... هكذا يقولون فى بساطة . وهى عبارة يستعملونها دائماً ، وهو تعبير ينطوى على حكمة صحيحة قوامها الحب . أما فى اعتبار من هم فى طبقتنا فإن الأمر يختلف . فالسجن فى نظرنا يجعل من المرء منبوذا . وعليه فأنا وأمثالى يكاد

Twitter: @abdulllah1994

لا يكون لنا حق فى الهواء والشمس ووجودنا يسمم مسرات الآخرين . ونحن لا نلقى ترحيباً كلما ظهرنا . وليس لنا أن نتطلع إلى أضواء القمر[٩٥]. أما أولادنا فانهم يؤخذون بعيداً عنا . وبذلك تنقطع صلاتنا العزيزة بالإنسانية . لقد حكم علينا بأن نكون منفردين ؛ بينما لا يزال أبناؤنا يعيشون . وهكذا حرمنا من الشىء الوحيد الذى قد يكون فيه إرواء لنا ومساعدة ، الشىء الوحيد الذى قد يحمل البلسم إلى القلب المرضوض ، ويدخل الاطمئنان إلى النفس التى تتألم .

وإلى هذا كله تضاف الواقعة الدقيقة المؤلمة ، وهى أنك بأفعالك وسكوتك ، بما فعلت وما تركت بغير فعل ، قد جعلت كل يوم من سجنى الطويل لايزال أكثر صعوبة لأعيش خلاله . انك بسلوكك قد غيرت من طعم خبز السجن ومائه، فقد جعلت الأول مراً فى فمى وجعلت الثانى ملحاً . وكان عليك أن تشاطرنى حزنى فإذا بك تضاعفه . وكان عليك أن تبحث عن وسيلة للتخفيف من ألمى فإذا بك تسرع به ليصبح عذاباً . غير إنى لا أشك فى أن ذلك لم يكن قصدك . بلى ، إنى أعلم أنك لم تقصد إلى ذلك . وإنما يرجع الأمر ببساطة إلى « ذلك القصور المشئوم فعلا فى خلقك : قصورك التام فى المخيلة[٩٦] » .

ونهاية هذا كله إنى قررت أن أصفح عنك . بلى ، يجب أن أفعل . فأنا لم أكتب هذا الخطاب لأزرع البغض فى قلبك ، بل لأزيل ما عاق منه بقلبى . وإنى إذ أصفح عنك إنما أفعل ذلك إكراماً لنفسى . فالمرء لا يستطيع أن يحتفظ بأفعى فى صدره لتعيش على عض جسده ؛ وهو لا يستطيع أن يهبّ كل ليلة ليزرع الأشواك فى حديقة نفسه . ولن يكون من العسير على قط أن أفعل ذلك إذا ساعدتنى قليلا . لقد كنت فى الأيام الأولى أغفر لك عن طيب خاطر كل ما تفعله معى مهما كان .

Twitter: @abdulllah1994

غير أن هذا لم يفدك شيئاً . وذلك لأن من يستطيع أن يغتفر الخطايا هو فقط ذلك الذى لم تلطخ حياته بشائبة . أما الآن ، وقد أصبحت أجلس فى مهانة وعار ، فان الأمر يختلف . فهذا التسامح من جانبى يعنى الآن شيئاً عظيما بالنسبة إليك . وهو أمر ستدركه يوما . ومع ذلك فسواء أدركته قريباً أو بعيداً ، سريعاً أو لم تدركه بتاتاً ، فإن طريقى واضح أمامى . فأنا لا أستطيع أن أتركك تمضى فى الحياة بينما أنت تحمل فى صدرك هذا العبء ، وهو أنك حطمت حياة رجل مثلى . فهذه الفكرة قد تجعل منك شخصاً غير مبال فى صلابة ، أو قد تحولك إلى شخص مكتئب بصورة وبيلة . ولذلك يجب أن أرفع هذا العبء عن كاهلك لأضعه على عاتقى أنا نفسى .

يجب أن أقول لنفسى إنه لم يكن فى استطاعتك ، ولا فى استطاعة أبيك ، بل ولا فى استطاعة آلاف من أمثالكما ، إيقاع أى دمار بى ، بل كنت أنا الذى دمرت نفسى . فليس هناك شخص ، عظيما أو حقيراً ، يمكن أن يدمَّر ، مالم يحدث ذلك بيديه هو نفسه . إنى على أتم استعداد لفعل ذلك . إنى أحاول أن أفعله ، وإن كنت قد لا تفكر فى ذلك فى هذا الوقت . فاذا كنت قد وجهت إليك هذا الاتهام القاسى ، فيجب أن تفكر فى الاتهام الذى أوجهه إلى نفسى بغير شفقة . وحقاً إن مافعلته معى كان فظيعاً ، غير أن ما فعلته أنا مع نفسى كان أشد فظاعة .

لقد كنت رجلا قام فى علاقات رمزية تتجه إلى فن عصرى وثقافته. ولقد أدركت ذلك فى فجر حياتى، وحملت عصرى على إدراكه بعد ذلك. وقليل من الرجال يتمسكون بمثل هذا المركز أثناء حياتهم ويحملون غيرهم على الاعتراف به . فمثل هذا الأمر ، إن حدث التفات إليه ، لا يلتفت إليه إلا المؤرخون أو النقاد . وهم لا يفعلون ذلك إلا بعد مضى زمن على

Twitter: @abdulllah1994

الرجل وعصره وقد اختلف الأمر معى . فقد شعرت به أنا نفسى ، وجعلت الآخرين يشعرون به . لقد كان « بيرون » شخصية رمزية . غير إن علاقاته كانت تتجه إلى انفعال عصره ، وما أصابه من ملل من ذلك الانفعال . أما علاقاتى فـكانت تتجه إلى شىء أكثر نبلا وأكثر دواماً ، وأعظم حيوية فى انتشاره وأبعد مدى فى مجاله .

لقد منحتنى الآلهة كل شىء تقريباً . فقد وهبت نبوغاً ، واسماً مميزاً ، ومركزاً إجتماعياً عالياً ، وتألقاً ، وجرأة عقلية . وقد استطعت أن أجعل من الفن فلسفة ومن الفلسفة فناً ؛ كما استطعت أن أغير من عقول الناس ومن ألوان الأشياء . ولم يحدث أن قلت أو فعلت شيئاً لم يثر الدهشة . لقد تناولت الرواية التمثيلية ، وهى أعظم الأشكال الوضوعية التى عرفها الفن ، فجعلت منها أسلوباً للتعبير الشخصى ، كالقصيدة الغنائية والقصيدة القصيرة ، وفى نفس الوقت وسعت مداها وأشبعت عناصرها المميزة وقد نظرت إلى التمثيلية ، والقصة ، والقصيدة الموزونة ، والقصيدة المنثورة ، والحوار بنوعيه الاحتيالى والخيالى ، فـكان كل ما لمسته من هذا كله جميلا ؛ فقد استطعت أن أخرجه فى أسلوب جديد من الجمال . بل إنى أضفت إلى الحقيقة نفسها مما هو ليس بحقيقى مالا يقل عن الحقيقى ، كشىء فى وضعه الصحيح ، فأظهرت أن غير الحقيقى والحقيقى ليسا إلا صورتين من الوجود الذهنى . لقد عالجت الفن باعتباره الحقيقة الأسمى ، أما الحياة فقد نظرت إليها على أنها حالة من الوهم لا أكثر . وقد أيقظت مخيلة جيلى فخلق من حوالى الخرافات ونسج الأساطير . ولخصت كل الأساليب فى عبارة ، وأجملت كل الوجود فى مثل .

وإنما كان بجانب هذا كله أشياء تختلف . فقد تركت الاغراء يدفع

Twitter: @abdulllah1994

نفسى إلى نوبات طويلة من الراحة التى انعدم فيها الحس وطغت عليها الشهوة ، وألهيت نفسى بأن جعلت منى لـكأة : شخصاً متأنق الزى ، ورجلا يعنيه آخر زى . ثم أحطت نفسى بأحقر الطبائع وأحط العقول . وهكذا أصبحت مبذرا لنبوغي، وكان تبديد شبابى الخالد يشعرنى بسرور غريب . وإذ أصابنى السأم من وجودى فى القمة فقد انحدرت عمداً إلى الأعماق ، بحثا عن إثارات جديدة . وأصبح الشذوذ لى فى مجال الانفعال ما كان التناقض لى فى مجال الفـكر . فأمست الرغبة فى النهاية مرضاً . أو جنوناً ، أو هُما معاً . لقد بت غير مبال بحياة الآخرين ، ومضيت أقتطف السرور كلما طاب لى ثم أسير فى طريقى . وقد نسيت أن كل فعل طفيف من اليوم العادى يصنع الخلق أو لا يصنعه . وعلى هذا ، فما يفعله المرء فى الغرفة المغلقة سيعلنه يوما من فوق سطح المنزل . لقد توقفت عن أن أكون سيداً لنفسى ، ولم أعد موجها لعقلى ، بل ولم أعد أعرف ما هو هـذا العقل . فقد سمحت لك بأن تسيطر علىّ ، وسمحت لوالدك بأن يرعبنى ، ثم انتهيت إلى عار مريع . لم يعد لى الآن غير شىء واحد ، وهو الاتضاع التام . وكذلك لم يعد لك الآن غير شىء واحد ، وهو الاتضاع التام . فالأفضل لك إذن أن تأتى فتهبط إلى التراب لتتعلم ذلك بجانبى !

لقد انطرحت فى السجن ما يقرب من عامين . تخرج من طبيعتى يأس قاتل ، واستسلام للهم كان يثير الرثاء ، وغضب فظيع واهن ، ومرارة واحتقار ، وعذاب كان يصرخ باكيا ، وتعاسة افتقرت إلى التعبير ، وحزن ضرب عليه البكم . وقد مررت بكل حالة ممكنة من الألم . وأدركت ما عناه « وردسورث » أكثر مما أدركه هو نفسه حينما قال :

Twitter: @abdulllah1994

الألم دائم ، وهو غامض ، ومظلم ،
وإن فيه طبيعة الأبدية (٩٧)

ولكن ، بينما كنت أحيانا أبتهج إذا ما ذكرت أن آلامي ستمضي بغير نهاية ، لم أكن أحتمل أن تكون هذه الآلام بغير معنى . أما الآن فإنني أحس شيئاً مختفياً في أغوار طبيعتي يخبرني أن شيئاً ما في هذا العالم لا يمكن أن يكون بغير معنى ؛ وأن الألم ليس بأتفه الأشياء في ذلك . وهذا الشيء الذي يختفي في أغوار طبيعتي ، كما يختفي الكنز في حقل ، هو الاتضاع .

انه آخر شيء بقي لي ، وهو أحسن الأشياء ؛ فهو الكشف النهائي الذي وصلت إليه : نقطة البدء لتقدم جديد . لقد جاءني مباشرة من نفسي ؛ وعلمت أنه قد جاء في الوقت المناسب . فلم يكن من الممكن أن يأتي متقدماً أو متأخراً . ولو حدث أن أحداً أخبرني به لكنت نبذته ؛ ولو حدث أن جيء به إلي لكنت رفضته . أما وقد وجدته أنا نفسي فإنني أريد أن أحتفظ به ، ويجب أن أفعل . انه الشيء الوحيد الذي اجتمعت فيه عناصر الحياة ، حياة جديدة بالنسبة إليّ . ومن بين الأشياء جميعاً فهو أشدها غرابة . فالمرء لا يستطيع أن يلقيه جانباً . وليس في مقدور واحد أن يمنحه للآخر . ولا يستطيع أحد أن يحصل عليه مالم يكن قد تنازل عن كل شيء . ولا يستطيع المرء أن يدرك أنه حصل عليه إلا حينما يفقد كل شيء .

أما وقد أدركت الآن انه في كياني فإنني أرى بمنتهى الوضوح ماذا أستطيع أن أفعل : ماذا يجب أن أفعل ، في الحقيقة . ولست في حاجة إلى أن أخبرك إنني لا ألمح هنا إلى أي تصديق أو أمر خارجي . فأنا لا أعترف بشيء من ذلك . والواقع إنني لم أكن أكثر امعاناً في فرديتي

Twitter: @abdulllah1994

في أي وقت مضى وليس هناك ، في نظري ، شيء له أدنى قيمة ما لم يحصل عليه المرء في ذاته . إن طبيعتي تبحث عن حالة جديدة من إدراك الذات . وهذا كل ما يهمني . وإنما رأيت أن أول ما يجب علي فعله أن أحرر شعوري مما قد يكون سيطر عليه من بغض لك .

إنني مفلس تماماً . كما أنني بلا مأوى . غير أن في العالم أشياء أسوأ من ذلك . وإني أبرئ نفسي في منتهى الصراحة حينما أقول لك إنني حال خروجي من هذا السجن بدلا من أن أخرج وأنا أحمل البغض في قلبي لك وللناس ، أفضل بسرور ، وفي غير حرج ، أن أستجدي خبزي من باب إلى آخر . فإذا لم أحصل على شيء من بيت الغني فربما حصلت عليه من بيت الفقير . فأولئك الذين يملكون كثيرا طماعون غالبا ، أما الذين يملكون قليلا فإنهم يشاركون دائماً . إنني لن أبالي أن أنام صيفاً في العشب البارد ، فاذا حل الشتاء آويت إلى سقيفة من القش أو تحت جناح من مخزن خرب ، بشرط أن يكون قلبي عامراً بالحب . ومن هذا تستطيع أن ترى إلى أي حد من الفردية وصلت ، أو انني في سبيل الوصول . فالرحلة طويلة و « كلما مشيت كان هناك أشواك »(٩٨) .

ومع ذلك فاني أعلم أن الاستجداء في الطريق العام ليس مما كتب علي . ولو حدث أن اضطجعت ليلا في العشب البارد فلن يكون ذلك إلا لكتابة قصائد للقمر ! فلا شك أن « روبي » سيكون في انتظاري من وراء الباب الكبير المصفح عندما أخرج من السجن . فهو رمز المودة , لا عن نفسه وحسب بل عن كثيرين بجانبه . وإني أعتقد أنه سيكون لدي ما يكفي لأعيش بعد خروجي ثمانية عشر شهراً كيفما كان الأمر . فاذا لم يتح لي أن أكتب كتباً جميلة فانني — على الأقل — سأقرأ كتباً جميلة . فأي سرور أعظم من ذلك ! ثم أرجو بعد ذلك أن

Twitter: @abdulllah1994

أكون قادراً على إنعاش مقدرتي الخلاقة . ومع ذلك فحق لو جاءت الأمور على غير ما أتوقع ، فلم أجد صديقاً واحداً بقى لى فى العالم ، ولم أجد واحداً فتح لى بابه ، ولو بدافع الشفقة ؛ ورأيت نفسى مضطراً إلى ارتداء العباءة المرقعة بحكم الفاقه ، فإنى ، طالما كنت متحرراً من الغل والصلف والاحتقار ، سأكون أكثر قدرة فى مواجهة الحياة مما لو كان جسدى قد لف بالسندس والاستبرق بينما النفس فى داخله تضطرب بالبغض . وبالطبع لن أجد صعوبة فى الصفح عنك ولكن لكى تجعل ذلك ساراً بالنسبة إلىّ يجب أن تشعر بأنك فى حاجة إلى الصفح . فحينما تريد ذلك فعلا ، ستجده فى انتظارك .

لست فى حاجة إلى أن أقول إن واجبى لا ينتهى هنا . ولو كان الأمر كذلك لكان أكثر سهولة . وإنما لا يزال أمامى تلال أكثر انحداراً لأتسلقها ، ووديان أشد ظلاماً لاخترقها . وأنا وحدى الذى يجب أن أقوم بذلك بدافع من نفسى . فلا الدين ولا الأخلاق ولا الرشد يستطيع أن يساعدنى .

إن الأخلاق لا تساعدنى . فقد ولدت مناقضاً للمبادىء : واحداً من أولئك الذين جعلوا لا للقوانين بل للاستثناءات . ولكن ، بينما أرى أنه ليس هناك خطأ فيما يفعله المرء أرى أن هناك خطأ فيما يصير إليه . فياليتك قد أدركت ذلك .

والدين لا يساعدنى . فالإيمان الذى يتجه به الآخرون نحو مالا يُرى أتجه به أنا نحو ما أستطيع أن ألمسه وأنظر إليه . إن آلهتى تقيم فى معابد صنعتها يدى ، وفى دائرة التجربة العملية صنعتُ عقيدتى صحيحة كاملة ، بل ربما تجاوزت الحد فى كمالها ؛ وذلك لأننى ، كأكثر أولئك الذين أقاموا فردوسهم فى هذه الأرض ، أو كلهم ، قد وجدت فيها لا جمال

Twitter: @abdulllah1994

النعيم وحسب بل رعب الجحيم أيضاً . وحينما أفكر في الدين قط أشعر كما لو كنت أريد أن أؤسس مذهباً لأولئك الذين لا يستطيعون الاعتقاد؛ وهو ما يمكن أن يسمى بأخوّة يتامى السماء ، حيث يقوم بمراسيمه كاهن لم يعرف السلام طريقه إلى قلبه ، بخبز لم يبارك وكأس خلت من النبيذ فوق مذبح لا تقوم فوقه شمعة تضيء . كل شيء صحيح يجب أن يكون عقيدة . بل إن عدم الاعتقاد يجب أن تكون له شعائره بما لا يقل عما للاعتقاد . فقد زرع شهداءه فيجب أن يحصد قدّيسيه ، وأن يمجد الله كل يوم لاختفائه عن الإنسان. ولكن سواء كان الأمر اعتقاداً أو عدم اعتقاد فيما يتعلق بي فيجب ألا يكون هناك عوامل خارجية . فرموزه يجب أن تكون من خلق أنا ، وليس هناك ما يستطيع أن يشكلها إلا الجانب الروحي . فإذا كنت لا أجد سره في ذاتي أنا نفسي فإنني لن أستطيع قط أن أجده ؛ وإذا كنت لم أحصل عليه من قبل فانه لن يأتي إليّ قط .

والرشد لا يساعدني . فهو يخبرني أن القوانين التي أدنت بموجبها خاطئة وغير عادلة ، وأن النظام الذي تألمت بحكمه خاطيء وغير عادل . غير أنني استطعت بطريقة ما أن أجعل كلا من هذين الأمرين صحيحاً وعادلاً في نظري . وكما أن المرء في الفن يهتم فقط بما يكون عليه شيء معين في لحظة معينة بالنسبة إليه ، كذلك يكون الحال في التطور العقلي لخلق الشخص . لقد قررت أن أجعل كل شيء حدث لي طيباً بالنسبة إلى : السرير العاري والطعام المنفّر ، والحبال القاسية التي كنا نفتتها حتى تدمى منا الأصابع ، والخدمات الحقيرة التي كنا نؤديها من صباح اليوم إلى مسائه ، والأوامر الخشنة التي يفرضها « الروتين » كما يبدو ، والملابس المخيفة التي تجعل من الحزن شيئاً مضحكا إذا وقع عليها النظر ،

Twitter: @abdulllah1994

والسكون ، والوحدة ، والخزى — كل شيء من هذا يجب أن أحوله إلى تجربة روحية ، بل يجب أن أحوله كله إلى هذه التجربة . وليس هناك نوع من انحطاط الجسد لا يجب أن أحاول فيه وأصنع منه كيفاً روحياً تتشربه نفسى .

أريد أن أصل إلى النقطة حيث أستطيع أن أقول ، بكل بساطة وبغير تكلف ، إن نقطتى التحول العظيمتين فى حياتى كانتا حينما أرسلنى والدى إلى اكسفورد وحينما أرسلنى المجتمع إلى السجن . لن أقول إن ذلك كان أحسن ما يمكن أن يحدث لى ؛ إذ أن هذه العبارة قد تحمل طعماً بالغ المرارة بالنسبة إلى . ولكننى قد أسرع فأقول ، أو أسمع من يقول عنى ، إننى كنت طفلا مثالياً بالنسبة إلى سنى . فقد استطعت فى شذوذى ، أو لغرض هذا الشذوذ ، أن أحول الأشياء الحسنة فى حياتى إلى سيئة والأشياء السيئة إلى حسنة . على كل حال إن ما قيل ، سواء منى أو من غيرى ، لايهم كثيراً . فالشيء المهم الذى يقوم أمامى ، الشيء الذى يجب أن أفعله ، وإلا كنت عاطلا أو مشوهاً أو ناقصاً ، هذا الشيء هو أن أتشرب فى طبيعتى كل ذلك الذى حدث لى ، وأن أجعل منه جزءاً منى ، وأقبله بغير شكوى ولا خوف ولا تردد . إن الضحالة أعظم الرذائل ، أما ما أدرك فهو صحيح مهما كان .

فى بدء حياتى فى السجن نصحنى البعض بأن أحاول أن أنسى شخصيتى فكان فى ذلك بئس النصيحة . وذلك لأنى بادراك من أكون فقط استطعت أن أجد تسلية من أى نوع . والآن تلقيت نصحاً من آخرين بأن أحاول وقت خروجى أن أنسى أنى كنت فى السجن قط . إنى أعلم أن ذلك سيكون سيئاً بالمثل . إنه يعنى انى سأكون دائماً موطن شعور لا يحتمل من العار . وأن تلك الأشياء التى لايقل اهتمامى بها عن غيرى ،

Twitter: @abdulllah1994

أي جمال الشمس والقمر ، ومناظر الفصول ، وموسيقى انبلاج النهار ، وسكون الليالي الطوال ، والمطر إذ يسقط فوق الأوراق ، والندى إذ يزحف فوق الأعشاب فيكسوها فضة — كل هذه الأشياء ستكون ملطخة بالنسبة إلى ، وتفقد قوتها في الإبراء ، وتعدم سحرها في توصيل السرور . إن من ينبذ تجاربه إنما يوقف تقدمه . إن من ينكر تجاربه إنما يضع كذبة بين شفتي حياته . إن إنكار المرء تجاربه ليس بأقل من إنكاره لذاته . فكما يتشرب الجسد أشياء عادية وغير نقية بجانب تلك التي يطهرها الكاهن وتنقيها القراءة الدينية ، ليتحول هذا كله إلى قوة أو خفة تتبدى في حركة العضلات المتناسقة ورشاقة البشرة المتألقة ، وتموّج الشعر وتلونه ، وما تنطق به الشفاه وما تنم عنه العيون، كذلك تفعل النفس بدورها ، إذ أن لها هي الأخرى وظائفها في استمداد قوتها . فهي تستطيع أن تحول ما يكون فيها سافلا ، قاسياً ، مؤدياً إلى الانحطاط ، إلى أمزجة من الفكر النبيل ، وعواطف تنطوي على المعنى الجليل . بل أكثر من ذلك إنها قد تجد في هذه الأشياء نفسها أسمى حالات إثبات وجودها ، وتستطيع غالباً أن تكشف عن ذاتها في أكمل صورة بما قصد به تدنيسها وتحطيمها .

يجب أن أقبل هذه الحقيقة في صراحة ، وهي إنني كنت واحداً من نزلاء سجن عام . بل ربما أدهشك أنني جعلتها بين الأشياء التي يجب أن أتعلمها بغير خجل . بلى ، يجب أن أقبلها كنوع من العقاب . وإذا كان المرء أن يخجل من أن يكون عوقب فقد كان يجب ألا يكون عوقب قط . هناك بالطبع أشياء كثيرة أدنت بها وان كنت لم أفعلها . ولكن هناك أيضاً أشياء كثيرة فعلتها مما أدنت به . ثم إن هناك عدداً أكبر من الأشياء فعلته في حياتي ولم أدن به قط . وفيما يتصل بما قلته في

Twitter: @abdulllah1994

هذا الخطاب ، وهو أن الآلهة تبدو غريبة التصرف ، إذ أنها تعاقبنا على ما هو فينا من خـير وإنسانى بقدر ما تعاقبنا على ما هو فينا من شر وانحراف ، أقول إننى يجب أن أقبل هذا الواقع ، وهو أن الإنسان يعاقب على ما يفعله من خير كما يعاقب على ما يفعله من شر . وليس لدى شك فى أن هذا وضع صحيح بالنسبة إلى كل الناس . فهو يساعد المرء ، أو ربما ساعده مستقبلا ، على إدراك الأمرين . فلا يذهب بعيداً فى انخداعه فى أيهما ، فإذا تسنى لى حينئذ ألا أشعر بشىء من الخجل مما حل بى من عقاب، وهو ما أرجوه ، فإننى سأكون قادراً على أن أفـكر وأمشى ، وأعيش فى حرية .

إن كثيراً من الناس حينما يغادرون السجن يحملونه معهم فى الهواء ويخفونه فى صدورهم كعار لا يجب إظهاره . ثم يفعلون أخيراً ما تفعله الأشياء المسمومة الحقيرة ، فيزحفون إلى بعض الجحور ويموتون هناك . إن من التعاسة أن يوجبوا على أنفسهم ذلك . ومن الخطأ ، بل من أشنع أنواعه ، أن يحملهم المجتمع على فعله . إن المجتمع يجعل لنفسه حق توقيع العقاب المفزع بالفرد ؛ غير أنه أيضاً مصاب بأعظم الرذائل ، وهو الضحالة . فهو يعجز عن إدراك مغبة فعله ، إذ حينما ينتهى عقاب الشخص يتركه لنفسه ؛ أى أنه يهجره فى اللحظة التى يجب عليه فيها أن يبدأ أهم واجباته نحوه . إنه فى الواقع يشعر بالخجل من أفعاله هو نفسه ، فيتجنب أولئك الذين عاقبهم كما يتجنب الناس دائناً لا يستطيعون الوفاء بدينه ، أو شخصا أوقعوا به خطأ لا يمكن تداركه : إننى أطالب من جانبى بأنه إذا كنت قد أدركت ما قاسيته فإن المجتمع يجب أن يدرك ما أوقعه بى ، وألا يكون هناك مرارة ولا بغض من جانب نحو الآخر .

إننى أعلم بالطبع أن الأمور من وجهة نظر واحدة ستكون أشد

Twitter: @abdulllah1994

صعوبة بالنسبة إلى . بل انها فى الحقيقة يجب أن تكون كذلك بطبيعة الحال . فالبؤساء من اللصوص والمنبوذين الذين سجنوا هنا معى أسعد منى حظاً من نواحى عديدة . وذلك لأن الطريق الضيق الذى شاهد خطيئتهم فى المدينة القاتمة أو الحقل الأخضر ليس طويلا. فهم لا يحتاجون إلى الذهاب أبعد مما يقطعه طائر من وقت الشفق حتى طلوع الفجر ليكونوا بين من لا يعرفون شيئاً عما فعلوه . أما بالنسبة إلى فان « العالم قد انكمش إلى عرض الكف »(٩٩) ، وحيثما انقلب فإن اسمى يبدو مكتوباً على الصخور بمداد من رصاص . وذلك لأننى قد جئت لا من ظلمة سوء السمعة العارض فى جريمة بل من ضرب من الشهرة الخالدة إلى ضرب من الفضيحة الخالدة ! وأنه يبدو لى أحياناً أننى أظهرت ما كان حقا يتطلب الإظهار ، وهو أن الفرق بين الذائع الصيت والسيء السمعة لا يعدو خطوة ، إذا كان حقاً بمثل هذا القدر من الاتساع .

ومع ذلك ، فمن هذه الحقيقة نفسها ، وهى أن الناس سيميزوننى أينما ذهبت ، ويعرفون كل شيء عن حياتى على طول ما تترامى إليه حماقاتى ، أستطيع أن أدرك شيئاً طيباً بالنسبة إلىّ . فهذا سيفرض علىّ ضرورة إثبات وجودى ثانية كفنان ، وبأسرع ما أستطيع . فإذا استطعت أن أخرج ولو عملا جميلا واحداً من الفن بجانب ما أخرجت فإننى سأكون قادراً على أن أنزع من الضغينة سمّها وأجرد الجبن من سخريته وأقتطع لسان الاحتقار من أصله. فإذا كانت الحياة مشكلة لى ، وهى كذلك وبالتأكيد ، فلن أكون أقل من ذلك لها . إن الناس يجب أن يتخذوا حيالى موقفا ما، وبهذا يستطيعون إصدار حكمهم على أنفسهم وعلى . لست فى حاجة إلى القول بأنى لا أتكلم هنا عن أفراد معينين . إن من يهمنى الآن أن أكون بينهم هم فقط الفنانون وغيرهم ممن تعذبوا:

Twitter: @abdulllah1994

أولئك الذين يعلمون ماهو الجمال ، وأولئك الذين يعلمون ما هو الحزن . ولم يعد هناك غير هؤلاء من يهمنى. كذلك لا أريد أن أفرض لى مطالب على الحياة . ففى كل ذلك الذى ذكرته ينحصر اهتمامى ببساطة فى وضعى العقلى تجاه الحياة كاملة . وإنى أشعر بأن عدم خجلى من أنى عوقبت من النقاط الأولى التى يجب أن أحصل عليها ، بقصد وصولى إلى الكمال، إذ إنى لا أزال بعيداً عنه .

يجب بعد ذلك أن أتعلم كيف أكون سعيداً . لقد حدث مرة أن تعلمت ذلك بالغريزة ، أو حسبت أنى تعلمته . كان هناك ربيع دائم فى قلبى ، وكانت حرارتى تتجانس مع السرور ؛ فقد ملأت حياتى بألوانه إلى الحافة ، كما تمتلىء الكأس بالنبيذ إلى الحافة . أما الآن فإنى أقترب من الحياة من نقطة وقوف جديدة تماماً ؛ وقد أصبحت أجد صعوبة شديدة حتى فى تصور السعادة . إنى أذكر يوم أن كنت فى الدور الأول من دراستى فى اكسفورد ، إذ كنت أقرأ فى كتاب « باتر Pater » عن « النهضة Renaissance »(١٠٠) — ذلك الكتاب الذى كان له تأثير غريب على حياتى — فرأيت كيف يضع « دانتى Dante » فى أعماق الجحيم أولئك الذين يعيشون عن قصد فى الحزن ، وقد ذهبت يومها إلى مكتبة الكلية ، ورجعت إلى « الكوميديا المقدسة Divine Comedy » حيث وقعت على الفقرة التى جاء فيها أنه يرتمى تحت المستنقع الموحش أولئك الذين كانوا « عابسين فى الجو اللطيف » ، يقولون دائماً فى تنهداتهم :

حزانى كنا مرة

فى الجو اللطيف الذى جعلته الشمس ساراً(١٠١)

لقد علمت أن الكنيسة أدانت « اكسيديا Accidia » ؛ غير أن

Twitter: @abdulllah1994

الفكرة برمتها تبدو لى خيالية ، تماماً كذلك النوع من الخطيئة — كما أتصور — الذى يستطيع أن يخترعه كاهن لم يعرف شيئاً عن حقيقة الحياة . كذلك لم أستطع أن أفهم كيف استطاع دانق ، وهو الذى يقول « إن الحزن يزوّجنا ثانية من الله »(١٠٢) ، أن يكون هكذا خشنا مع أولئك الذين عشقوا الكآبة ، إذا كان هناك حقاً شيء من ذلك . ولم يكن لدى فكرة بأن هذا الأمر سيصبح يوماً من أعظم وسائل الإغراء فى حياتى .

حينما كنت فى سجن « واند سورث » كنت تواقا إلى الموت . فقد كانت تلك رغبتى الوحيدة . وحينما نقلت إلى هنا بعد بقائى شهرين فى المصحة ، ورأيت صحتى تتقدم باطراد ، ملأنى الغضب؛ فعزمت على الانتحار فى نفس اليوم الذى أغادر فيه السجن . غير أن هذه الفكرة السيئة تلاشت بعد حين ، فصممت على أن أعيش ، ولكن لأرتدى ثوب الكآبة ، كما يرتدى الملك ثوبه الارجوانى ، فقد عزمت على الا أبتسم ثانية قط ، وأن أحول أى بيت دخلته إلى مأتم ، وأن أجعل أصدقائى يسيرون معى ببطء فى جو من الحزن، وأن أعلمهم أن الكآبة هى السر الحقيقى للحياة ، وأن أشلهم بحزن غريب عنهم ، وأن أشوّههم بما أشعر به من آلام . غير إننى أشعر الآن بخلاف ذلك كله . فأرى أنه سيكون من الجحود وعدم الشفقة أن أبدو هكذا بوجه متجهم ، حتى إذا جاء أصدقائى لرؤيتى كان عليهم أن يجعلوا وجوههم أكثر تجهماً لكى يظهروا عطفهم . أو ، إذا رغبت فى اكرام وفادتهم ، أن أدعوهم إلى الجلوس فى صمت إلى مائدة من الأعشاب المرة واللحم الذى نضج بنار المآتم . يجب أن أتعلم كيف أكون منشرحاً وسعيداً .

ولقد حاولت فى المرتين الأخيرتين اللتين سمح لى فيهما هنا برؤية

Twitter: @abdulllah1994

أصدقائى أن أكون منشرحا قدر استطاعتى ، وأن أظهر لهم هذا الانشراح ؛ وذلك لكى أكون أديت ولو القليل من جميلهم فى تحمل متاعب الطريق من المدينة لزيارتى . إنى أعلم أن هذا شىء طفيف ، كرد لجميلهم ، غير أنى متأكد من أنه يسرهم إلى أبعد حد . لقد رأيت « روبى » لمدة ساعة فى سبت الأسبوع ، وحاولت أن أعبر بأقوى ما يمكن عن الابتهاج الذى شعرت به فعلا حال لقائنا[١٠٣] . أما الدليل على أنى مصيب تماماً فيما أشكله هنا لنفسى من آراء وأفكار فقد أظهرته هذه الحقيقة ، وهى أنى الآن ، للمرة الأولى منذ دخولى السجن ، أشعر برغبة صادقة فى الحياة .

لا يزال أمامى الكثير مما يجب فعله . فان مت قبل أن يتاح لى أن أكمل ولو القليل منه فإن الأمر سيكون مأساة فظيعة بالنسبة إلى . إنى أرى مظاهر جديدة من التقدم فى الفن والحياة ، وكل منها يشكل حالة جديدة من الكمال. انى والحق راغب فى أن أعيش حتى أكمل اكتشاف مالا يقل عن عالم جديد بالنسبة إلى . فهل تدرى ما هو هذا العالم ؟ تستطيع أن تحدس ! فهو العالم الذى كنتُ أعيش فيه .

الحزن ، إذن ، وكل ما يعلمه للمرء ، هو عالمى الجديد. لقد درجت على أن أعيش بكليتى للسرور. تجنبت الحزن والألم من كل نوع. كرهت الاثنين . وصممت على تجاهلهما قدر استطاعتى ؛ وأن أعالجهما ، بمعنى الكلمة ، كحالات من النقص . ولم يكونا جزءا من خطتى فى الحياة ، ولم يكن لهما محل فى فلسفتى . وكانت والدتى ، وقد خبرت الحياة بصورة كاملة ، كانت تعمد غالباً إلى إسماعى سطوراً لـ « جوته Goethe » كتبها « كارليل Carlyle » فى كتاب أهداه إليها قبل سنوات ، وأحسبها ترجمت بواسطته أيضاً ، وهى :

Twitter: @abdulllah1994

إن من لم يأكل قط خبزه فى الحزن ،
ومن لم يقض ساعات منتصف الليل
يبكى وينظر إلى الغد ،
لا يعرفك قط ياقوى السماء[١٠٤]

تلك كانت السطور التى مضت تكررها ملكة بروسيا النبيلة فى ذلة الأسر ، بعد أن أمعن « نابليون » فى الاساءة إليها[١٠٥] . وهى نفس السطور التى مضت والدتى تكررها فى متاعبها فى أيامها الأخيرة . أما أنا فقد رفضت بتاتاً أن أقبل ما انطوت عليه من معنى صادق أو أعترف به ، بلى ، لم أستطع أن أفهمها . وإنى أذكر جيداً كيف مضيت أخبرها إنى لا أريد أن آكل خبزى فى الحزن ، ولا حاجة بى إلى قضاء الليل باكياً فى تطلع إلى فجر أشد مرارة . ولم يكن لدى فكرة بأن ذلك كان مما اختزنته الأقدار لى بصورة خاصة ؛ وأنه لن يكون لدى بالتأكيد إلا القليل لأفعله بجانب ذلك طوال عام كامل من حياتى . ولكن هكذا قدّر لى نصيبى منه . وقد استطعت خلال الشهور القليلة الماضية ، بعد كثير من الكفاح والصعوبات ، أن أفهم بعض الدروس التى انطوى عليها قلب الألم . إن رجال الدين وغيرهم من أصحاب العبارات الجوفاء يشيرون أحياناً إلى الألم كما لو كان سرّاً غامضاً . وهو ليس كذلك فى الحقيقة ، بل هو كشف . فالمرء به يرى أشياء لم يرها قط من قبل ؛ والمرء به يقترب من التاريخ بجملته من نقطة بدء مختلفة ؛ وما كان يشعر به عن الفن فى غموض بواسطة الغريزة يمكن أن يميّز به عقلياً وانفعالياً فى وضوح تام من الرؤيا وشدة متناهية من الإدراك .

إنى أرى الآن أن الحزن ، إذ أنه أعظم انفعال يستطيع أن يتأثر به الإنسان ، هو برمته النمط والتجربة لكل أنواع الفن العظيم . إن

Twitter: @abdulllah1994

ما يبحث عنه الفنان دائماً هو تلك الحالة من الوجود التي تكون فيها النفس والجسد شيئاً واحداً لا يقبل التقسيم . تلك الحالة التي يكون فيها الظاهر معبراً عن الباطن . تلك التي تكشف فيها الصورة عن نفسها[106] . من مثل هذه الحالات من الوجود هناك كثير . فالشباب بما احتل تفكيره من فنون يمكن أن يؤدى لنا دور المثال في وقت . وفي وقت آخر ربما أحببنا أن نفكر في الفن الحديث للمناظر الطبيعية على أنه ، بما فيه من دهاء وحساسية في التأثير ، وإيحاء بالروح التي تستوطن الأشياء الخارجية وتصنع كساءها من الأرض والهواء ، كما تصنعه من المدينة والضباب ، ومن العطف السوداوى الذى يتأتى في حالاته ، وأنغامه ، وألوانه ، يستطيع أن يميز لنا تصويرياً ما ميزه من قبل، كذلك الكمال التشكيلي الذى تجلى في الفن الاغريقى . إن الموسيقى التي يذوب فيها الموضوع بأكمله ولا يتأتى فصله عنها تقدم مثلا مركبا لما أرمى إليه . أما الطفل أو الزهرة فإنها تقدم مثلا بسيطاً . غير أن الحزن هو النمط النهائي في كل من الحياة والفن .

من وراء الفرح والضحك قد تكون هناك جبلة خشنة ، جافة ، صلبة . ولكن من وراء الحزن لا يوجد دائماً إلا الحزن . والألم بخلاف الفرح ، لا يستطيع أن يرتدى قناعاً . إن الحقيقة في الفن ليست شيئاً من الصلة بين الوجود العارض والفكرة الجوهرية . إنها ليست مشابهة من الظل للشكل ، أو صورة منعكسة في المرآة من الصورة نفسها . إنها ليست صدى يأتى من تل أجوف ، وما كان أعظم من ذلك فهو لا يعدو بئر الماء الفضى في الوادى ، حيث يرى القمر ذاته ويرى « نارسيس » نفسه . وإنما الحقيقة في الفن هي وحدة الشيء مع ذاته . إنها الخارج يعبر عن الداخل . النفس تتجسد . غريزة الجسد تسرى في كيان الروح . لهذا السبب لا يوجد حقيقة تماثل الحزن . بل ان الحزن يبدو لى أحياناً

Twitter: @abdulllah1994

وكأنما ليس هناك حقيقة غيره . إن الأشياء الأخرى ربما كانت تخيلات جاءت من زيغ البصر أو من جموح الشهوة ، يعمى بها الأول وتفعم الثانية . وإنما بنيت العوالم من الحزن . وحينما يولد طفل أو كوكب يوجد ألم .

أكثر من ذلك ، هناك حقيقة قاسية غريبة عن الحزن . فقد قلت عن نفسي إنني كنت واحداً وقفت في صلات رمزية للفن والثقافة في عصري . وأقول أنه لا يوجد رجل تعيس واحد بجانبي في هذا المكان التعيس لم يقف في صلات رمزية لسر الحياة في صميمه . وذلك لأن سر الحياة هو الألم . انه الشيء الذي يختفي وراء كل شيء . حينما نبدأ الحياة يكون الشيء الحلو حلواً ، والمرّ مراً . فلا يسعنا إلا أن نوجه جميع رغباتنا نحو السرور ، وأن نبحث لا عن « شهر أو اثنين لنعيش على قرص الشهد »(١٠٧) وحسب ، بل عما يجعلنا طوال حياتنا لا نتذوق طعاماً آخر ، متجاهلين في نفس الوقت اننا بذلك ربما حرمنا النفس من غذائها بصورة تامة .

أذكر أنني تكلمت يوماً في هذا الموضوع إلى واحدة من أجمل الشخصيات التي عرفتها في حياتي(١٠٨) : امرأة كان عطفها النبيل عليّ قبل وأثناء مأساة سجني أبعد من المقدرة وأجل من الوصف . واحدة قد ساعدتني حقاً ، وإن لم تعرف هي ذلك ، على أن أحمل عبء متاعبي أكثر مما فعل آخر في العالم كله ؟ وقد جاءتني هذه المساعدة من مجرد وجودها ، وكونها ما هي : مثالا من جانب وقوة مؤثرة من جانب آخر . مصدرَ وحي بما قد يصير إليه المرء ، وقوة مساعدة نحو ما هو صائر إليه . نفساً تحيل الهواء المادي إلى عنصر لطيف ، وتجعل الشيء الروحي يبدو في بساطة ضوء الشمس وطبيعة البحر . انسانة يسعى لأجلها الجمال والحزن

Twitter: @abdulllah1994

يحملان نفس الرسالة ويد كل منهما فى يد الآخر . وفى تلك المناسبة التى أفكر فيها الآن أذكر جيداً كيف قلت لها إن هناك كثيراً من الآلام فى بعض أزقة لندن ، وهو مايدل على أن الله لايحب الناس . وإنه حيثما وجد شىء من الحزن ، ولو اقتصر على بكاء طفل فى حديقة صغيرة بسبب غلطة حدثت منه أو لم تحدث ، فإن هذا يشوّه وجه الخليقة بصورة تامة . فردت على بأنى مخطىء كل الخطأ . غير أنى لم أستطع أن أصدق ذلك ؛ إذ لم أكن فى جو يسمح بالوصول إلى مثل ذلك الاعتقاد . أما الآن فيبدو لى أن الحب من أى نوع هو التوضيح الوحيد لوجود هذا القدر الكبير من الألم فى العالم . إنى لا أستطيع أن أتصور أى توضيح آخر . بل انى مقتنع بأنه ليس هناك توضيح آخر . فإذا كانت العوالم قد بنيت حقاً من الحزن ، كما قلت ، فيجب أن يكون ذلك قد حدث بأيدى الحب وذلك لأن النفس الإنسانية ، وهى التى صنعت لأجلها تلك العوالم ، لا تستطيع عن طريق آخر أن تصل إلى الحالة التامة من كمالها . إن السرور للجسد الجميل أما النفس الجميلة فليس لها غير الألم .

عندما أقول انى مقتنع بهذه الأشياء أقول ذلك فى كثير من الفخر . فهناك ، عن بعد ، تبدو مدينة الله كلؤلؤة لا شائبة فيها . ومن العجيب أنها تبدو وكأنما يستطيع طفل أن يصل إليها فى بعض أيام الصيف ! هكذا يستطيع طفل أن يفعل . غير أن الأمر يختلف معى ومع أمثالى . إن المرء يستطيع أن يحقق شيئاً فى لحظة ، غير أنه يفقده فى الساعات التى تتعاقب فى بطء . فمن الصعب الاحتفاظ بـ « المرتفعات التى تستطيع النفس أن تبلغها »(١٠٩) . اننا نفكر فى الأبدية ، غير أننا نتحرك فى بطء من خلال الزمن . لست فى حاجة إلى التحدث ثانية عن الزمن إذ يمضى معنا بطيئاً نحن الذين نرتمى فى السجن ؛ ولا عن الملل واليأس

Twitter: @abdulllah1994

إذ يعاودان الزحف إلى زنزانة كل منا . ولا يقف كل منهما عند ذلك الحد بل يتسرب إلى قلبه . ويفعل ذلك فى إصرار غريب كما لو كان يريد أن يرى البيت رتب وزين استعداداً لقدومه ، كما يفعل المرء لاستقبال زائر وان كان غير مرغوب ، أو سيد مرهوب ، أو عبد لا مناص من الرضوخ لاستعباده . ومع أنه قد يكون من الصعب عليك حالياً أن تصدق ما أقول، فإنى لا أعدو الحقيقة إذا قلت إن تعلم دروس الاتضاع أسهل عليك منى ؛ إذ بينما تعيش فى حرية وبطالة وراحة ، أبدأ يومى بالإنكباب لغسل أرض زنزانتى . وذلك لأن حياة السجن ، بما فيها من حرمان وتشديد لا حد لهما ، تجعل من المرء متمرداً . وأفظع شىء فيها أنها لا تحطم القلب — فالقلوب لم تخلق إلا لكى تتحطم — بل تحيله إلى حجر ! والواقع أن المرء يشعر أحياناً بأنه لا يستطيع أن يعيش يومه إلا إذا أوتى جبهة من نحاس وشفتين من الاحتقار . وثمة عبارة أغرمت بها الكنيسة ، وهى أن من كان فى حالة تمرد لا يتلقى قط بركة من السماء . وأحسبها على حق فى ذلك . فحالة التمرد فى الحياة ، كما هى فى الفن، تسد قنوات النفس وتمنع عنها أنفاس السماء . ومع ذلك فيجب أن أتعلم هذه الدروس هنا ، إذا كان لى أن أتعلمها فى أى مكان . ويجب أن يمتلىء قلبى بالسرور إذا كانت قدماى على الطريق الصحيح ، وكنت ميمما وجهى شطر الـ « مسلك الذى يدعى بالجبل »(١١٠) ، وإن كان من المحتمل أن أسقط مرات فى الوحل ، وأضل غالباً فى الضباب .

هذه الحياة الجديدة ، كما يدفعنى حبي لدانق أحياناً إلى أن أسميها ، ليست بالطبع جديدة بأى حال . فهى ببساطة استمرار وارتقاء لحياتى السابقة عن طريق التطور . أذكر انى وقت أن كنت فى اكسفورد كنت أتمشى ذات صباح مع واحد من أصدقائى فى الممرات الضيقة التى

Twitter: @abdulllah1994

تعشش فيها الطيور حول « مجدالين » . وكان ذلك فى يونيو ، قبل حصولى على درجتى الجامعية . فقلت له انى أريد أن أتذوق ثمار جميع الأشجار فى حديقة هذا العالم ، وإنى خارج إلى الدنيا أحمل بين جنبي هذه الشهوة . وكان أن خرجت مشوباً بها ، وعشت دائماً فى تيارها . وإنما كان خطئى فى انى حصرت نفسى فى التقاط ثمار ما بدا لى انه الجانب المشرق من الحديقة وتجنبت ما تراءى لى انه ظلال وكآبة . فالخيبة والفضيحة ، والفقر والحزن، واليأس والألم ، وحتى الدموع ، والكلمات المتكسرة التى تخرج من شفتى الألم ، والندم الذى يجعل المرء يمشى فى الشوك ، والضمير الذى يدين ، والذل الذى يعاقب ، والبؤس الذى يحثو التراب فوق رأسه ، والكرب الذى يختار الخيش ملبساً ويصب المرّ فى شرابه — كل هذه الأشياء كانت تخيفنى . ولكننى ، وقد صممت على الا أعرف شيئاً منها ، اقسرت على أن أتذوقها جميعاً ، كلاً بدوره ، وأن أعيش عليها ، وألا يكون لدى فى الواقع طعام غيرها لفترة طويلة . ومع ذلك فإننى لا أشعر قط بشىء من الأسف على أن عشت للسرور . فقد فعلت ذلك إلى النهاية ، كما يفعل المرء شيئاً حتى نهايته . ولم يكن هناك نوع من السرور لم تكن لى فيه تجربة . لقد طرحت جوهرة نفسى فى كأس من النبيذ ، وانحدرت فى درب زهور الربيع إلى صوت الناى ، وعشت على قرص الشهد . ولكن كان من الخطأ الاستمرار فى حياة تبينت أنها تحدّ من الطاقة . فكان يجب أن أمضى قدما . لقد كان للنصف المظلم من الحديقة أسراره كذلك .

كل هذا قد رمز إليه طبعاً وصور من قبل فيما أخرجته من أعمال فنية . فقد جاء بعضه فى « الأمير السعيد » ، وجاء بعضه فى « الملك الشاب » ، خصوصاً فى العبارة التى يقول فيها الأسقف للشاب الراكع :

Twitter: @abdulllah1994

« أوَ لا ترى أن مَن صنع البؤس أحكم منك ؟ » ، وهي عبارة لم أر فيها حينما كتبتها أكثر من عبارة . وإنما اختفى قدر كبير منه فى نغم القضاء المبرم الذى ينساب خلال النسيج الذهبى لـ « دوريان جراى » كما ينساب خيط أرجوانى . أما فى « الناقد كفنان » فقد عرض فى ألوان كثيرة . وفى « روح الانسان » كتب ببساطة بحروف سهلة القراءة . وهو واحد من المذاهب التى تجعل دوافعها المتكررة من « سالومى » قطعة من الموسيقى وتوجد فيها تماسك القصيدة . كما أنه يبدو متجسداً فى القصيدة النثرية للرجل الذى كان عليه أن يجعل من صورة برونزية لـ « السرور الذى يعيش للحظته » صورة من « الحزن الذى يعيش إلى الأبد »(١١١) . ولم يكن فى الامكان أن يكون شيئاً غير ذلك . فى كل لحظة من حياة الانسان لا يكون المرء أقل فيما هو صائر إليه مما كان فيه من قبل . إن الفن رمز ، وذلك لأن الانسان رمز .

انه الادراك النهائى للحياة الفنية ، إذا استطعت أن أصل إليه كاملا وذلك لأن الحياة الفنية تطور ذاتى يمضى فى بساطة . والاتضاع فى الفنان هو قبوله كل التجارب فى صراحة . كما أن الحب فيه هو ببساطة ذلك الشعور بالجمال الذى يكشف للعالم عن جسده وعن روحه .

فى « ماريوس الأبيقورى Marius the Epicurean » يسعى « باتر Pater » فى إيجاد توافق بين الحياة الفنية والحياة الدينية بمعنى الكلمة العميق ، القوى ، الجميل . غير أن « ماريوس » لا يزيد كثيراً عن مشاهد . مشاهد مثالى فى الواقع ، وواحد عُهد إليه أن « يتأمل فى منظر الحياة بعواطف متناسبة » ، وهو مايعرّفه « ورد سورث » بأنه الهدف الحقيقى للشاعر(١١٢) .

ولكنه مجرد مشاهد . وربما كان انشغال تفكيره بما فى أوانى

Twitter: @abdulllah1994

المعبد من جمال جمله لا يفطن إلى أن ما ينظر إليه هو معبد الحزن !

انى أرى ارتباطا أوثق صلة بين حياة المسيح الصادقة وحياة الفنان الصادقة . وأشعر بسرور عظيم حينما أذكر انى ، قبل أن يجعل الحزن من أيامى شغلته ويربطنى اليأس إلى عجلته ، كتبت فى « روح الانسان » أن ذلك الذى يستطيع أن يعيش حياة تكون صورة من حياة المسيح يجب أن يكون هو نفسه ، بل وأن يكون ، كأبطالى ، قد أخذ ، لا فقط دور الراعى فوق التل والسجين فى الزنزانة ، بل أيضاً المصور إذ يرى فى العالم موكبا ، والشاعر إذ يرى فيه أغنية . أذكر انى قلت مرة لـ « أندريه جيد André Gide » ، بينما كنا نجلس فى بعض مقاهى باريس ، انه بينما لا تثيرنى إلا قليلا علوم الميتافيزيقا ، ولا يثيرنى بالمرة علم الأخلاق فإن شيئاً ما قاله أفلاطون أو قاله المسيح لا يمكن أن يجد صعوبة فى تحويله فى الحال إلى مجال الفن ، ليجد فيه إنجازاً تاماً . لقد كان الأمر تعميما لم يكن فى عمقه بأقل منه فى جدّته .

والواقع إننا نستطيع أن نرى فى المسيح لافقط تلك الوحدة التامة بين الشخصية والكمال ، وهى التى تشكل التمييز الصحيح بين الفنين الكلاسيكى والرومانتيكى ، وتجعل من المسيح الرائد الصادق للحركة الرومانتيكية فى الحياة ، بل أيضاً أن أساس طبيعته فى صميمه كان هو نفسه أساس طبيعة الفنان : مخيلة قوية متوقدة . لقد أدرك فى دائرة الملاقات الإنسانية بكاملها ذلك العطف الخيالى الذى هو السر الوحيد للابداع فى مجال الفن . فرأى جذام المجذوم ، وظلام الأعمى ، والبؤس القاتل لأولئك الذين يعيشون للسرور ، والفقر العجيب لمن تصوروا أنهم أغنياء ، انك تستطيع أن ترى الآن — أم تراك لا تستطيع ؟ — تستطيع أن ترى انك حينما كتبت إلى فى مرضى تقول : « حينما

Twitter: @abdulllah1994

لا تكون منتصبا على قدميك فإنك لا تثير اهتمامى . وعندما تقع فى المرض مرة أخرى سأهجرك فى الحال » ، حينما قلت ذلك كنت بعيداً عن مزاج الفنان بقدر ما كنت بعيداً عما يسميه « ماثيو أرنولد Matthew Arnold » « سر عيسى »(١١٣) . وكلا الأمرين كان يجب أن يعلمك أن ما يحدث لآخر يحدث لك أنت نفسك . فهل لك فى شعار تكرره فى الصباح وفى المساء ، وتقرأه للسرور كما تقرأه للألم ؟ اذن أكتب على حائط منزلك بحروف تسطع عليها أشعة الشمس ، وتقع عليها أضواء القمر « إن ما يحدث لشخص آخر يحدث للمرء نفسه » . فإذا سألك سائل عن معنى ذلك فقل له إنه يعنى « قلب السيد المسيح وعقلية شكسبير » .

إن مكان المسيح هو فى الحقيقة بين الشعراء . أما فكرته الكاملة عن الإنسانية فقد قفزت رأسا من الخيلة ، وبالخيلة وحدها يمكن أن تدرك . لقد كان الانسان فى نظره ما كان الله فى نظر المعتقد بوحدة الوجود . وكان هو اول من فكر فى الأجناس المنقسمة كوحدة . وكان هناك قبل زمنه آلهة وأناس ، فكان هو وحده الذى رأى انه لا يوجد فوق تلال الحياة إلا الله والانسان . وإذ كان يشعر من خلال تصوفه العاطف بأن كلا منهما قد تجسد فيه ، فقد دعا نفسه ابن الواحد أو ابن الآخر ، حسبما كان ينتابه من حال . وأكثر من أى واحد فى التاريخ ، أيقظ فينا ذلك المزاج من العجب الذى ترجع إليه الرومانسية دائماً ، ولا يزال هناك شيء بالنسبة إلى لا يكاد يصدق : فكيف تخيل فلاح شاب من قرية الجليل انه قادر على أن يحمل على كتفيه عبء العالم كله... كل ما فعله الناس من قبل وكل ما تألموا منه ، وكل ما هو فى سبيل الحدوث من أفعال وآلام ... خطايا نيرون ، وخطايا سيزار بورجيا ،

Twitter: @abdulllah1994

وخطايا الاسكندر السادس ، وخطايا ذلك الذى كان إمبراطورا لروما وكاهناً للشمس(١١٤) ... آلام أولئك الذين كانوا يدعون بـ « لجيون Legion » ويقيمون بين المقابر(١١٥) ... الشعوب المظلومة ، وأطفال المصانع ، واللصوص ، ونزلاء السجون ، والمشردين ، وأولئك الذين حبست ألسنتهم تحت الظلم ، وأولئك الذين لم يسمع شكواهم إلا الله(١١٦) بل ولا يكتفى بتخيل هذا كله وإنما يمضى عملياً فى تنفيذ فكرته . فكان أن أصبحنا فى هذا الوقت وجميع أولئك الذين يتصلون بسبب بشخصيته ، وإن لم ينحنوا نحو مذبحه أو يركعوا تجاه كاهنه ، يجدون بالرغم من ذلك أن قبح خطاياهم أزيل بطريقة مامن نفوسهم ، ليتكشف لهم مافى أحزانهم من جمال ؟

لقد قلت ان مكانه بين الشعراء . وهذا حق . فـ « شيلى Shelley » و « سفوكليس Sophocles » من زمرته . غير أن حياته كاملة هى أيضاً أعجب مافى الشعر من قصائد . فعن « الشفقة والرعب »(١١٧) لا يوجد فى عصر المأساة الإغريقية بتمامه ما يصل إليها . ففيها ترفع طهارة الممثل التامة النسق كاملا إلى ذروة من الفن الرومانتيكى استبعدت منه كلية آلام « خط طيبة وبيلوبس(*) »(١١٨) بما فيها من رعب كبير . وهى

(*) « طيبة Thèbes » المشار إليها هنا ليست العاصمة القديمة لمصر ، وهى التى تقوم على انقاضها مدينة الأقصر حاليا . بل هى العاصمة القديمة لملكة « بيوتى Béotie » فى بلاد الاغريق . وقد ورد ذكرها فى أسطورة « أوديب » .

أما « بيلوبس Pelops » فهو حفيد چوبيتر وابن « تانتان » ملك ليديا . وقد ذبحه أبوه قربانا للالهة وقدمه لهم طعاما فى وليمة أعدها لهم فى قصره . فلم يتناول من هذا الطعام الفظيع سوى «سيريه Cérès » آلهة الزراعة ، إذ كانت مستغرقة فى الحزن بسبب فقد ولدها . وقد أعاد « چوبيتر » إليه الحياة ، وعوضه كتفا من العاج عما تناولته « سيريه » من جسده « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

تظهر كيف كان أرسطو مخطئاً حينما قال فى مقالته عن التمثيلية إن المرء قد يستحيل عليه أن يحتمل مشهد برىء فى الألم(١١٩) . كلا ، ولا فى « اسخيلوس Aeschylus » أو « دانتى Dante » ، وهما الفارسان العابسان فى تصوير المزاج الرقيق . ولا فى « شكسبير » أطهر الانسانيين بين جميع الفنانين، ولافى جميع الخرافات والأساطير السلتية « Celtic » حيث عرض جمال العالم من خلال غمامة من دموع، وبدت حياة الانسان وكأنما هى لا تزيد عن حياة زهرة . ليس فى هذا كله شىء ما يمكن أن يقال انه ، لمجرد البساطة فى الحنان وقد اقترن واتحد بسمو التأثير المفجع، يتعادل ، أو حتى يتقارب ، من الفصل الأخير من آلام المسيح . فالعشاء البسيط مع رفاقه، ومن بينهم واحد سبق أن باعه لقاء دراهم، والكرب الذى كان يعانى منه فى حديقة الزيتون الساكنة فى ضوء القمر ، والصديق الكاذب ، إذ يقترب منه ليخدعه بقبلة ، ذلك الصديق الذى كان هو لايزال يتوسم فيه الصدق ، بل ويرجو أن يعتمد عليه ، كما يعتمد المرء على صخرة ، فى بناء بيت يكون ملاذاً للانسان . فإذا به ينكره وقت أن صاح الطائر معلنا طلوع الفجر !.. ووحدته المطبقة، وتسليمه ، ثم قبوله كل شىء . كل ذلك وما كان بجانبه من مشاهد أخرى، كمشهد كبير كهنة الأرثوذكسية « Arthodoxy » إذ يشق ثوبه غضباً ،ومشهد قاضى المحكمة المدنية ، إذ يدعو بماء للتطهر عبثاً من تلك اللطخة من دم البرىء التى جعلت منه رقما قرمزيا فى التاريخ ؛ ومشهد حفلة التتويج بالحزن ، وهى من أعجب ما سجل من أحداث الزمن ، وصلب الانسان البرىء على مرأى من أمه ومن التلميذ الذى أحبه ، والجنود إذ يخاطرون على ملابسه ويلقون بالنرد للحصول عليها ؛ والموت المرعب، الذى أعطى للعالم أعظم رموزه خلوداً ، ثم دفنه أخيراً فى قبر الرجل الغنى ، بعد أن

Twitter: @abdulllah1994

لف جسده فى كتان مصرى وضمخ بعطور ثمينة ، كما لو كان من أبناء الملوك . عندما يتأمل المرء فى هذا كله من وجهة النظر الفنية البحتة لا يملك إلا أن يشعر بالسرور ، إذ يرى أن أسمى وظائف الكنيسة يجب أن يكون تمثيل المأساة بغير إراقة دماء : عرضها رمزياً بواسطة الحوار ، والملابس، والحركات ، ولو كانت آلام سيدها نفسه ! والواقع أنى أشعر بشىء من الفزع يخالطه السرور حينما أتذكر أن الكورس الإغريقى قد فقد نهائياً من مجال الفن، فلم يعد يوجد إلا فى وظيفة ذلك المساعد إذ يرد على الكاهن فى قيامه بالقداس .

ومع ذلك فإن حياة المسيح فى جملتها ، حيث يمتزج الحزن بالجمال فى معناها وتجليهما بصورة تامة ، هى فى الواقع صورة من نشيد الرعاة ، وإن كانت تنتهى بتمزيق قناع المعبد ، وانتشار الظلمات على وجه الأرض ثم تدحرج الحجر إلى باب القبر . إن المرء يفكر فيه دائماً كما لو كان عريساً بين رفاقه ، وهو فى الواقع ما وصف به نفسه ، أو راعياً يضرب فى بطن الوادى مع أغنامه ، بحثاً عن مرج أخضر أو مجرى من الماء البارد ، أو مغنياً يحاول بموسيقاه أن يقيم جدران مدينة الله ، أو محباً ضاق العالم كله عن أن يتسع لحبه . أما عن معجزاته فهى تبدو لى رائعة بقدر ما تبدو الروعة فى مجىء الربيع ، وهى بالمثل طبيعية تماماً . انى لا أرى صعوبة ما فى الاعتقاد بأن شخصيته كانت ساحرة لدرجة أن مجرد وجوده كان كافياً لإدخال الاطمئنان إلى النفوس المعذبة . وليس لدى شك فى أن أولئك الذين كانوا يلمسون يده أو ثوبه كانوا ينسون ما كانوا فيه من ألم ؛ أو انه بينما كان يمشى فى طريق الحياة العام استطاع أن يجعل من لم يروا شيئاً من أسرارها يرون هذه الأسرار فى وضوح ، كما استطاع أن يجعل غيرهم ممن أصابهم الصمم فلم يسمعوا غير صوت السرور

Twitter: @abdulllah1994

يسمعون صوت الحب لأول مرة ، ويجدونه لا يختلف عن « موسيقى قصبة أبوللو »[١٢٠] ؛ أو ان مجرد اقترابه كان يجعل الانفعالات الشريرة تتلاشى ، كما كان يجعل أولئك الذين كانت حياتهم بعقمها فى التخيل مجرد حالة من الموت يهبون حالما دعاهم ، كما لو كانوا يخرجون من الأجداث ؛ أو إنه ، بما كان يلقيه من تعاليم على جانب التل ، جعل الجموع التى كانت ... حوله تنسى الجوع والعطش وتسقط من حسابها كل اهتمام بما فى هذا العالم ، أو إنه حينما مضى يتحدث إلى أصدقائه ، إذ يجلس بينهم إلى طعام ، جعل الطعام الخشن يبدو شهيا ، وجعل الماء يكتسب مذاق الجيد من النبيذ ، وجعل البيت كله يمتلىء بعبير من العطر الجميل .

يقول « رينان Renan » فى كتابه « حياة عيسى » — ذلك « الإنجيل الخامس » الجميل ، كما يستطيع المرء أن يدعوه ، فى متابعة لنهج القديس توما — يقول فى بعض المواضع إن أعظم إنجازات المسيح أنه جعل نفسه يكتسب من الحب بعد مماته قدر ما اكتسبه فى حياته[١٢١] . وهذا حق . فإذا كان مكانه بين الشعراء فيجب أن يكون قائد المحبين جميعاً . فقد رأى أن الحب كان ذلك السر الذى فقد فى العالم فمضى يبحث عنه جميع العقلاء . ورأى أن الانسان يستطيع بالحب وحده أن يقترب إما من قلب مجذوم أو من قدمى الله .

وفضلا عن ذلك فإن المسيح كان بلاشك أعظم الفرديين . فالاتضاع ، وهو لا يختلف عن القبول الفنى لكل التجارب ، مجرد حالة من الكشف . لقد كانت روح الانسان هى الشىء الذى بحث عنه دائماً . وقد سماها « مملكة الله » ، ووجدها فى كل مكان . وكان يقارنها بالأشياء الصغيرة ، فقد قارنها بالبذرة الدقيقة ، وبالقبضة من الخميرة ،

Twitter: @abdulllah1994

كما قارنها باللؤلؤة . وذلك لأن الانسان لا يستطيع أن يدرك روحه إلا إذا استبعد جميع الاحساسات الغريبة والثقافة المكتسبة والممتلكات الخارجية ، طيبة كانت أو رديئة .

لقد تحملت كل شيء في قليل من عناد الارادة وكثير من تمرد الطبيعة ، حتى لم يعد هناك شيء ترك لى في العالم غير « سيريل » . فقد فقدت اسمى ، ومركزى ، وسعادتى ، وحريتى ، وثروتى ؛ وأصبحت سجيناً معدما ، ثم بقى لى شيء جميل واحد ، وهو ابنى الأكبر . ولكنه أخذ منى فجأة بواسطة القانون ، فكان في ذلك ضربة مذهلة أفقدتنى المقدرة على التصرف . فلم يسعنى إلا أن أركع وأحنى رأسى ثم أقول في بكاء : « إن جسد الطفل كجسد الرب . وها أنذا لم أعد جديراً بهذا ولا ذاك ! » في تلك اللحظة شعرت بأنى نجوت. فقد رأيت أن الشيء الوحيد لخلاصى أن أقبل كل شيء . ولا شك أنك ستدهش إذا علمت أنى بدأت أشعر بسعادة كبيرة منذ ذلك الوقت .

انها بالطبع كانت روحى في أقصى درجات جوهرها ، تلك التى وصلت إليها . لقد كنت عدواً لها من طرق عديدة . ولكننى وجدتها في انتظارى كصديق . عندما يعامل المرء الروح فإنها تجعل منه مخلوقا في بساطة الطفل. وهذا ما نصح به المسيح . من الحزن ألا يكون هناك إلا القليل ممن استطاعوا قط أن « يملكوا أرواحهم » قبل أن يموتوا(١٢٢) ! يقول « إمرسن » ، « ليس هناك ما هو أندر في الانسان من فعل جاء من ذاته هو »(١٢٣) . وهذا صحيح تماما . فأكثر الناس آخرون بالنسبة إلى أنفسهم . فأفكارهم من آراء غيرهم ، وحياتهم محاكاة ، وعواطفهم اقتباسات . وإنما كان المسيح لا أعظم الفرديين وحسب بل أول فردى في التاريخ . لقد حاول الناس أن يصوروه

Twitter: @abdulllah1994

إنساناً من الدرجة العادية : واحداً على غرار أولئك الانسانيين المريعين من أصحاب القرن التاسع عشر . ثم حاولوا أن يضعوه فى صفوف الخيرين ممن يفتقرون إلى العلم والشعور. غير أنه فى الواقع لم يكن هذا ولا ذاك. فقد كان بالطبع يشعر بالشفقة على الفقراء ومن أطبقت عليهم السجون ، كما كان يشعر بها على التعساء والمتواضعين . ولكنه كان يشعر بها بصورة أشد على الأغنياء والمترفين ... كان يشعر بها على أولئك الذين يضحون بحريتهم ليصيروا عبيداً للأشياء ... أولئك الذين يرتدون الملابس الناعمة ويعيشون فى القصور . فقد رأى أن فى الغنى والسرور من المآسى ما هو أعظم فى الواقع مما فى الفقر والحزن . وفيما يتعلق بالايثار لم يكن هناك من علم أكثر منه بأن مصيرنا يتحدد لا بالإرادة بل بالحرفة ؛ فليس من الممكن أن تجنى الأعناب من الأشواك ، ولا أن تجمع ثمرات التين من رأس قنفذ .

لم تكن عقيدته أن يعيش المرء للآخرين ، كفرد محدد من الوعى الذاتى . فهذا لم يكن اساس عقيدته . وحينما قال : « اغتفر لأعدائك » لم يكن ناظراً إلى صالح العدو بقدر ما كان ناظراً إلى صالح المتسامح . وإنما قال ذلك لأن الحب أجمل كثيراً من البغض . وحينما قال للشاب الذى أحبه حال أن وقعت عينه عليه : « بع كل ما ملكت وأعط ثمنه للفقراء » كان يفكر لا فى حالة الفقراء بل فى روح ذلك الشاب .. تلك الروح الجميلة التى كان يشوهها الغنى . لقد كان فى نظرته إلى الحياة مع الفنان الذى يعلم أن هناك قانوناً للكمال الذاتى يفرض فى توكيد على الشاعر أن يغنّى ، وعلى المثّال أن يعالج البرونز ، وعلى المصور أن يجعل من العالم مرآة لانعكاس حالاته ، كما يفرض على الحشائش البرية أن تزهر فى الربيع ، وعلى حبات القمح أن تتحول إلى لونها الذهبى

Twitter: @abdulllah1994

وقت الحصاد ، وعلى القمر أن يتحول فى دورته المفروضة من ترس إلى منجل ومن منجل إلى ترس .

ولكن ، مع أن المسيح لم يقل للناس « عيشوا للآخرين » إلا أنه أشار إلى أنه لا يوجد بتاتاً فرق بين معيشة المرء نفسه ومعيشة الآخرين ، وبهذه الوسيلة أعطى كل واحد شخصية متسمة كشخصية مارد . ومنذ مجيئه أصبح تاريخ كل فرد قائم بذاته تاريخاً للعالم كله ، أو أصبح فى الإمكان جعله كذلك . ولقد عظمت الثقافة فى شخصية الانسان بالطبع كما جعل الفن كلاً منا ذا طاقات عقلية متعددة . فأصبح أصحاب المزاج الفنى يذهبون إلى المنفى مع دانتى ليروا كيف يكون مُرّاً خبز الآخرين ، وكيف تكون منحدرة مراقيهم[١٢٤] . ومضوا يختطفون للحظات مافى معانى « جوته » من صفاء وهدوء ، ثم يدركون إلى حد كبير لم هتف « بودلير Baudelaire » بالله قائلا :

يا إلهى ! امنحنى من القوة والشجاعه .

ما يكفى للتأمل فى جسدى وفى قلبى بغير اشمئزاز[١٢٥] .

ومن قصائد « شكسبير » مضوا يستخلصون سر حبه ، ويجعلونه لأنفسهم ، وهو أمر ربما كان ضاراً بهم . ثم باتوا ينظرون بأعين جديدة إلى الحياة الحديثة ؛ فقد سمعوا واحدة من تسابيح « شوبان Chopin » ، أو عالجوا بعض الأشياء الأغريقية ، أو قرأوا قصة عاطفية لرجل مات على حب إمرأة ماتت هى كذلك ، كانت تتميز بشعر كخيوط رقيقة من الذهب وفم كحبات دقيقة من الرمان . غير أن العطف فى المزاج الفنى يكون بالضرورة مع الشىء الذى وجد طريقاً إلى التعبير .

Twitter: @abdulllah1994

فى الـكلمات أو الألوان ؛ وفى الموسيقى أو الرخام ، ومن خلف الأقنعة المنقوشة لبعض تمثيليات « أسخيلوس » ، ومن خلال القصبات المخرومة الموصولة لبعض رعاة سيشلى ، من هذا كله يجب أن يُـكتشف الانسان وتُـدرك رسالته .

وبالنسبة إلى الفنان فإن التعبير هو الحالة الوحيدة التى يستطيع فيها أن يتصور الحياة كلية . فهو يرى أن ما هو صامت ميت . غير أن الأمر لم يكن كذلك مع المسيح . ففى مخيلة بلغ من سمتها وعجبها أنها كادت أن تملأ النفس رعباً أخذ عالم اللاناطق بتمامه وجعل من نفسه معبراً خالداً عن آلامه . أما أولئك الذين تـكلمت عنهم ، وهم من يفقدهم الظلم القدرة على الـكلام ، ومن « لا يسمع صمتهم إلا الله »(١٢٦) ، فقد اختارهم أخوة له . لقد أراد أن يجعل من نفسه بصراً للأعمى ، وسمعاً للأصم ، وصيحة تخرج من شفاه أولئك الذين قيدت ألسنتهم . ورغب فى أن يكون بوقا لتلك الجموع التى لم تجد طريقاً للنطق تستطيع من خلاله أن ترسل نداءها إلى السماء . وقد جعلته طبيعته الفنية يرى أن الحزن والألم حالتان يمكن فيهما إدراك الـكائن الجميل . وشعر بأن الفـكرة لا قيمة لها حتى تتجسد وتصبح صورة ماثلة ؛ فجعل من نفسه صورة لإنسان الأحزان ، وجعل من هذه الصورة شيئاً يجتذب الفن ويسيطر عليه . وهو ما لم يستطع أى إلـه إغريقى أن يفعله .

فآلهة الإغريق ، بالرغم ممـا اعترى أطرافها الجميلة الرشيقة من تلوين ، لم تـكن فى الحقيقة تلك التى عرفها الناس . فقد كان « أبوللو » حقاً ذا جبهة تشبه فى تقوسها ذلك الهلال الذى يتراءى من الشمس فوق تل وقت الشروق ، كما كانت قدماه كجناحى الصباح ؛

Twitter: @abdulllah1994

غير أنه كان قاسياً مع « مارسياس Marsyas »(*) ؛ ثم أنه جعل « نيوبى Neobie » تفقد جميع أبنائها. وكذلك فعلت «بالاس Pallas» ، فلم يكن فى عينها اللتين تبدت فيهما قسوة الحديد ذرة من شفقة على « أراكنى Arachne » المسكينة ! فإذا كان قد تبدى فى « هيرا Hera » شىء من النبل ، فإنه لم يزد عن عجبها وخيلائها . أما كبير الآلهة نفسه فقد كان أهم ما شغله أن يستمتع ببنات البشر ! ونتوقع أنه لم يكن فى الميثولوجيا الإغريقية من الشخصيات الرمزية ذات الإيحاء العميق سوى اثنتين : واحدة للدين ، وهى « ديمتر Demeter » ، ولم تكن من آلهة

(*) مارسياس Marsyas شاب من « فريجى Phrigie » . وهى من بلاد أسيا الوسطى القديمة ، كان بارعا فى استعمال المزمار . وقد بارى فى ذلك « أبوللو » فحكمت الربات لأله الحب . فعلقه أبوللو إلى شجرة صنوبر وسلخه حيا .

نيوبى Neobie ابنة ناتال Natale وزوجة امفيون Amphion ملك طيبة (الاغريقية) . كان لها سبعة أولاد وسبع بنات . فأخذها العجب بهذا العدد من الذرية وسخرت من لاتون Latone التى لم يكن لها غير ولدين : أبوللو وديانا . . فلم يسع هذان إلا أن يثأرا لأمهما بقتل جميع أبناء نيوبى رميا بالسهام . وإذ صعقت الأم التعسة من هذا الأمر فقد تحولت إلى صخرة ، ثم أصبحت رمزاً لحزن الأمومة فى الأدب القديم .

أراكنى Arachne صبية من ليديا كانت ماهرة فى فن الحياكة . فلما مزقت بالاس (وهى مينرفا فى تسمية أخرى) شيئاً من تطريزها شنقت نفسها حزنا . فحولتها إلهة الحكمة إلى عنكبوت .

هيرا Hera هى زوجة جوبيتر وآلهة الزواج .

پروزرپينا Proserpina هى ابنة جوبيتر وسيريه. وهى زوجة بلتون Pluton وملكة الجحيم .

سيميلى Semele هى أم ديونيسس ، وابنة كادموس Cadmos ملك طيبة الإغريقية . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

الأوليب بل كانت ربة أرضية ؛ والثانية للفن ، وهى شخصية « ديونيسس Dionysus » ، وكان ابنا لامرأة من البشر اختطفها الموت لحظة ولادته .

غير أن الحياة ، من أحط طبقاتها وأكثر بيئاتها تواضعاً ، جاءت بواحد أعجب كثيراً من أم « پروزربينا Proserpina » وابن « سيميلى Semele » . فمن حانوت نجار فى قرية الناصرة خرجت شخصية تعظم إطلاقاً أى شخصية صنعتها الأساطير . فقد كانت لواحد استطاع ، وهو ما يدعو إلى العجب ، أن يكشف للعالم عما هو غامض من معنى فى النبيذ وعما فى زهور الزنبق من جمال حقيقى . وهو ما لم يستطع أن يقوم به أحد قط ، لا فى « سيثايرون Cithaeron » ولا فى « إنّا Enna »(١٢٧) .

إن أغنية أشعياء التى تقول : « إنه قد حقّر ونبذ من الجميع : رجلا للأحزان وصديقا للآلام . أما نحن والحالة تلك فلا يسعنا إلا أن نخفى وجوهنا منه »(١٢٨) — هذه الأغنية بدت له كما لو كانت تعنيه هو ؛ وفيه قد تحققت النبوءة . يجب ألا نخشى من مثل هذه العبارة . فكل عمل فنى إنما هو تحول لفكرة فى صورة ، وكل واحد من البشر يجب أن يكون إنجازاً لنبوءة . وذلك لأن كل إنسان يجب أن يكون تحقيقاً لمثال ، إما من عقل الله أو من عقل الانسان . وقد وجد المسيح المثال وثبّته ، فأصبح حلم أى شاعر من أتباع « فرچيل » ، سواء فى أورشليم أو فى بابل ، متجسدا فى ذلك الذى كان العالم ينتظره(١٢٩) . « كان وجهه أكثر تشوها من وجه أى رجل آخر ، وكذلك كانت صورته »(١٣٠) . هذه بعض العلامات التى لاحظها أشعياء فى تمييزه المثال الجديد . وحالما استطاع الفن أن يدرك ماذا عنى بذلك تفتح كالزهرة بوجود ذلك الذى وضعت فيه حقيقة الفن بصورة لم تحدث من

Twitter: @abdulllah1994

قبل . وإلا فهل تعنى الحقيقة فى الفن غير ما قلته ، وهو « ذلك الذى يكون فيه الخارج معبراً عن الداخل . ذلك الذى فيه تتجسد النفس وتسرى غريزة الجسد فى الروح ... ذلك الذى فيه تتكشف الصورة عن ذاتها ؟ »(١٣١) .

والواقع انى أرى أن من بين ما حدث فى التاريخ مما يستوجب الأسف العظيم أن النهضة الذاتية للمسيح ، وهى التى أخرجت لنا كاتدرائية « شارتر Chartres » ، وما شاع فى عصر « أرثر Arthur » من أساطير ، وحياة القديس « فرانسيس الأسيسى » وفن « جوتو Giotto » وملهاة دانتى المقدسة — هذه النهضة لم يسمح لها بأن تتقدم على خطوطها الأصلية ، بل أوقفت وأفسدت بتدخل النهضة الكلاسيكية الكئيبة ، وما جاءتنا به من أعمال « بترارك Petrarch » و « فرسكو »* رافائيل وفن « باللادينو Palladino » المعمارى ، والمأساة الفرنسية الرسمية ، وكتدرائية القديس بولص ، وشعر « بوب Pope » ، وبكل شىء صنع من الخارج ، ووضع على قواعد جامدة ، ولم ينبع من الداخل بواسطة روح قامت بتشكيله . ولكن حيثما كانت هناك حركة رومانتيكية فى الفن كان المسيح هناك ، بكيفية ما وبشكل ما ، أو كانت هناك روحه فهو فى « رميو وجولييت » ، وهو فى « قصة شتاء » ، وهو فى شعر « بروفنسال Provençal » ؟ وهو فى « الملاح القديم » ؟ وهو فى قصيدة الإحسان لـ « شترتون Chatterton » .

اننا فى الحقيقة ندين له بأكبر قدر من مختلف الأشياء والناس . فـ « البؤساء » لـ « هوجو » و « زهور الشر » لـ « بودلير » ، ونغم

(*) الـ « فرسكو Fresco هو التصوير على الحائط . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

الشفقة فى القصص الروسى ، والزجاج الملون ، والطنافس الملونة كذلك ، والأعمال الأربمائة لـ « بيرن — چونز » و « موريس » و « ڤرلين » وقصائد ڤرلين — كل هذا يعود الفضل فيه إليه بدرجة لا تقل عما يعود إليه فى شوامخ «چوتو» و« لانسلو Lancelot » و«جنيڤر Guinevere و « تانهويزر Tannhauser » والرخام الرومانتيكى الداكن لـ «ميكائيل أنجلو Michael Angelo » والفن المعمارى المدبب ، ثم حب الأطفال والزهور . وهذان لم يكن لهما فى الفن الكلاسيكى فى الواقع إلا مكاناً صغيراً لم يكد يتسع لنموهما واعبهما . ولكنهما لم يكفا عن الظهور منذ القرن الثانى عشر حتى اليوم . وقد ظهرا فى الفن بأساليب متباينة وفى أوقات مختلفة . فقد جاءا فى نوبات وباصرار ، كما هى طبيعة الأطفال والزهور . فالربيع يبدو دائماً للمرء كما لو كانت الزهور قد اختفت ثم ظهرت فى الشمس لمجرد أنها كانت تخشى أن يصيب الملل الكبار فيكفوا عن البحث عنها . وحياة الطفل لا تزيد عن يوم من أبريل يسقط فيه المطر كما تشرق الشمس من أجل النرجس .

ثم إن خصيصة التخيل فى طبيعة المسيح هو نفسه هى التى جعلته هكذا مركزا لخفقان الرومانسية . فحقاً إن آخرين قد استطاعوا أن يخلقوا بخيلتهم شخصيات غريبة فى التمثيلية الشعرية وفى القصيدة ؛ غير أن عيسى الناصرى استطاع هو نفسه أن يخلق من مخيلته صورة تامة لنفسه . فصيحة أشعياء قبيل مجيئه لم تكن فى الواقع إلا كتغريدة عندليب وقت ظهور القمر ، لا أكثر وربما لا أقل . لقد كان انكاراً كما كان توكيداً للنبوءة ؛ إذ ما من شىء حققه مما كان متوقعاً إلا وكان بجانبه شىء آخر قام بتحطيمه . يقول « باكون » : فى كل شىء من الجمال يوجد « بعض الغرابة فى التناسب »(١٣٢) . ويقول المسيح عن

Twitter: @abdulllah1994

أولئك الذين ولدوا من الروح ... أولئك الذين يصح القول بأنهم مثله، هم القوى المحركة — يقول إن هؤلاء مثل الريح التي « تهب حيث تميل ولا يدري أحد من أين تأتي ولا أين تذهب »[١٣٣] . وهذا هو السبب في أنه كان ساحراً للفنانين . فقد اجتمعت فيه كل عناصر الألوان : الغموض ، والغرابة ، والعطف ، والإيحاء ، والنشوة ، والحب . وهو بطبيعته يرجع إلى المزاج الإعجازي ، ويستطيع أن يأتي تلك الحالة التي بها وحدها يمكن أن يُفهم .

وإنه يسرني أن أذكر أنه إذا كان المسيح « ذا مخيلة مُحكمة تماماً »[١٣٤] فإن هذا العالم من نفس العنصر . لقد قلت في « دوريان جراي »[١٣٥] إن خطايا العالم الكبيرة تتخذ محلها في المخ . وأقول إن كل شيء يتخذ مكانه في هذا المخ . إننا نعلم الآن أننا لا نرى بالعين ولا نسمع بالأذن ؛ فما كانت هذه الأعضاء إلا مجرد مجاري لتوصيل الانطباعات الحسية ، صحيحة كانت أو غير صحيحة . ففي المخ يكون الخشخاش أحمر ، وفيه تكون التفاحة ذات عبير ، وفيه تغنى القنبرة .

لقد عكفت أخيراً على دراسة القصائد النثرية الأربع عن المسيح في شيء من النشاط . وحينما حل عيد الميلاد كنت دبرت الأمر لكي أحصل على نسخة باليونانية من الكتاب المقدس وفي كل صباح ، بعد أن أقوم بتنظيف زنزانتي وتلميع آنيتي الصفيح ، أقرأ قليلا من الأناجيل ، اثني عشر سفرا أو نحوها ، أعمد إلى قراءتها من أي مكان وكيفما اتفق . إن هذا طريق سار لافتتاح اليوم . أما بالنسبة إليك ، في حياتك الهائجة التي لا تخضع لنظام ، فإنه يكون شيئاً عظيما إذا استطعت أن تفعله ؛ فهو لن يقف بك عند نهاية من الأمور الحسنة . ثم إن اليونانية في منتهى البساطة . إن التكرار المملول الذي لا يقف عند حد ، والذي يحدث في وقته وفي غير وقته ، قد أتلف ما في الأناجيل من براءة ونضارة ، وجعلنا لا نشعر

Twitter: @abdulllah1994

بما فيها من سحر رومانتيكي بسيط . اننا نسمعه غالباً أكثر مما يجب ، ونرى أنه أسوأ مما ينبغي . ثم إن كل تكرار يتعارض مع ما يتصل بالروح . أما عندما يرجع المرء إلى اللغة اليونانية فإنه يشعر كأنما هو يسير في حديقة من الزنبق خارج بيت ضيق مظلم .

وبالنسبة إلى ، فإن سروري يتضاعف لاعتقادي أن من المحتمل جداً اننا نقرأ الكلمات الحقيقية التي استعملها المسيح . لقد كان هناك فكرة دائماً بأن المسيح كان يتكلم الآرامية . حتى « رينان » نفسه كان يعتقد ذلك . غير أننا نعلم الآن أن الفلاحين من قرية الجليل كانوا يتكلمون لغتين كما هو حال الفلاحين الإيرلنديين في أيامنا . وكانت الإغريقية لغة التخاطب العامة ، لا في فلسطين وحدها بل في العالم الشرقي كله . إنني لا أحب أبداً مثل هذه الفكرة ، وهي اننا لم نعلم من كلمات المسيح إلا ما جاءنا عن طريق ترجمة عن ترجمة . بل على العكس يسرني أن أعتقد ، بمقدار ما يعني الأمر أحاديثه ، أن «خارميدس Charmides»(١٣٦) ربما كان قد أصغى إليه ، وأن سقراط كان يباحثه ، وأن أفلاطون قد فهمه ، وأنه حقيقة قد قال : « أنا الراعي الصالح(*) »(١٣٧) ، وأنه حينما نظر إلى زهور الزنبق في الحقل فرأى أنها لا تكدح ولا تدور عبر عن ذلك بقوله : « انظروا إلى الزنبق في الحقل كيف ينمو بغير أن يكدح وبغير أن يدور ! »(١٣٨) ، وان كلمته الأخيرة حينما صاح قائلا : « إن

(*) خارميدس Charmides هو إحدى الشخصيات التي جاءت في « محاورات أفلاطون »

(*) وردت هذه الجملة باليونانية ، كما جاء غيرها في هذا الموضع . ارجع إلى التعليقات . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

حياتى قد تمت ... إنها وصلت إلى إنجازها ... أنها قد كملت » كانت بالضبط كما يقص علينا القديس يوحنا : « لقد انتهى الأمر(*) »(١٣٩) ، ولم يعد هناك شيء آخر .

وبينما أرى فى قرائتى للأناجيل ، وعلى الأخص إنجيل القديس يوحنا أو أي سفر قديم حمل إسمه ورداءه — بينما أرى هذا التوكيد المستمر المخيلة كأساس للحياة من جميع نواحيها الروحية والمادية ، أرى أيضاً أنها ، بالنسبة إلى المسيح ، كانت صورة من الحب ، كما أرى أن الحب بالنسبة إليه كان سيدا بكل ما فى الكلمة من معنى .

قبل نحو ستة أسابيع رخص لى الطبيب بأن أتناول من الخبز الأبيض بدلا من الخبز الأسود الخشن المفروض فى طعام السجن بصورة عامة . فكان فى هذا لذة عظيمة . وقد يدهشك أن يكون الخبز الجاف لذة لأى إنسان . فأؤكد لك أنه كذلك بالنسبة إلى . فقد كنت بعد كل وجبة أعنى بالتهام ما ترك منه على طبق الصفيح من فتات أو ما تساقط على المنشفة الخشنة التى تغطى المائدة . وكنت أفعل ذلك لا بدافع من الجوع ، فأنا الآن أحصل على قدر كاف من الطعام ، بل لمجرد المحافظة على الشيء الذى أعطيته كاملا . هكذا يجب أن ينظر إلى الحب .

إن المسيح ، ككل الشخصيات الساحرة ، قد أوتى المقدرة لا ليقول هو نفسه أشياء جميلة وحسب بل ليجعل الآخرين يقولون له مثل هذه الأشياء الجميلة . وإنى أحب القصة التى يخبرنا بها القديس مرقص عن المرأة الإغريقية التى حينما قال لهـا المسيح — وكان الأمر اختباراً لإيمانها — انه لا يستطيع أن يعطيها من خبز بنى اسرائيل ردت عليه

(*) هذه العبارة وما قبلها وردت باليونانية . وهى مقتبسة من الكتاب المقدس . ارجع إلى التعليقات فى آخر الكتاب . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

بقولها إن الكلاب الصغيرة القابعة تحت المائدة تأكل من الفتات الذى يتساقط من الأطفال(١٤٠) . أكثر الناس يعيشون للحب والإعجاب . وإنما الصحيح أن نعيش بالحب والإعجاب(١٤١). إذا أظهر لنا أى حب يجب أن ندرك أننا لسنا جديرين به . ليس هناك من هو جدير بالحب . أما الحقيقة القائلة بأن الله يحب الانسان فإنها تدل على أنه، فى النظام القدسى للأشياء المثالية ، كتب أن يمنح الحب الخالد لمن لا يستحقه فى خلود . فإذا بدت هذه العبارة أشد مرارة مما تحتمل فدعنى أقول أن كل واحد مستحق للحب إلا ذلك الذى يعتقد أنه يستحقه . إن الحب ضرب من التقديس، فيجب أن يتلقاه المرء راكعاً ، وأن يتلقاه بينما تعمر قلبه هذه الكلمات وتضطرب بها شفتاه : « ياإلهى ! لست مستحقاً » . أود لك أن تفكر أحياناً فى ذلك . فأنت فى أشد حاجة إلى مثل هذا التفكير .

إذا قدر لى أن أكتب ثانية قط ، أعنى فى مجال الأعمال الفنية ، فهناك بالضبط موضوعان أرغب فى التعبير عن نفسى من خلالها . الأول هو : « المسيح كرائد الحركة الرومانتيكية فى الحياة » ، والثانى هو : « الحياة الفنيه من وجهة نظر علاقتها بالسلوك » . والأول ساحر للغاية بطبيعة الحال : وذلك لأنى أرى فى المسيح لا عناصر المثال الرومانتيكى العظيم وحسب بل جميع المصادفات، وحتى التصميمات، المزاج الرومانتيكى. لقد كان أول من قال للناس إن حياتهم يجب ألا تختلف عن حياة الزهور . لقد ثبت العبارة ؛ فقد أخذ الأطفال على أنهم المثال الذى يجب أن تكون عليه حياة الناس ، ورفعهم كأمثلة لمن هم أكبر منهم . وهو ما فكرت أنا نفسى دائماً فى أن يكون الاستعمال الغالب للأطفال ، إذا كان الشيء الكامل يحتمل استعمالا . إن « دانتى » يصف خروج روح الانسان من يد الله فيقول إنها تخرج « وهى تبكى وتضحك كما

Twitter: @abdulllah1994

يفعل الطفل الصغير »[١٤٢] ؛ وكذلك رأى المسيح أن روح الانسان يجب أن تكون . لقد شعر بأن الحياة متغيرة ، سائلة ، ناشطة ؛ وأنه إذا سمح لها بأن تتجمد فى أى شكل فإن معنى هذا هو الموت . لقد قال ان الناس يجب ألا يكونوا جادين أكثر مما ينبغى فى سعيهم إلى الفوائد المادية والأهداف العامة ؛ وإنه إذا استطاع الانسان أن يكون غير عملى فإن هذا شىء عظيم . وهو يرى أن الانسان يجب الا يقلق باله كثيراً حول شئون الحياة . « إن الطيور لا تفعل ذلك ، فلم يفعله الانسان ؟ » وهو يبدو ساحراً إذ يقول : « لا تفكر فى الغد ! أو ليست الروح أعظم من القوت ؟ أوَ ليس الجسد أعظم من الثوب ؟ »[١٤٣] . ربما نطق مفكر إغريقى بالجملة الأخيرة ؛ فهى مفعمة بالشعور الاغريقى. غير أن المسيح وحده هو الذى استطاع أن يقول الجملتين معا ، وبذلك أجمل لنا الحياة بصورة تامة .

إن الناحية الأخلاقية فيه هى الوجدانية ، وهو بالضبط ما يجب أن تكون عليه الناحية الأخلاقية . فإذا كان الشىء الوحيد الذى قاله قط هو « إن خطاياها قد اغتفرت لها لأنها أحبت كثيراً » فإن هذه الجملة تستحق أن يموت المرء فى سبيل التصريح بها. أما عدالته فإنها شاعرية ؛ تماماً كما يجب للعدالة أن تكون . إن السائل يذهب إلى النعيم لأنه لم يكن سعيداً . لا أستطيع أن أتصور سبباً أقوى لإرساله إلى النعيم . ان الذين يعملون فى مزرعة لمدة ساعة فى برد الليل يلقون نفس الجزاء الذى يلقاه غيرهم ممن يعملون هناك طوال اليوم فى دفء الشمس . ولم لا يحصلون على نفس الجزاء ؟ لم يكن هناك من يستحق أى جزاء . أو ربما كانوا نوعا آخر من البشر. لم يكن لدى المسيح صبر على النظم الآلية الميتة الجامدة التى تتحكم فى حياة الناس كما لو كانوا أشياءً ، وتتحكم فى

Twitter: @abdulllah1994

حياة كل واحد بالمثل ، أو كل شيء لذلك الغرض ، كما لو كان شيئاً آخر في العالم . لم يكن هناك قوانين بالنسبة إليه ، بل كان هناك استثناءات فقط .

وذلك الذي هو بمثابة الأساس الحقيقي بالنسبة إلى الفن الرومانتيكي كان بالنسبة إليه القاعدة الصالحة للحياة العملية . فعندما جاءوا إليه بواحدة أخذت من صميم « الخطيئة » وأطلعوه على حكم القانون فيها مكتوباً ، ثم سألوه ما يراه هو في هذا الأمر ، مضى يخط بأصبعه على الأرض كما لو كان لا يحس وجودهم . فإذا ما مضوا يلحون عليه مرة بعد أخرى رفع رأسه ثم قال لهم : « دعوا ذلك الذي لم يخطىء منكم قط يكون أول من يقذفها بحجر ! » لقد استحق العيشُ الاهتمامَ إذ قيل ذلك .

لقد أحب الجهلاء ، كما فعل جميع أصحاب الطبائع الشعرية . فقد علم أن نفس الجاهل مفتوحة دائماً لقبول فكرة عظيمة . غير أنه لم يستطع أن يحتمل غباوة الأغبياء ، خصوصاً أولئك الذين جعل التعليم منهم أغبياء ... أناساً امتلأت عقولهم بأفكار لا يفقهون منها شيئاً ... نوعاً جديداً بصورة خاصة ، ونوعاً أجمل المسيح حقيقته حينما وصفه بأنه أوتي مفتاح العلم فلم يستطع أن يستعمله ولم يترك غيره يفعل ، مع إن ذلك ربما أدى إلى فتح باب مملكة الله ! لقد كانت حربه الكبرى ضد الماديين(*) : وتلك كانت الحرب التي وجب على كل وليد من النور

(*) الكلمة هنا ترجمة لكلمة Philistine التي استعملها وايلد أكثر من مرة بالمعنى الذي اتخذ لها اصطلاحاً في اللغات الأوروبية ، وهو ما يدل على الطبيعة التي لا تهتم إلا بالماديات . أما أصل الكلمة فيرجع إلى قوم من قدامى آسيا هم الفلسطينيون، الذين ربما كانوا متجانسين مع طوائف الـ « بيلاسج Pélasges » =

Twitter: @abdulllah1994

أن يشنها . لقد كانت المادية هى النغمة السائدة فى عصره وبيئته . ففى جموده الثقيل عن الوصول إلى الآراء ، وفى اعتباره المظلم، وفى استقامته المملة ، وفى عبادته للنجاح السوقى ، وفى انشغاله الـكلى بالجانب المادى من الحياة بصورة بالغة الخشونة ، وفى تقديره المضحك لنفسه ولأهميته ، كان يهودى أورشليم فى عصر المسيح صورة مقابلة للبريطانى المادى فى هذا العصر. لقد سخر المسيح من « القبور المبيضة » التى كانت تتخذ من باب التمييز والاكبار ، وثبّت هذه العبارة إلى الأبد . وقد عالج النجاح الدنيوى كشىء يجب أن يحتقر بصورة تامة ، إذ لم ير فيه شيئاً بتاتا ؛ ونظر إلى الثروة على أنها من عوامل تعويق الانسان ؛ ولم يكن يسمع بالحياة وقد ضحى بها فى سبيل نظام من الأفكار أو منهج من القيم الأخلاقية ؛ وأشار إلى أن الشكليات والاحتفالات إنما وجدت للانسان ولم يوجد لها الانسان . وأخذ « السبتية »(*) على أنها شىء لا قيمة له ؛ وأبدى احتقاراً شديداً حينما تعرّض لما كان متبعاً من طرق باردة فى إظهار محبة البشر ومفاخرة مبهجة فى تقديم الاحسان علانية ،

= وكانوا قوماً من البدائيين شغلوا أراضى اليونان فى عصور ما قبل التاريخ . أما الفلسطينيون فقد انحدروا من كريت نحو الشرق . وبعد أن أخضعوا على يد رمسيس الثالث استقروا فى المنطقة ما بين سوريا والبحر المتوسط ويافا . وكانت مدنهم الرئيسية : غزة ، وعسقلون ، وأشدود ، وعكرون ، وجاد. وقد استطاعوا أن يتعسفوا باسرائيل غير أنهم اضطروا بدورهم إلى الخضوع لليهود . وبعد أن تم قهرهم على يد شاؤول وداود دخلوا فى خصومات مع الأشوريين، وعلى الأخص مع ملكهم « سرجون Sargon » . ومنذ منتصف القرن السابع أخذوا يخرجون من التاريخ . « المترجم »

(*) السبتية هى مذهب اليهود فى تخصيص اليوم السابع من الأسبوع ، وهو يوم السبت ، للعبادة بصورة بالغة التشديد . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

كما احتقر الشكليات المملة ، وكانت من أهم الأشياء فى تفكير الطبقة الوسطى . اننا ننظر الآن إلى ما يسمى بالاستقامة (Orthodoxy) على أنها مجرد اذعان بسهولة فى غباوة . غير أنها لم تكن كذلك فى نظر معاصرى المسيح ، بل كانت فى أيديهم وسيلة من الاستبداد الفظيع المشل لكل حركة . وقد اكتسحها المسيح من الطريق ، فقد أظهر أن الروح وحدها هى التى تركزت فيها الأهمية . وكان يشعر بسرور عظيم حينما مضى يبين لهم أنهم وإن كانوا يقرأون القانون ويطلعون على ما يأتى به الأنبياء إلا أنهم فى الواقع لم يكن لديهم أقل فكرة عما عناه هذا أو ذاك . وفى معارضة لتجزئتهم اليوم بمنتهى الدقة على البرنامج المحدد من الواجبات الموضوعة ، كما لو كانوا يجزئون عقاراً فى وصفة طبية ، مضى يعظ بالأهمية البالغة لجمل العيش بمضى للحظته بصورة تامة .

أما أولئك الذين أنجاهم من خطاياهم فقد نجوا ببساطة من أجل لحظات جميلة من حياتهم . فمريم المجدلية حينما تراه تفزع إلى تحطيم الأصيص المرمرى الثمين ، وقد أهداه إليها واحد من عشاقها السبعة ، ثم تعمد إلى صب العطر الشذى على قدميه المتعبتين المعفرتين بالتراب . من أجل تلك اللحظة قدر لها أن تعيش إلى الأبد مع « روث » و « بياتريس » بين خمائل الورود الناصعة البياض فى الفردوس(١٤٤) . كل ما يقوله لنا المسيح فى أسلوب من التحذير الهين هو أنه يجب علينا أن نجعل كل لحظة من حياتنا جميلة ، لتكون الروح دائماً على استعداد لمجىء العريس ... دائماً فى انتظار صوت المحب أما المادية فهى بالتعبير البسيط ذلك الجانب من طبيعة الانسان الذى لم تضئه المخيلة . فهو يرى أن جميع المؤثرات الجميلة فى الحياة حالات من النور . وأن المخيلة نفسها هى نور العالم . فقد صنع العالم بواسطتها ، ومع ذلك فإنه لايفهمها ! ذلك

Twitter: @abdulllah1994

لأن المخيلة ببساطة هى كشف من الحب . وأن الحب ، وما له من طاقة ، هو الذى يميز إنساناً من آخر .

غير أنه لم يكن فى حالة من الرومانتيكية القوية فى أصدق معانيها كما كان حينما مضى يعالج موضوع الخاطىء . فقد أحب العالمُ القديسَ دائماً لكونه أقرب دنو ممكن من كمال الله . أما المسيح فبفعل بعض الغرائز القدسية فيه ، كما يبدو ، أحب الخاطىء دائماً لكونه أقرب دنو ممكن من كمال الانسان . لم تكن رغبته الأولى فى إصلاح البشر أشد مما كانت فى التخفيف من آلامهم . لم يكن هدفه أن يحول لص يثير الاهتمام إلى تقى يسبب الإملال . ولا شك فى أنه لم يكن يفكر إلا قليلا فى المنشئآت الخيرية ، كجمعية مساعدة المساجين أو غيرها من الحركات الحديثة . ولم تكن هداية واحد من الخمارين إلى آخر من الفريسيين(*) عملا عظيماً فى نظره بأى حال. غير أنه ، فى أسلوب لايزال العالم عاجزاً عن إدراكه ، كان يعتبر الخطيئة كالألم ، شيئاً جميلا ، بل شيئاً مقدساً ، كحالات من الكمال . ومثل هذه الفكرة قد تبدو جد خطيرة . وهى فعلا كذلك . فجميع الآراء العظيمة خطيرة . وهو ماسلمت به عقيدة المسيح بغير شك . أما أن تكون هذه العقيدة صحيحة فهذا مالا يخامرنى فيه شك .

بالطبع يجب على الخاطىء أن يندم . ولكن لماذا ؟ لأنه ، ببساطة لن يكون قادراً فى غير هذه الحالة على تمييز ما فعل ؛ فلحظة الندم هى لحظة التثبيت . أكثر من ذلك ، الوسيلة التى بها يستطيع المرء أن يغير ماضيه . لقد اعتقد مفكرو اليونان أن ذلك من المستحيلات . فقد كانوا يقولون غالباً فى أمثالهم السائرة انه « حتى الآلهة لا تستطيع أن تغير

(*) الفريسون هم كتبة اليهود وأحبارهم فى ذلك العهد . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

الماضى »(١٤٥) . أما المسيح فقد رأى أن أبعد الخطئين انحرافاً يستطيع أن يفعل ذلك . بل إن هذا هو الشيء الذى يستطيع فعله . ولو كان سئل لكان أجاب ، بكل تأكيد ، بأنه فى اللحظة التى يركع فيها الفتى المسرف ويبكى على ما أضاعه من حيويته مع بنات الهوى ، وقد كان فى ذلك كمن يطعم جياعاً بالحسك ، يجعل من ذلك الماضى مصادفات جميلة ومقدسة فى حياته . إن من الصعب على أكثر الناس أن يدركوا هذه الفكرة . فأستطيع أن أقول إن المرء ، لكى يدركها ، يجب أن يذهب إلى السجن . فإذا كان الأمر كذلك فربما كان ثمة فائدة فى الذهاب إلى السجن .

هناك شيء فريد فى نوعه حول المسيح . فكما أن هناك ، بطبيعة الحال ، فجر كاذب قبل الفجر ، وكما أنه يحدث فى بعض أيام الشتاء أن تسطع أضواء الشمس فجأة فتخدع الزعفران العاقل وتحمله على أن يبذّر فى ذهبه قبل الأوان ، وتجعل الغبى من الطيور يصيح بأنثاه ليبنيا عشهما فوق الأغصان العارية ، كذلك كان هناك مسيحيون قبل المسيح وهو شيء يجب أن نشكر الله عليه . أما الشيء الذى لا يسعنا إلا أن نعتبره من سوء الحظ فهو أنه لم يكن هناك واحد منذ ذلك الحين . كلا ، بل إننى أستطيع أن أجد واحداً ، وهو القديس « فرانسيس الأسيسى »(*) . فقد أعطاه الله فى مولده روح الشاعر واتخذ هو فى عنفوان شبابه من الفقر عروساً فى صورة من الزواج الصوفى . وهكذا بنفس شاعر وجسد شحاذ لم يجد صعوبة فى طريق الكمال . لقد فهم

(*) القديس فرانسيس الأسيسى هو مؤسس مذهب الرهبنة الفرنسسكانى . ولد فى « أسيسى Assise » بمقاطعة « امبرى Ombrie » بإيطاليا ، وعاش من عام ١١٨٢ إلى ١٢٢٦ . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

المسيح فاستطاع أن يكون على غراره ، ولسنا فى حاجة هنا إلى « كتاب المطابقة Libre Conformitatum » [١٤٦] لنعلم منه أن حياة القديس فرانسيس كانت محاكاة صادقة لحياة المسيح . فالكتاب الذى يحمل ذاك الإسم إذا قورن بأى قصيدة لن يختلف عنها فى شىء إذا كانت من الشعر المنثور . والحق إن هذا هو السحر حول المسيح ، إذا قيل كل شىء . فهو فيه يبدو كعمل فنى هو نفسه . وهو فى الواقع لا يعلم الناس شيئاً ، ولكن بوجود المرء فى حضرته يشعر بأنه أصبح شيئاً . وقد قدّر على كل واحد أن يكون فى حضرته . وكل إنسان سيمضى معه إلى « عماوس »(*) مرة فى حياته على الأقل .

أما الموضوع الثانى ، وهو علاقة الحياة الفنية بالسلوك ، فلا شك أنه سيدهشك أن ترانى اخترته . فالناس يشيرون إلى « سجن ريدنج » قائلين : « ها هنا قادت الحياة الفنية رجلا » . حسناً ، ربما قادت الحياة الفنية المرء إلى مواضع أسوأ . فالآليون من الناس ، أولئك الذين ينظرون إلى الحياة على أنها تأمل ذكى يعتمد على حساب دقيق للطرق والوسائل ، هؤلاء يعلمون دائماً أين يذهبون ، ويذهبون فعلا إلى حيث يريدون . إن الواحد منهم يبدأ راغباً فى أن يكون شماساً فى كنيسة ؛ وأينما طوحت به المقادير فهو ينجح فى أن يكون شماساً فى كنيسة ، ولا شىء أكثر، فالشخص الذى يرغب فى أن يكون شيئاً ما منفصلا عن ذاته ،كأن يكون عضواً فى البرلمان ، أو بدّالا ناجحاً ، أومحامياً لامعاً ، أو قاضياً ، أو أى شىء لا يقل إملالا ، هذا الشخص ينجح بصورة لا متغيرة فى أن يكون ما أراد . وهذا هو عقابه . فأولئك الذين يريدون

(*) عماوس Emmaus هو المكان الذى ظهر فيه المسيح لتلاميذه لأول مرة بعد قيامه . وكان على مقربة من أورشليم . ويدعى « كفر يهودا » « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

قناعاً يجب أن يرتدوه . غير أن الأمر يختلف مع القوى المحركة للحياة وأولئك الذين تجسدت فيهم هذه القوى . فالأشخاص الذين انحصرت رغبتهم فى تمييز أنفسهم لا يعرفون أبداً إلى أين يذهبون. إنهم لا يستطيعون أن يعرفوا ذلك . فى واحد من معانى الكلمة من الضرورى ، بالطبع ، أن يعرف المرء نفسه ، كما قال وحى الاغريق(١٤٧) . غير أن هذا هو الانجاز الأول من المعرفة . أما الانجاز النهائى من الحكمة فهو أن يدرك الانسان أن نفسه لا يمكن أن تدرك فالسر النهائى هو النفس الانسانية . ولا عجب ، فعندما وضع الانسان الشمس فى كفة الميزان ، وقاس خطى القمر ، ووضع خريطة لنجوم السماوات السبع نجماً بعد آخر ، بقيت نفسه بعيدة عن هذا المنال . فمن ذا الذى يستطيع أن يضع حساباً لمدار نفسه ؟ لقد خرج ابن « كيش Kish » ليبحث عن حمير أبيه وهو لا يعلم أن هناك رسولا من عند الله فى انتظاره ومعه زيت التتويج وأن روحه كانت من قبل روحا للملك .

إنى أرجو أن أعيش مدة كافية ، لأستطيع إخراج عمل يجعلنى طبيعته قادراً فى نهاية أيامى على أن أقول : « بلى ، فهذا بالضبط هو المكان الذى تقود إليه الحياة الفنية » . من أكمل ما صادفته فى تجريق حياة اثنين : « ڤرلين Verlaine » والأمير « كروبوتكين Kropotkin » وكل منهما أمضى فى السجن عدداً من السنين . أما الأول فيعتبر رأس الشعراء المسيحيين بعد « دانتى » ؛ وأما الآخر فقد كان رجلا معه روح ذلك المسيح الأبيض الجميل الذى يبدو قادما من روسيا(١٤٨) . وطوال الشهور السبعة أو الثمانية الأخيرة ، بالرغم من المتاعب الكبيرة المتلاحقة التى جاءتنى من العالم الخارجى بغير انقطاع تقريباً ، وجدت نفسى فى اتصال مباشر بروح جديدة مضت تعمل فى هذا السجن من خلال الرجال

Twitter: @abdulllah1994

والأشياء ، فأدت إلىّ مساعدة يعجز القلم عن وصفها . فقد كنت خلال العام الأول من مدة سجنى لا أستطيع أن أفعل شيئاً إلا أن أعصر يدى فى يأس واهن وأقول : « يا لها من نهاية ! يا لها من نهاية مريعة » . أما الآن فإننى أحاول أن أقول : « يا لها من بداية ! يا لها من بداية عجيبة » . بل إننى أقول ذلك فعلا ، وأقوله فى إخلاص ، وذلك حينما لا أكون ماضياً فى تعذيب نفسى . ربما كان الأمر حقا كذلك ، بل ربما صار فعلا إلى ذلك . فإذا حدث ، فإننى سأكون مديناً بالكثير لهذه الشخصية الجديدة التى استطاعت أن تغير حياة كل إنسان فى هذا المكان(١٤٩) .

إن الأشياء فى حد ذاتها ليس لها من قيمة . بل إنها فى الواقع — ولنشكر علوم الميتافيزيقا على ما تعلمناه منها — ليس لها وجود حقيقى . فالروح وحدها هى التى لها كل الأهمية . ربما وُقّع العقاب بطريقة تجعل منه علاجا بدلا من أن تحدث جرحاً . وكذلك ربما جاء الإحسان بطريقة يتحول بها الخبز فى يد المحسن إلى حجر . فإذا كان هناك تغيير ، والتغيير هنا ليس فى القواعد ، فقد ثُبّتت بواسطة سلطة حديدية ، بل بالروح التى تجعل من تلك القوة وسيلة للتعبير عن ذاتها - فإنك تستطيع أن تدركه حينما أقول إنه لو حدث أن أطلق سراحى فى مايو الماضى ، كما حاولت أن يكون الأمر ، لخرجت وقد امتلأت النفس اشمئزازاً من هذا المكان وكل موظف فيه ، ممزوجا بمرارة من البغض تكفى لتسمم حياتى . لقد طالت مدة عقوبتى عاما آخر ، غير أن الإنسانية كانت دائما فى السجن معنا جميعا . وحينما أخرج سأذكر كل شىء من الشفقة العظيمة التى لقيتها هنا من كل واحد تقريبا . وفى

Twitter: @abdulllah1994

اليوم الذى سيطلق فيه سراحى سأوجه شكرى إلى أفراد كثيرين . وأطلب إليهم أن يذكرونى بدورهم .

إن نظام السجن خطأ من أوله إلى آخره . وعندما أخرج سأعطى أى شىء لأستطيع تغييره . لقد صممت على القيام بهذه المحاولة . غير أنه لا يوجد شىء فى العالم ، مهما بلغ فيه الخطأ ، لا تستطيع الروح الإنسانية ، روح الحب ، روح المسيح الذى لا يوجد فى الكنائس ، إن لم تجعله فى وضعه الصحيح ، أن تجعله على الأقل مما يمكن احتماله بغير كثير مرارة من القلب .

إننى أعلم أيضا أن ما هو فى انتظارى فى الخارج سارّ جدا : من الأشياء التى يسميها القديس فرانسيس الأسيسى « أخى الريح » و « أختى الأمطار » ، وكلاهما محبوب ، إلى واجهات المخازن التجارية ومغارب الشمس فى المدن الكبيرة . والواقع أننى لو وضعت قائمة بكل ما لا يزال فى انتظارى ما علمت أين أقف . وذلك لأن الله ، فى الحقيقة ، قد جعل هذا العالم لى بقدر ما جعله لغيرى . ربما استطعت أن أخرج من هذا المكان بشىء لم أكن حصلت عليه من قبل . ولست فى حاجة إلى إخبارك بأن الاصلاحات فى الأخلاقيات ، كما هى فى اللاهوت ، لا تعنى شيئاً فى نظرى ، وهى لا تخرج عن نهج العوام . ولكن بينما لا يزيد تدبير من يرى أن يكون رجلا أفضل عن قطعة من التصنع القائم على الجهل ، فإن الوصول إلى حالة رجل أكثر عمقا من ميزات أولئك الذين تعذبوا . وأعتقد أننى وصلت إلى ذلك . فأترك لك الحكم .

لو حدث بعد خروجى أن أقام صديق وليمة ولم يدعنى إليها ، فإننى لن أقيم وزناً لذلك ؛ إذ سأستطيع أن أكون سعيداً جداً فى وحدتى .

Twitter: @abdulllah1994

وإلا فمن ذا الذى لا يكون سعيداً مع الحرية ، والكتب ، والزهور ، والقمر ؟ فضلا عن ذلك فإن الولائم لم تعد تعنينى ؛ فقد أقمت منها الكثير ، فلم أعد أحفل بها . وقد انتهى هذا الجانب من الحياة بالنسبة إلى ؛ وهو ما أعتبره من حسن الحظ . ولكن لو حدث بعد خروجى أن كان هناك صديق يعيش فى الحزن ثم رفض السماح لى بأن أشاطره حزنه ، فسأشعر بمنتهى الألم . فإذا أغلق دونى باب بيت أحزانه فسأعود ثانية وأوجه الرجاء ، ليسمح لى بأن أساهم فيما أصبح من حق المساهمة فيه . فإذا رآنى غير جدير بالبكاء معه فسيكون فى ذلك أشد أنواع التحقير ، بل إنه سيكون أفظع ما يمكن أن يصيبنى من عار . غير أن هذا لا يمكن أن يحدث ؛ فقد أصبح لى الحق فى أن أساهم فى الحزن . فذلك الذى يستطيع أن ينظر إلى جمال العالم ، وأن يساهم فى أحزانه ، وأن يدرك ما فى الاثنين من أمر عجيب ، هو فى الواقع فى اتصال مباشر بالأشياء المقدسة ، وهو قد اقترب من السر الالهى بقدر ما يستطيع أى واحد أن يقترب .

ربما جاء فى فنى أيضاً ما لا يقل عما يأتى فى حياتى من نغم قد يأتى أبعد عمقاً ، وجرس أكثر توافقاً فى الانفعال ، وأشد استقامة فى الباعث . إن الهدف الحقيقى للفن الحديث لا الاتساع بل الكثافة . إننا فى الفن لم نعد نهتم بالمثال ، بل يجب أن نحصر اهتمامنا فى الاستثناء . إننى لا أستطيع أن أضع آلامى فى أى صورة جاءت فيها ، وهو ما لا حاجة بى إلى قوله . إن الفن يبدأ فقط حيث ينتهى التقليد . غير أن شيئاً ما يجب أن يأتى فى عملى . ربما جاء فى كلمات أقرب تآلفا ، أو فى نغمات أقوى إثارة ، أو فى مؤثرات من التلوين أشد غرابة ، أو فى ترتيب

Twitter: @abdulllah1994

من البناء أكثر بساطة ، أو ربما جاء فى بعض الصفات من فلسفة الفن بأى حال .

عندما حدث لـ « مارسياس » أن « أخرج من جراب أطرافه » della Λagina della membre sue[١٥٠] ، باستعمال واحدة من أفظع جمل «دانق» وأبعدها إضماراً — لم يعد لديه أى أغنية . هكذا قال الاغريق . فقد انتصر « أپوللو » ، وقهرت القيثارة القصبة . ولكن ، ربما كان الاغريق مخطئين . فالواقع إنى أسمع صرخة « مارسياس » فى كثير من الفن الحديث[١٥١] . فهى تأتى مُرة فى « بودلير » ، وهى تأتى شجية حلوة فى « لامرتين » ، وهى تأتى صوفية فى « ڤرلين » ، وهى تبدو فى التصميمات المؤجلة من موسيقى « شوبان » ، كما تبدو فى عدم الرضاء الذى ينتاب الوجوه المتواترة لنساء « بيرن ـ چونز » ، بل وحتى « ماثيو أرنولد » الذى تخبرنا أغنيته عن « كاليكل Callicles » بـ « انتصار القيثارة المستميلة الجميلة » و « النصر النهائى الشهير » فى مثل تلك النغمة الصافية من جمال الشعر الوجدانى — حتى أرنولد نفسه فى ذلك الهمس المضطرب من الشك والنغم الذى ينتاب شعره لم يكن لديه منها القليل[١٥٢] . ولم يستطع لا «جوته» ولا «وردسورث» أن يشفى جرحه ، مع أنه تبع كلا منهما بعد الآخر . وحينما يمضى فى البحث عن الحزن لأجل « ثيرسيس Thyrsis » أو للتغنى بـ « الغجرى الأديب » لا يجد إلا القصبة لترجيع أنغامه . ولكن سواء كان إله الرعاة الفريجيانى[١٥٣] صامتا أو لم يكن فانى لا أستطيع أن أكون . فكما أن الأوراق والزهور ضرورية للفروع السوداء من الأشجار المتبدية من فوق حائط السجن قلقة فى مهب الرياح ، كذلك التعبير لى من الضروريات . إن هناك الآن خليجا واسعا بين فنى وبين العالم ؛ غير أنه لا يوحد شىء بينى وبين الفن . أو إن هذا ما أرجوه على الأقل .

Twitter: @abdulllah1994

كلانا استوفى نصيبه من الحظ . فكان لك الحرية ، والسرور ، واللهو ، وحياة الراحة ، ولم تكن جديراً بذلك ؛ وكان لى الفضيحة العلنية ، والسجن الطويل ، والتعاسة ، والخراب ، والعار ، ولم أكن أيضاً جديراً بذلك ؛ حتى الآن على الأقل . أذكر أنى كنت أردد دائماً أن فى استطاعتى أن أتحمل أية مأساة حقيقية إذا جاءتنى ومعها بساط رحمة أرجوانى وقناع من حزن نبيل(١٥٤) . غير أن الشيء المفزع عن النزعة الحديثة أنها وضعت المأساة فى ثوب الملهاة ؛ فكانت النتيجة أن الحقائق العظيمة ظهرت كأشياء عادية أو مضحكة ، أو ناقصة فى الأسلوب . هذا صحيح تماما عن النزعة الحديثة . بل ربما كان صحيحاً على الدوام عن الحياة الواقعية . فقد قيل إن جميع الشهداء بدوا أخساء فى نظر الشاهد(١٥٥) . وليس القرن التاسع عشر بمستثنى من القاعدة العامة .

كل شيء عن مأساتى كان بشعاً ، سافلا ، منفراً ، ناقصاً فى الأسلوب . حتى ملابسنا نفسها تجعل منا أشياء مضحكة . فنحن بهاليل الحزن ، ونحن مضحكون تحطمت قلوبهم ، ونحن قد صنعنا خصيصاً لنكون مدعاة إلى السخرية . فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٨٩٥ جيء بى من لندن إلى هـذا السجن(١٥٦) . ومن الثانية حتى الثانية والنصف من ذاك اليوم أوقفت على الرصيف الأوسط من ملتقى الخطوط عند « كلافام Clapham » بينما كنت أرتدى ملابس المجرمين وأحمل فى يدى الحديد ، وذلك ليرانى العالم ! لقد أخذت من قاعة المستشفى بغير أن يدلى إلى بأى ملاحظة . فكنت فى موقف أعظم ما يمكن أن يثير السخرية . فعندما كان يرانى الناس كانوا يستغرقون فى الضحك . وكان كل قطار يصل يزيد فى عدد الشاهدين . ولم يكن هناك وسيلة أخرى تزيد فى سرورهم . وكان ذلك بالطبع قبل أن يعلموا من كنت .

Twitter: @abdulllah1994

فإذا ما علموا زادوا ضحكا . هكذا وقفت هناك لمدة نصف ساعة تحت مطر نوفمبر الأغبر ، ومن حولى حشد من السفلة يضحك ويتهكم . لقد لبثت طوال عام بعد تلك الحادثة أبكى كل يوم لمدة نصف ساعة وفى نفس الوقت . وقد يبدو لك هذا الأمر كما لو كان ليس فى شيء من المأساة . أما بالنسبة إلى من يعيشون فى السجن فإن الدموع جزء من تجربة كل يوم . فإذا انقضى يوم بغير بكاء كان يوماً تحجر فيه القلب ، فهو ليس باليوم الذى يقضيه المرء بقلب سعيد .

حسناً ، لقد بدأت الآن أشعر بمزيد من الأسف ، لا على نفسى بل على أولئك الذين ضحكوا منى . فحينما كانوا ينظرون إلى لم أكن بالطبع منتصباً على قاعدتى بل كنت واقعاً فى آلة القمط(*) . غير أن الطبيعة الفقيرة إلى المخيلة هى التى تعنى بالناس فقط حينما يكونون منتصبين على قاعدتهم . فربما كانت القاعدة لا تعنى شيئاً حقيقياً ، أما آلة القمط فإنها حقيقة مرعبة . لقد كان يجب عليهم أن يعلموا أيضاً كيف يترجمون الحزن بصورة أحسن . فقد قلت إن من وراء الحزن دائماً حزناً ؛ وكان من الأصوب أن أذهب أبعد فأقول إن من وراء الحزن دائماً نفساً . ولا شك أن السخرية من نفس فى الألم شيء مريع . فحياة أولئك الذين يفعلون ذلك لا تتسم بشيء من الجمال . ففى اقتصاد هذا العالم الغريب فى بساطته لا يحصل الناس على أكثر مما يقدمون . فأى شفقة يستطيع أن يحصل عليها أولئك الذين لم تمكنهم مخيلتهم القاصرة من اختراق ظاهر الأشياء والشعور بالشفقة ، إلا أن تأتيهم فى صورة من الاحتقار الشديد ؟

(*) الكلمة هنا هى Pillory ، وهى تشير إلى آلة تعذيب تدخل فيها الرأس واليدان ، كانت تستعمل فى القرون الوسطى . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

لقد أخبرتك بهذه القصة في بساطة ، مشيراً إلى الحالة التي كنت فيها وقت أن نقلت إلى هذا المكان ، لعلك تستطيع أن تدرك كيف صعب عليّ أن أحصل على شيء من عقوبتي إلا المرارة واليأس . وكان يجب أن أفعل على كل حال . أما الآن فإن لدى من حين لآخر لحظات من القبول والتسليم . إن الربيع ربما كان مختفياً كله في نوارة ، وإن عش القنبرة الأرضى المنخفض ربما اتسع لسرور يكفي للتبشير بمقدم فجر بعد آخر في صورة من الورود الحمراء . وهكذا مهما كان ما لا يزال باقياً لى من جمال الحياة فربما كانت تضمنته لحظات من الاستسلام ، والتذلل والخضوع . إننى أستطيع ، كيفما كان الأمر ، أن أتقدم على خطوط تطورى الشخصى فقط . وبقبول كل ما حدث لى أجعل نفسى جديراً بذلك .

لقد قال الناس عنى دائماً أنى كنت متغالياً في فرديتي . فأقول أنى يجب الآن أن أكون أكثر تغالياً . بلى ، يجب أن أذهب في الخروج من نفسى أبعد كثيراً مما كنت قط ، وأن أسأل هذا العالم أقل كثيراً مما سألته قط . والواقع إن ما حل بى من خراب قد جاء لا من التزايد في الفردية بل من الإقلال منها . فقد كان الفعل الوحيد المخزى في حياتى ، والذى لا يغتفر ، بل وسيبقى دائماً مبعثاً للاحتقار ، كان أن سمحت لنفسى بأن أقسر على الالتجاء إلى المجتمع للحصول على المساعدة والحماية ضد والدك . فمثل هذا الالتجاء إذا حدث ضد أى واحد يعتبر من وجهة نظر الفردى في منتهى السوء . ولكن ما هو العذر الذى يمكن أن يقدم إذا ما حدث ضد واحد في مثل تلك الطبيعة والمظهر ؟

ومرة يرانى المجتمع أضع قواه في الحركة فهو لا بد ملتفت إلىّ ليقول : « أو تعيش طوال هذا الزمن متحدياً قوانينى ثم تأتى الآن

Twitter: @abdulllah1994

طالباً منها حمايتك ؟ إنك ستحصل على تطبيقها بصورة كاملة ، وعليك أن تلتزم ما كنت تعتمد عليه ! » . والنتيجة أنى الآن فى السجن . وفى مجرى المحاكمات الثلاث التى تعرضت لها ، وقد بدأت فى محكمة الشرطة ، كنت أشعر فى مرارة بما فى وضعى من تهكم وعار حينما أرى أباك يدخل ويخرج فى ضجة مصطنعة لعله يسترعى التفات الجمهور ، كما لو كان كل واحد لن يستطيع أن يلاحظ أو يتذكر مشية سايس الاصطبل ولباسه ، وساقيه المقوستين ، ويديه المرتعصتين ، وشفته السفلى المتدلية ، وتلك التكشيرة البهيمية التى تدل على بلادة الطبع . وحتى حينما كان غير موجود أو بعيداً عن النظر كنت أشعر بوجوده . وكان وجهه الذى يحاكى وجه القرد قد تمثل فى أقنعة لا حصر لها غطت جدران القاعة الكبرى الكئيبة فى المحكمة ، بل وانسابت فى جو المكان ، متطلعة كلها إلىّ . والحقيقة أن شخصاً ما لم يقع هكذا بسفالة كما فعلت ، ويقع بمثل هذه الوسائل السافلة . لقد قلت فى بعض مواضع « دوريان جراى »[١٥٠٦] إن « أى رجل لا يستطيع أن يكون دقيقاً فى اختيار أعدائه » . والواقع أنى لم أكن أتصور أن منبوذاً يستطيع أن يجعل منى منبوذاً أنا نفسى .

أما ذلك الحث ، وذلك الضغط ، الذى لقيته منك لألتجىء إلى المجتمع طالباً المساعدة فإنه من بين الأشياء التى تجعلنى أحتقرك بشدة وأحتقر نفسى كذلك بشدة لاستسلامى لك. إن عدم تقديرك لى كفنان مما يمكن التجاوز عنه ، فهو أمر يرجع إلى المزاج ، وهو أمر لم يكن لك قدرة على علاجه . غير أنه كان فى استطاعتك أن تشعر بالتقدير لى كواحد من الفرديين . فهذا لم يكن يتطلب شيئاً من الثقافة . ولكنك لم تفعل ، وعليه فقد أدخلت عنصر المادية فى حياةٍ كانت احتجاجاً

Twitter: @abdulllah1994

كاملا على المـادية كما كانت إبادة كاملة لها من بعض وجهات النظر . إن العنصر المـادى فى الحياة لا يعتبر فشلا فى فهم الفن. فأولئك الساحرون من الناس ، كالصيادين ، والرعاة ، والحراثين ، والفلاحين ، وأمثالهم ، هؤلاء لايعرفون شيئاً عن الفن ، ومع ذلك فإنهم ملح الأرض الحقيق . وإنما المـادى هو ذلك الذى يؤيد قوى المجتمع الآلية العمياء المعوقة الثقيلة ويساعدها ؛ وهو ذلك الذى لا يميز القوة المحركة حينما يلتقى بها ، إما فى الانسان أو فى الحركة .

لقد اعتقد الناس أنه كان من الفظاعة منى أن دعوت إلى مائدتى تلك الأشياء الشريرة فى الحياة ، وأن وجدت سروراً فى صحبتها. غير أن هذه الأشياء ، من وجهة النظر التى وصلت من خلالها ، كفنان فى الحياة ، كانت ملهمة ومثيرة بصورة بالغة السرور . لقد كان الأمر كما يولم المرء مع بعض النمور . وكانت الخطورة نصف الإثارة . لقد كنت أشعر كما يشعر ساحر الثعابين حينما يعمد إلى إثارة « الكوبرا » لتتحرك من قطعة القماش الملونة أو من سلة البوص التى تكومت فيها ، ويجعلها تقيم رأسها وتتأرجح فى الهواء ، كما تتأرجح قطعة من نبات بهدوء فى مجرى ماء . لقد كانوا فى نظرى أبهى أنواع الثعابين المذهبة ؛ وكان سمهم جزءاً من كمالهم . ولم أكن أعلم أنهم حينما كانوا يضربون نحوى كان ذلك من أجل تزميرك وجعل أبيك . ولم أشعر قط بالخجل من كونى عرفتهم ، فقد كانوا مثيرين إلى أبعد حد . أما الذى أشعر بالخجل منه فهو الجو المـادى المريع الذى استطعت أن تدفعنى فيه . لقد كانت أعمالى كفنان مع « أريل Ariel » فإذا بك تضعنى لأتلاكم مع « كاليبان Calipan »(*) . وهكذا بدلا من أن أشغل نفسى بإخراج أشياء جميلة

(*) « أريل » و « كاليبان » شخصيتان لشكسبير فى تمثيلية « العاصفة » .
« المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

ذات ألوان وموسيقى، لـ « سالومى » و « المأساة الفلورنسية » و « البغى المقدسة » وجدت نفسى مقسراً على إرسال خطابات محاماة طويلة إلى والدك ، وإخضاع نفسى إلى الالتجاء إلى نفس الأشياء التى كنت دائماً أحتج عليها . إن « كليبورن Cliporn » و « ايتكنز Atkins » كانا بديعين فى حربهما التشهيرية ضد الحياة(١٥٨) . فكان تكريمهما مجازفة مدهشة . لقد كان من الممكن أن يفعل ذلك كل من « دوما الأب » و « تشلليني » و « جويا » و « إدجار الن پو » و « بودلير » . أما الشىء الذى تشمئز منه نفسى فهو ذكرى تلك الزيارات التى لا حصر لها، التى قمت بها فى صحبتك إلى المحامى « همفريز » ، حيث كنا نجلس بوجهين عابسين فى الضوء الباهت من الغرفة الكئيبة ، لندلى بأكاذيب جريئة إلى رجل أصلع ، ونفعل ذلك حتى أزفر وأتثاءب من الملل . هناك ، حيث وجدت نفسى بعد عامين من صداقتى معك فى قلب موطن المادية (Philistia) ، بعيداً عن كل شىء كان جميلا ، أو متألقا ، أو بديعا ، أو جريئا . ثم فى النهاية كان على أن أتقدم ، بالنيابة عنك ، كبطل الاعتبارية فى السلوك ، وفارس التطهيرية فى الحياة ، ورائد المبادىء الأخلاقية فى الفن ... إلى هنا ، حيث تؤدى الطرق المعوجة(*) (١٥٩) .

ثم إن الشىء العجيب فى نظرى انك قد حاولت أن تحاكى والدك فى صفاته الرئيسية . والواقع إننى لا أستطيع أن أفهم لماذا كان لك بمثابة المثال بينما كان يجب أن يكون بمثابة الإنذار ! لا أفهم ذلك إلا

(*) وردت هذه الجملة بالفرنسية ، كما فعل وايلد كثيراً فى هذه الرسالة : مرة بالفرنسية ، وأخرى بالإيطالية ، وثالثة باللاتينية ، ورابعة باليونانية . ارجع إلى التعليقات . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

حينما أضع فى اعتبارى هذه الحقيقة ؛ فحينما يكون هناك بغض بين شخصين تكون هناك صلة من الأخوة من نوع ما . وإنى أفترض أنه بفعل بعض القوانين الغريبة لتنافر المتشابهات فإن كلا منكما يشمئز من الآخر ؛ لا لأنكما تختلفان فى نقاط كثيرة بل لأنكما تتفقان فى البعض . فى يونيو ١٨٩٣ ، حينما تركت أكسفورد بغير أن تحصل على درجة ، مخلفا وراءك ديونا إن لم تكن كبيرة فقد كانت كذلك فى نظر رجل فى حالة والدك الإقتصادية ، تلقيتَ منه خطاباً سوقياً ، عنيفاً ، فاضحاً ؛ فلم يكن ردك عليه بأقل سوءا من كل جانب . وكان ما كتبت بالطبع أبعد مما يمكن التسامح فيه . وكنتيجة لذلك كنت فخوراً به للغاية . إنى أذكر جيداً قولك لى وأنت فى ذروة غرورك إنك استطعت أن تضرب والدك « بنفس بضاعته » ! صحيح تماماً . ولكن يالها من بضاعة ! ... يالها من منافسة ! لقد مضيت تضحك وتسخر من والدك ، فتركته فى منزل عمك حيث كان يقيم ، وذهبت إلى الفندق المجاور لتكتب إليه خطابات قذرة . وقد فعلت معى نفس الشىء ، فكنت تغدى معى على الدوام فى بعض المطاعم العامة ؛ فإذا أصابك العبوس ، أو اصطنعت مشاجرة على الطعام ، ذهبت إلى « هويت كلوب » فكتبت إلى خطابا قذراً . أما الفرق الوحيد بينكما فقد كان أنك تعودت بعد إرسال الخطاب مع رسول خاص أن تأتى بنفسك إلى مسكنى بعد ساعات قليلة ، لا لتعتذر بل لتسأل ما إذا كنتُ طلبت طعاماً من مطعم « سافوى » . فإذا لم يكن فلم لا. وكنت أحياناً تصل فى الواقع قبل أن أكون اطلعت على خطابك المؤذى ! إنى أذكر أنه حدث فى إحدى المناسبات أن سألتنى أن أدعو اثنين من أصدقائك إلى الغداء فى الـ « كافى رويال » . ولم أكن رأيت واحداً منهما قط فى حياتى . وقد فعلت . وبرجاء خاص منك طلبت

Twitter: @abdulllah1994

مقدماً إعداد طعام جيد بصورة خاصة . وأذكر أن الطاهى لم يكن موجوداً فأرسلوا فى طلبه ، وصدرت إليه تعليمات خاصة فيما يتعلق بأنواع النبيذ . ولكن بدلا من أن تأتى لتناول الغداء أرسلت إلى خطابا مقذعاً فى « الكافى » . وقد ضبطت الوقت ليتسنى وصوله بعد أن نكون أمضينا نصف ساعة فى انتظارك . وبقراءة أول سطر علمت ماذا جاء فى الخطاب ، فوضعته فى جيبى ومضيت أشرح لصديقيك أن المرض قد فاجأك ، وأن مضمون الخطاب يشير إلى أعراضه . والواقع أنى لم أقرأ ذلك الخطاب إلا حينما كنت أرتدى ملابسى لتناول العشاء فى « تايت ستريت » فى ذلك المساء . وبينما كنت فى وسط أوحاله ، وقد استولى على العجب والحزن من إقدامك على كتابة خطابات كان ما فيها كالزبد الذى يتضارب على شفتى مجنون ، جاء الخادم فأخبرنى أنك فى البهو فى انتظار السماح برؤيتى لخمس دقائق . فطلبتك فى الحال . فإذا بك تبدو مذعوراً باهت الوجه ، وإذا بك ترجو منى أن أبذل لك النصح والعون ، فقد بلغ أسماعك أن رجلا من « لملى Lumley » ، محامياً ، مضى يسأل عنك فى ساحة « كادوجان Cadogan » ؟ وأنك تخشى أن تكون متاعبك فى أكسفورد باتت تهددك ، أو أن يكون هناك خطر جديد . فعمدت إلى التخفيف عنك ، وقلت لك فيما قلت أن المسألة قد لا تعدو « فاتورة تجارية » ! ثم استبقيتك لتتعشى وتقضى الليلة معى . ولم تذكر حينئذ كلمة عن خطابك المريع ، وكذلك لم أفعل ؛ فقد نظرت إليه فى بساطة على أنه عارض تعيس من مزاج تعيس . ولم يحدث قط أن أشرت إلى الموضوع ، لقد كان من الأمور العادية فى حياتك أن تكتب إلى فى الثانية والنصف خطاباً قذراً ثم تسرع إلى فى السابعة والربع من ذات المساء طالباً المساعدة والعطف . فقد اقتفيت أثر والدك

Twitter: @abdulllah1994

فى تلك العادة وفى غيرها . أما هو فقـد كان من الطبيعى أن يشعر بالخجل ويتظاهر بالبكاء حينما قرئت خطاباته الثائرة إليك علنا فى المحكمة . ولو كانت خطاباتك إليـه قرئت بالمثل بواسطة محاميه لشعر كل إنسان بمزيد من الرعب والنفور . والواقع إنك لم « تضربه بنفس بضاعته » فى الأسلوب وحسب بل تفوقت عليه تماما فى طريقة الهجوم . فقـد أفدت من البرقيات العامة وبطاقات البريد المفتوحة . ولـكننى أعتقد أنه كان أولى بك أن تترك هـذا الضرب من طرق الإزعاج لأناس مثل « الفرد وود Alfred Wood » ، فهو على الأقل لا يجد وسيلة أخرى للتـكسب[١٦٠] . ألا ترى ذلك ؟ غير أن ما كان حرفة له ولأمثاله أصبح وسيلة لك للسرور ، وطريقاً بالغ الشر . إذ أنك لم تقلع عن عادتك السيئة فى كتابة خطابات مؤذية بعد كل ذلك الذى حدث لى من جرائها وبسببها ، بل لا تزال تعتبر ذلك كما لو كان مما هو مطلوب منك من إنجازات . فلا تـكتفى بفعله معى بل تأبى إلا أن تفعله كذلك مع أصدقائى ... مع أولئك الذين كانوا محسنين إلى فى السجن . كما فعلت مع « روبرت شيرارد » وغيره . إن ما فعلته مع ذلك الرجل لمن الأمور المخزية ، فقد كان يجب أن تـكون له شاكراً . فهو حينما عمل على تحقيق رغبتى ، حال دون قيامك — حتى لو لم تقصد — بفتح باب ألم جديد لى . فقد سمع منى أننى لا أريد أن تنشر عنى مقالا فى صحيفة « مركيردى فرانس » سواء تضمن شيئاً من خطاباتى أو لم يتضمن . وكان يجب أن تذكر أن خطابا من النوع المادى يتبنّى فـكرة « إنصاف رجل فى الحضيض » ربما وقع موقع الصواب فى اعتبار صحيفة إنجليزية ، إذ سـيكون متمشياً مع التقاليد القديمة للصحافة الإنجليزية فيما يختص بموقفها مع الفنانين . غير أنه ليس كذلك فى فرنسا ، بل على العكس إن مثل هذه النغمة كانت

Twitter: @abdulllah1994

تعرضنى للسخرية كما كانت تعرضك للاحتقار . ولذلك لم أكن لأسمح لك بنشر أى مقال ما لم أعرف هدفه ، وطبيعته ، وطريقة اقترابه ، وكل ما يتصل بذلك . إن المقاصد الطيبة ليس لها أى قيمة فى الفن ؛ فالواقع إن الفن السيء قد جاء نتيجة للمقاصد الطيبة .

ولم يكن « روبرت شيرارد » هو وحده من بين أصدقائى الذى وجهت إليه خطابات قاسية مرة ، لأنه أراد وضع رغباتى ومشاعرى فى الاعتبار فى شئون تعنينى شخصيا ، كنشر مقالات عنى ، وإهداء أشعار إلى ، والتصرف فى خطاباتى وهداياى ، بل إنك كدرت آخرين بالمثل ، أو حاولت أن تفعل .

هل خطر ببالك قط ما هو الوضع المريع الذى كان يمكن أن أكون فيه إذا حدث أن اعتمدت عليك كصديق فى العامين الماضيين ، أى خلال مدة عقوبتى المريعة ؟ هل فكرت قط فى ذلك ؟ وهل شعرت قط بأى امتنان لأولئك الذين استطاعوا بما أبدوه من شفقة لا حصر لها ، وإخلاص لا حد له ، وسماحة فى بشاشة وسرور ، أن يخففوا من حملى الأسود ، فأدوا لى الزيارات مرة بعد أخرى ، وكتبوا إلى خطابات جميلة تحمل العطف ، وتولوا تدبير شئونى والإعداد لحياتى المستقبلة ، ووقفوا بجانبى فى وجه الطعن والتعيير والاستهزاء العانى ؛ بل وفى وجه الاهانات ؟ إننى أشكر الله كل يوم على أن قيض لى أصدقاء غيرك . إننى أدين بكل شيء لهؤلاء الأصدقاء . فالكتب الموجودة فى زنزانتى دفع ثمنها « روبى » من جيبه ، بل وتولى دفع ثمن الملابس التى سأحتاج إليها وقت خروجى . وبالطبع لا يخجلنى الحصول على شيء وهب فى حب ومودة ، بل على العكس إننى فخور بذلك . ولكن هل فكرت قط فيما كان أولئك الأصدقاء بالنسبة إلى ، من أمثال « مور أدى » ،

Twitter: @abdulllah1994

و « روبى » و « روبرت شيرارد » و « فرانك هاريس » و « أرثر كليفتون » حينما مضوا يمنحوننى التسلية ، والمساعدة ، والمودة والعطف ، وغير ذلك ؟ أظن أن ذلك لم يلح لك قط . ومع ذلك فلو كان فيك ذرة من مخيلة لكان فى مقدورك أن تعرف أنه لا يوجد واحد من الذين كانوا يشفقون على حياتى فى السجن ، من الرؤساء إلى السجان الذى ربما أدى لى تحية الصباح أو تحية المساء بالرغم من أنها ليست فى برنامج واجباته ؛ إلى رجال الشرطة الذين حاولوا فى أسلوبهم الخشن البسيط أن يسرّوا عنى أثناء انتقالى إلى محكمة التفليسة فى حالة مريعة من الهم الفكرى ؛ إلى ذلك اللص المسكين الذى حينما ميزنى حال تجولنا فى فناء سجن ورد سورث همس إلى فى نبرة علاها الصدأ بفعل السكوت المطبق فى حياة السجن قائلا : « إنى أشعر لك بالأسف ؛ فالحال هنا أشق على أمثالك مما هو على أمثالى » . ليس بين هؤلاء جميعا ، أوَ تسمع ما أقول ؟ ليس بينهم من لا يجب أن تشعر بالفخر إذا سمح لك بأن تركع وتنظف حذاءه مما علق به من صميم الوحل .

أوَ لديك مخيلة كافية لترى أى مأساة مخيفة بالنسبة إلى كانت تلك التى جاءتنى عن طريق عائلتك ؟ ... أى مأساة يمكن أن تكون بالنسبة إلى واحد له مركزه العظيم ، وله اسمه الكبير ، وله ما كان له من أهمية ... ليفقد هذا كله ؟ إنى إذ أستثنى « برسى Bercy »[(١٦١)] ، فهو فى الحقيقة شخص طيب ، أقول أنه لا يكاد يوجد شخص واحد من الراشدين من أسرتك لم يساهم من بعض الطرق فى ما حل بى من خراب .

لقد تحدثت إليك عن والدتك فى شىء من المرارة . وإنى أنصح لك بشدة أن تطلعها على هذا الخطاب . فإذا آلمها ما جاء فيه من اتهام لواحد

Twitter: @abdulllah1994

من بنيها ، فلتذكر أن أمى ، وقد كانت فى صف «اليزابيت باريت براوننج» من الناحية العقلية ، كما كانت فى صف « مدام رولان »(١٦٢) من الناحية التاريخية ، قد ماتت كسيرة القلب لأن الابن الذى كانت فخورة بعبقريته وفنه ، وكانت ترجو أن يكون استمرارا جديرا للاسم المميّز ، قد حكم عليه بأن يقضى عامين فى آلة التعذيب . وستسألنى : فى أى طريق ساهمت والدتك فى تدميرى ؟ فدعنى أخبرك . فكما أجهدت نفسك فى تحويل جميع مسئولياتك اللا أدبية علىّ ، كذلك أجهدت والدتك نفسها فى أن تحول على جميع مسئولياتها الأدبية فيما يتعلق بك . إذ بدلا من أن تتحدث إليك مباشرة عن حياتك ، كما يجب أن تفعل كل أم ، مضت تكتب إلىّ سرا ، مع توسلات قلقة خائفة بألا أجعلك تعلم أنها كتبت إلى . إنك ترى فى أى موقف وضعتُ بينك وبينها . فقد كان موقفاً كاذباً بقدر ما كان سخيفاً ، وكان مفجعاً بقدر ما كان الموقف الذى وضعت فيه بينك وبين والدك . حدث فى أغسطس سنة ١٨٩٢ أن كنت فى مقابلة طويلة معها ، وقد دار الحديث حولك . ثم حدث نفس الشىء فى الثامن من نوفمبر من نفس العام . وفى كلتا المقابلتين سألتها لِمَ لا تتكلم إليك مباشرة هى نفسها . فسمعت منها كل مرة نفس الجواب ، فقد قالت : « إننى أخشى أن أفعل ، فهو يغضب إذا ما تكلم إليه أحد » . وفى المرة الأولى لم أكن عرفتك إلا قليلا ، فلم أفهم ما عنته . أما فى الثانية فكنت قد عرفتك جيدا ، فلم يصعب على فهم كل شىء . (خلال تلك الفترة أصبتَ بمرض اليرقان فنصح لك الطبيب بقضاء أسبوع فى « بورنموث » ، وقد أقنعتنى حينئذ بأن أرافقك ، مبدية أنك لا تحب الوحدة) ! غير أن واجب الأم يقتضيها

Twitter: @abdulllah1994

ألا تكون خائفة من التكلم جديا إلى ابنها . ولو كانت والدتك قد تكلمت جديا إليك حول المتاعب التى رأتك فيها فى يوليو ١٨٩٢ ، وجعلتك تثق بها ، لكان ذلك أحسن وأسعد كثيراً لكليكما فى النهاية . إن جميع المكاتبات السرية التى بعثت بها إلى كانت خطأ وإلا فماذا كانت الفائدة من أن تبعث إلى بمذكرات قصيرة لا حصر لها ، تحمل دائماً كلمة « سرى » على المظروف ، ترجونى فيها ألا أدعوك كثيراً إلى الغداء ، وألا أعطيك قط نقوداً ، وتنهى كلا منها بهذه الحاشية القلقة : « مهما كانت الأسباب ، فلا تجعل « الفرد » يعلم أننى كتبت إليك » ؟ ماهى الفائدة التى كان يمكن أن تتأتى من مثل تلك المذكرات ؟ وهل انتظرت قط حتى تصلك دعوتى إلى الغداء ؟ أبداً . فقد كنت دائماً تتناول وجباتك معى كأمر طبيعى . فإذا اعترضت أبديت ملاحظة لا تتغير ، فقد كنت تقول : « إذا لم أتغد معك ، فأين إذن أتغدى ؟ أعتقد أنك لا تفترض أن أذهب لتناول الغداء فى المنزل ؟ » . وكانت ملاحظة لا يستطيع المرء أن يرد عليها . فإذا رفضت بتاتاً أن أسمح لك بأن تتغدى معى كنت دائما تهدد بأنك مقدم على حماقة . وكنت دائماً تفعل . ماذا كان يمكن أن يكون هناك من نتيجة لتلك الخطابات التى مضت والدتك تبعث بها إلى غير ماحدث ، وهو إلقاء مسئولياتها الأدبية على كتفى بصورة حمقاء مشئومة ؟ لا أريد أن أتكلم أكثر عن التفاصيل المختلفة التى تثبت أن ضعف والدتك وافتقارها إلى الشجاعة كان مدمراً لها ، ولك ، ولى . ولكن من المؤكد أنها حين سمعت بأن والدك كان فى طريقه إلى مكانى للقيام بمشاجرة قذرة وخلق فضيحة علنية لم تكن غافلة عما وراء ذلك من أزمة جدية . وكان فى وسعها أن تتخذ بعض الخطوات العملية لتلافى ذلك ، غير أن كل ما استطاعت أن تفعله أنها

Twitter: @abdulllah1994

أرسلت «جورج ويندهام George Wyndham»[١٦٣] الطامن، ليقترح على بذلاقة لسانه — ماذا ؟ ... أن أحاول « إهمالك بالتدريج » ! كما لو كان الأمر ممكناً .

لقد حاولت أن أضع حداً لصداقتنا بكل الوسائل . وذهبت في هذا إلى حد أنني تركت اتهاماتنا فعلا ، وأعطيت عني عنواناً كاذباً في الخارج ، مؤملا أن أستطيع بضربة واحدة تحطيم صلة أصبحت مزعجة ، بغيضة ، مدمرة لي. فهل تعتقد أنه كان في استطاعتي « إهمالك بالتدريج » ؟ وهل ترى أن ذلك كان مرضياً لوالدك ، حتى لو حدث ؟ إنك تعلم أنه لم يكن يرضى بذلك. فالواقع أنه لم يكن يريد فصم عرى صداقتنا بل كان يبتغى خلق فضيحة علنية . ذلك ما كان يجاهد لأجله ؛ فقد كان اسمه غائباً عن الصحف سنوات، فرأى فرصة للظهور أمام الجمهور البريطاني في شخصية جديدة تماماً ، وهي شخصية الوالد المعطوف . وكان إحساسه الماجن قد استيقظ . ولو كنت قطعت صلتي بك لكان في ذلك خيبة أمل مريعة له . ولم يكن القدر الضئيل من سوء السمعة الذي جاءه في قضية الطلاق الثانية كافياً لتسليته ، مهما كان هناك من إثارة في أصل تلك القضية وفصلها[١٦٤] . وذلك لأن ما كان يهدف إليه هو الشهرة . وفي ظروف الجمهور البريطاني الحاضرة فإن وقوف الشخص كواحد من أبطال الطهارة ، كما سميت ، أصدق حالة يصبح فيها ذا شخصية بطولية ، وإن كان ذلك لا يتعدى ظرفه الراهن . ولقد قالت عن هذا الجمهور في واحدة من تمثيلياتي إنه إذا كان يمثل شخصية « كاليبان » نصف العام فإنه يمثل شخصية «تارتوف» نصفه الآخر[١٦٥]. وبهذه الطريقة كان والدك، الذي يمكن أن يقال إن كلتا الشخصيتين قد تجسدت فيه ، قد تميز على أنه الممثل

Twitter: @abdulllah1994

المناسب لمذهب المتزمتين « Puritanism »(*) بشكله العدوانى وطابعه المميز . وإذن فلم يكن إهمالك بالتدريج بالأمر الممكن ، حتى لو رؤى أن من السهل وضعه فى التطبيق . أولا ترى الآن أن الشىء الوحيد الذى كان يجب على والدتك أن تفعله كان أن تدعونى لمقابلتها فى وجودك ووجود أخيك ، ثم تقول بالتحديد إن هذه الصداقة يجب أن تتوقف ؟ لقد كانت واجدة فىّ أصدق معضد ؛ ولم يكن هناك ما يخيفها من أن تتكلم إليك ما دام « درملانريج Drumlanrig » وأنا موجودين فى الغرفة . غير أنها لم تفعل ذلك ؛ فقد كانت فى الواقع تخشى من مسئولياتها ، وحاولت أن تلقيها على . ولكنها استطاعت أن تكتب خطابا واحداً ، وكان خطاباً قصيراً أشارت فيه بأنها ترى ألا أرسل إلى والدك خطاب المحامى الذى يحذر من الكف عن الأمر وكانت محقة فى ذلك ؛ فقد كان من المضحك أن أقدم على استشارة المحامين وأطلب منهم الحماية . غير أنها أبطلت ما قد يحدثه الخطاب من تأثير بإضافة حاشيتها المعتادة : « مهما كانت الأسباب ، فلا تجعل « الفرد » يعلم أننى كتبت إليك » !

(*) « تارتوف Le Tartuffe » ، أو المنافق، هو بطل مسرحية « موليير» الفكاهية الشهيرة ، وهو منافق جاء إلى متيسر يدعى أرجون فحاول أن يتزوج من ابنته ويغرر بزوجته ويسلبه ثروته .

أما مذهب المتزمتين Puritanism فقد أسسه الكتبة الشيخيون فى انجلترا واسكتلندا ممن زعموا أنهم أصدق فى التزام نصوص الكتاب المقدس. وقد انحط تزمتهم العقلى إلى درجة من الصلابة الوحشية. وكانت ثورة ١٦٤٨ نتيجة لحركتهم بعد أن اختلطوا بالبرلمانيين . ومن الناحية الأخرى فان الاضطهادات التى تعرضوا لها على يد « آل ستيوارت» حملت عدداً كبيراً منهم على الهجرة إلى أماكن بعيدة ، وكان للدور الذى لعبه هذا الرحيل المتعاقب أثر كبير فى تاريخ الاستعمار الانجليزى، وبخاصة فى أمريكا . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

لقد سحرتك فـكرة قيامى بإرسال خطابات محامين إلى والدك ، كما كنت تفعل ، وقد جاءتنى من وحيك. فلم أستطع أن أخبرك أن والدتك كانت ضد هذه الفـكرة بشدة ؛ وذلك لأنها قيدتنى بأشد الوعود لـكى لا أخبرك بشىء عن خطاباتها إلى ، وقد حافظت فى حماقة على وعدى لها. ألا ترى أنها كانت مخطئة بعدم تـكلمها إليك مباشرة ؟ وأن جميع مقابلاتها الخلفية معى ومراسلاتها الخاصة إلى كانت خطأ ؟ ليس هناك من يستطيع أن يلقى مسئولياته على الآخرين ؛ فهذه المسئوليات تعود على صاحبها فى النهاية . إن فـكرتك الأولى فى الحياة ، وفلسفتك الوحيدة ، إن كان لمثلك فلسفة ، فـكرتك هى أن ما تفعله ، مهما كان ، يجب أن يؤدى آخر حسابه عنك . ولا أقصد بذلك فى الاتجاه المالى وحده ، فقد كان هذا الاتجاه مجال التطبيق العملى لفلسفتك فى الحياة اليومية ، بل فى الاتجاه الواسع الـكامل لتحويل المسئولية . لقد اتخذت من هذا عقيدة ، ونجحت فى ذلك بقدر ما ذهبت . فقد دفعتنى إلى رفع القضية لأنك علمت أن والدك لن يهاجمك ولن يتعرض لحياتك . وحتى لو فعل فإنى سأدافع عنك وعن حياتك إلى آخر نفس ، وإنى سآخذ على عاتق كل ما يلقى علىّ . وقد كنت مصيباً تماماً ؛ فقد فعل والدك وفعلت أنا بالمثل ، كلاً من بواعث مختلفة بالطبع ، ما توقعت منا أن نفعله . ولـكن بسبب ما ، وبالرغم من كل شىء ، لم تستطع فى الواقع أن تفلت ! إن « نظرية الطفل صامويل » ، كما يستطيع المرء أن يعرّفها بقصد الاختصار ، هذه النظرية صالحة جداً من جميع الوجوه بقدر ما يستطيع العالم العام أن يمضى . ربما لقيتَ كثيراً من الاحتقار فى لندن ، وربما لقيتَ قليلا من السخرية فى اكسفورد ؛ غير أن ذلك قد يحدث فقط لأن هناك من يعرفك ، ولأنك تركت آثاراً من خط سيرك . أما خارج

Twitter: @abdulllah1994

الجماعة الصغيرة فى كل من تلك المدينتين فإن العالم ينظر إليك على أنك الشاب المستقيم الذى كاد أن يغريه إلى فعل السوء ذلك الفنان الفاسد العديم الخلق لولا أن تداركه والده الرحيم المحب فى الوقت المناسب . إن هذا يقع كما لو كان صحيحاً ، ومع ذلك فإنك تعلم أنك لم تستطع الإفلات ! ولست أشير هنا إلى سؤال ساذج ألقاه مخلف غبي ، فلقى الاحتقار بالطبع من جانب التاج كما لقيه من جانب القاضى(١٦٦) ، فليس هناك من اهتم بذلك ، بل ربما كنت أشير إليك بالذات . ففى نظرك أنت ، وستفكر يوماً فى سلوكك ، لن تكون راضياً عن الطريقة التى سارت عليها الأمور ، ولن تستطيع قط أن تكون راضياً عنها ؛ ولا بد أن تفكر خفية فى نفسك فى كثير من الخجل . إن وجهاً نحاسياً شىء عظيم لتظاهر به أمام العالم ؛ ولكنك حينما تكون وحيداً ولا يكون هناك من يراك ، ستجد نفسك مضطراً إلى رفع القناع من حين لآخر ، ولو لمجرد التنفس ، وإلا مت اختناقاً .

وكان يجب على والدتك بنفس الأسلوب ان تتأسف أحياناً على محاولتها تحويل مسئولياتها الجسيمة على شخص آخر كان لديه من قبل ما يكفيه من أعباء ، لقد شغلت منك مركز الوالد والوالدة معاً ، فهل استطاعت حقاً أن تقوم بواجبات أى منهما ؟ وإذا كنت تحملت منك سوء الخلق والخشونة والمشاجرات ، فقد كان يجب عليها أن تتحمل منك ذلك هى أيضاً . عندما رأيت زوجتى أخيراً — وكان ذلك قبل أربعة عشر شهراً — قلت لها إنها يجب أن تكون أباً لسيريل كما هى أم له . وقد أخبرتها بكل شىء عن حالة والدتك فى معاملتها لك بكل التفاصيل التى ذكرتها فى هذا الخطاب ، إلا أننى زدت عليها فى الواقع . فقد أخبرتها بحقيقة تلك المذكرات التى كانت ترد تباعا إلى « تايت

Twitter: @abdulllah1994

ستريت » بصورة تفوق الحصر ، حاملة دائماً كلمة « خاص » على الظروف، الأمر الذي جعلها في ذلك الوقت تقول ضاحكة إن الأمر لا بد أن يكون مزاملة بيننا في « شركة روايات » أو شيء من هذا القبيل ! ولقد توسلت إليها ألا تكون لسيريل ما كانته والدتك لك ، وقلت لها إنه يجب أن ينشأ على أساس أنه لو حدث أن سفك دماً بريئاً فيجب أن يأتي فيخبرها بذلك . وإن عليها في هذه الحالة أن تطهر يديه أولا ثم تعلمه بعد ذلك كيف يطهر روحه بالتوبة أو بالتكفير . ثم قلت لها إنه لو حدث أن خشيت من مواجهة مسئولية حياة شخص آخر ، ولو كان طفلها ، فيجب أن تستعين بمن تستطيع أن تجعل منه ولياً لأمره ، ليساعدها في ذلك ويسرني أن أقول إنها قد أخذت برأيي ، فاختارت ابن عمها « أدريان هوب Adrian Hope » لهذا الغرض ، وأحسبك رأيته مرة في « تايت ستريت » ، وهو رجل نبيل المولد ، عالي الثقافة ، دمث الخلق ؛ وهذا ما يجعلني أعتقد أن كلاً من سيريل وڤيڤيان سيجد معه فرصة طيبة لمستقبل جميل(١٦٧). وكان يجب على والدتك ، مادامت تخشى من التحدث جدياً إليك ، أن تختار من بين أقاربها واحداً كان من الممكن أن تستمع إليه . بل كان يجب ألا تخشى شيئاً ، فتضع الأمر معك في وضوح وتواجهه . ولكن انظر إلى النتيجة الآن ! فهل تراها راضية عنها ومسرورة بها ؟

إنني أعلم أنها تلقي اللوم عليّ إنني أسمع ذلك من أناس ، لا ممن يعرفونك بل ممن لا يعرفونك ولا يرغبون في معرفتك . إنني أسمع كثيراً في هذا الشأن . فهي تتكلم ، مثلا ، عن تأثير الشاب الكبير فيمن هو أصغر منه سناً . وهذا من أحب المواقف إليها تجاه الموضوع ؛ وهو دائماً التجاء ناجح إلى الحمايات المألوفة والجهالة . ولست في حاجة إلى أن أسألك

Twitter: @abdulllah1994

عما كان لى من تأثير عليك . فأنت تعلم أنه لم يكن لى شىء من ذلك . وكان مما مضيت تفاخر به كثيراً أنه لم يكن لى تأثير عليك ، وكان هذا فى الواقع هو الشىء الوحيد الذى قام على أساس صحيح . فحتى لو افترضنا الأمر حقيقة فماذا كان فيك لأستطيع التأثير فيه ؟ أكان مخك ؟ لم يكن قد نشأ . أم كان مخيلتك ؟ لقد كانت ميتة . أم كان قلبك ؟ لم يكن قد ولد بعد . والواقع إنك كنت الشخص الوحيد من بين جميع الذين التقيت بهم فى حياتى الذى لم أكن قادراً بأى طريقة على التأثير فيه فى أى اتجاه . فعندما وقعت مريضاً وبت عاجزاً من أثر حمى جاءتنى عدواها من قيامى برعايتك لم يكن لى من التأثير عليك ما يقنعك حتى بوجوب إحضار كوب من اللبن أتناوله فى تلك الحالة ، أو بوجوب الالتفات إلى ما يحتاج إليه المريض فى غرفته من ضروريات عادية ، أو بتكليف نفسك عناء الانتقال ما لا تزيد عن مائتى ياردة لتحضر لى كتاباً على حسابى ! وعندما كنت مستغرقاً فى الكتابة ، أسطر من ألوان الملهاة ما يضرب تألق « كونجريف » وفلسفة « توما الابن » ، أى صفة الآخرين ، كما أعتقد ، لم يكن لى شىء من التأثير عليك لأجعلك تتركنى فى هدوء ، كما يجب أن يترك الفنان . وأينما كانت غرفة الكتابة الخاصة بى فقد كانت دائماً لك متكأ عادياً : مكاناً تدخن فيه وتتناول النبيذ ، وتثرثر حول السخيف من الأمور . وإذن فإن « تأثير الشاب فيمن هو أصغر منه سناً » نظرية بديعة حقاً ، ولكنها تكون كذلك حتى تصل إلى مسامعى وحينئذ تصبح شيئاً مضحكا . أما عندما تصل إلى أسماعك فأعتقد أنك تبتسم — لنفسك طبعاً — فهذا ما خولت فعله بالتأكيد . إننى أسمع أيضاً كثيراً مما تقوله عن النقود . فهى تذكر ، فى صدق تام ، أنها لم تتوقف عن التوسل إلى كى لا أمدك بشىء من المال . وهذا ما أسلم به ، فالواقع

Twitter: @abdulllah1994

إن خطاياتها لم تكن تقف عند حد ، وكانت كلها تحمل نفس الحاشية : « أرجو ألا تجعل الفرد يعلم أنى كتبت إليك » . وبالطبع لم يكن يسرني أن يُفرض على دفع الحساب عنك فى كل شيء : من حلاقة الصباح حتى ركوب منتصف الليل . لقد كان شيئاً مضجراً فظيعاً ؛ وقد شكوت إليك منه مرة بعد أخرى ، ومضيت أخبرك ، كما تذكر ، كيف كنت أشمئز من اعتبارى شخصاً « نافعاً » ، وقد قلت لك أنه لا يوجد فنان يرغب فى ذلك أو يرضى بأن يعامل على أنه شخص نافع ؛ وذلك لأن الفنانين ، كالفن نفسه ، تنعدم منهم المنفعة . وكنت تشعر بالغضب كلما سمعت ذلك ؛ فقد كانت الحقيقة تغضبك دائماً . والواقع إن الحقيقة أشد ما يؤلم سماعه ، كما أنها أشد ما يؤلم قوله . غير أن ذلك لم يجعلك تغير من أسلوبك أو تتنازل عن أغراضك فى الحياة ؛ فقد كان علىّ كل يوم أن أتولى عنك الدفع لقاء كل شيء فعلته طوال اليوم . وهو أمر لم يكن يقبله إلا شخص بلغت طيبته حد السخف أو فاقت غباوته حد الوصف . وقد اجتمعت فىّ الصفتان لسوء الحظ . وكنت كلما اقترحت عليك أن تعتمد على والدتك فى الحصول على ما تريد من مال أسمع منك دائماً جواباً لطيفاً ظريفاً ، فقد كنت تقول إن ما خصصه لها والدك — وكان حوالى ١٥٠٠ جنيه فى العام ، كما أعتقد — لا يفى بمطالب سيدة فى مثل مركزها ، وأنك لذلك لا تريد أن تحصل منها على أكثر مما حصلت عليه من قبل . وكنت مصيباً تماماً حينما رأيت أن مثل ذلك المبلغ لا يكفى سيدة فى مثل مركزها وذوقها ، غير أنه لم يكن يجمل بك أن تتخذ من هذا ذريعة لتعيش فى ترف على حسابى . بل على العكس كان يجب عليك أن تجد فى ذلك وازعاً لتقتصد فى معيشتك . وإنما الحقيقة أنك كنت عاطفياً نموذجياً ، بل وربما لا تزال كذلك ، كما افترض .

Twitter: @abdulllah1994

فالعاطفي هو ببساطة ذلك الذي يبتغي الحصول على نعيم العاطفة بغير أن يدفع الثمن ! لقد كان جميلا أن تفكر في اقتصاد مال والدتك ، ولكن كان قبيحاً أن تجعل ذلك على حسابي . انك تعتقد أن المرء يستطيع أن يحصل على عواطفه بغير مقابل ؛ غير أنه لايستطيع . فحتى أرق العواطف وأبعدها في التضحية بالذات يجب أن يكون لها ثمن . ومن الغريب أن هذا ما يجعلها جميلة ! إن حياة العاديين من الناس ، عقلية أو عاطفية ، مسألة حقيرة . فكما أنهم يستعيرون أفكارهم من نوع من مكتبة الفكر المتداول — من روح العصر الذى لا روح فيه — ثم يعيدونها ملوثة في آخر الأسبوع ، كذلك يحاولون دائماً أن يحصلوا على عواطفهم على الحساب ثم يرفضون دفع القائمة حينما تأتى إليهم ! يجب أن تخرج من هذا التصور للحياة ، وحالما تستوجب على نفسك دفع ثمن العاطفة فإنك ستعرف نوعها ، وتصبح أجدر بمثل هذه المعرفة . ثم تذكر أن العاطفي يسر التهكم دائماً في قرارة قلبه . والواقع أن العاطفية ليست إلا الإجازة الرسمية للسخرية . والسخرية ، وإن كانت سارة من الناحية العقلية — وهنا تترك القدر تحت رحمة الهراوة — إلا أنها لا تزيد عن الفلسفة الصحيحة لرجل مجرد من الروح(١٦٨) . إن لها قيمتها الإجتماعية بلاشك ، وبالنسبة إلى الفنان فإن جميع حالات التعبير مهمة ؛ غير أنها مسألة حقيرة في حد ذاتها ، وذلك لأن شيئاً ما لا يمكن أن يتكشف لمن يتخذها هزواً .

أعتقد أنك لو فكرت الآن فيما كان عليه موقفك تجاه إيراد والدتك ثم موقفك تجاه إيرادى فإنك لن تكون فخوراً بنفسك . فإذا لم تطلع والدتك على هذا الخطاب فقد تعمد يوما إلى شرح المسألة لها ، فتخبرها أن معيشتك على حسابي كانت مسألة لم يكن لرغبتي فيها أى

Twitter: @abdulllah1994

اعتبار من جانبك . لقد كان الأمر صورة غريبة تبدى فيها ولاؤك لى ، وكانت بالنسبة إلى شخصياً من أخطر الأمور. إن إعتمادك على فى الحصول على أصغر المبالغ وأكبرها جعلك تبدو فى نظر نفسك وقد اكتسبت كل سحر الطفولة ؛ وفى إصرارك على أن أدفع ثمن كل شىء من مسراتك كنت تعتقد أنك قد اكتشفت سر الشباب الخالد . والواقع أننى أشعر بالألم حينما أسمع بملاحظات والدتك عنى . وليس لدى شك فى أنك إذا تأملت فى الأمر ستوافقنى على أنه كان أولى بها أن تلتزم الصمت ، إذا لم يكن لديها كلمة أسف أو عبارة حزن على ماجرته أسرتك على من خراب . بالطبع ليس هناك ما يمنع من أن تطلعها على أى جزء من هذا الخطاب يشير إلى ما أسير فيه من تطور عقلى ، أو إلى أى نقطة تحول أرجو الوصول إليها . ربما لا يبدو الخطاب مشوقاً لها ، ومع ذلك فلو كنت فى مكانك لوجب أن أطلعها على ماجاء فيه ، وبخاصة ما يتعلق بحياتك بالذات .

والواقع إننى لو كنت فى مكانك ماعنيت بأن يحبنى الغير على أساس من ادعاءات كاذبة . وحقاً إنه ليس هناك سبب يحمل الانسان على أن يطلع العالم على حياته ، إذ أن هذا العالم لا يفهم كل شىء ؛ غير أن الأمر يختلف مع أولئك الذين يبتغى المرء أن يحصل على محبتهم . لقد جاء صديق عظيم ليرانى قبل وقت قصير — وقد تصادقنا منـــذ عشر سنوات(١٦٩) — وقد أخبرنى أنه لا يصدق كلمة واحدة مما قيل ضدى ، وأنه يريد منى أن أطمئن إلى أنه يعتبرنى بريئاً وضحية لمؤامرة شنيعة دبرها والدك . فلم أتمالك أن انفجرت باكياً حينما سمعت قوله ، ثم أخبرته أنه ، وإن كان ما وجهه إلى والدك يحتوى على كثير من الأكاذيب وغير ذلك ممـا وجه إلى بدافع من حقده الثائر ، إلا أن حياتى فى الواقع

Twitter: @abdulllah1994

كانت مفعمة بالمسرات الشاذة والانفعالات الغريبة ، وأنه إذا لم يقبل واقعي هـذا كحقيقة عني ويدركه كاملا فقد لا أستطيع أن أحتفظ بصداقته ، بل وربما لا أكون بعد في صحبته . وبالطبع كان في هذا صدمة له ، غير أننا لا نزال صديقين ، وقد عززت بصداقتي معه عن أن تقوم على ادعاءات كاذبة . لقد قلت إن قول الحق مما يؤلم . وأقول إن قسر النفس على قول الـكذب أشد ألمـاً .

إنني أذكر ماذا كانت عليه حالتي ساعة أن جلست في قفص الاتهام أثناء المحاكمة الأخيرة استمع إلى ما كان يتناولني به «لوكوود Lochwood» من تشهير شنيع . لقد كان حينئذ كما لو كان يقرأ شيئاً من «تاسيتوس» أو عبارة من « دانتي » ، أو بعض الاتهامات التي وجهها « سافونا رولا »(*) إلى بابوات روما . وقد أصابني الرعب ممـا كنت أسمع . وفجأة خطرت ببالي هذه الفـكرة « فـكم كان بديعاً لو كنت أنا الذي قال ذلك كله عن نفسي ! » . لقد رأيت حينئذ في التو أن ما يقال عن المرء ليس بشيء ، إذ أن النقطة هي : مَن الذي يقوله ؟ وما من شك في أن اللحظة العظيمة في حياة الانسان تـكون حينما يركع على التراب ويضرب صدره ثم يتحدث بجميع خطايا حياته . وكذلك يكون الأمر معك . لقد كان في وسعك أن تشعر بمزيد من السعادة لو أخبرت والدتك أنت نفسك بشيء قليل عن حياتك كيفما كان . لقد أخبرتها أنا بالـكثير عنها في ديسمبر ١٨٩٣ ؟ غير أنني أقسرت بالطبع على التزام الصمت والدخول في العموميات . ولم يلح أن ما فعلته جعلها تشعر بشيء

(*) تاسيتوس Tacitus مؤرخ روماني عاش في القرن الأول بعد الميلاد . أما سافونا رولا Savonarola فهو إيطالي من رجال الدين عاش في القرن الخامس عشر وأحرق حياً لاتهامه بالزندقة . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

من الشجاعة فى علاقاتها معك . بل على العكس . فقد تحاشت النظر إلى الحقيقة فى إصرار أشد . ولو كنت أنت نفسك أخبرتها لكان الأمر يختلف . إن كلماتى ربما جاءتك فى القالب أكثر مرارة . غير أنك لا تستطيع إنكار الحقائق . فالأشياء كانت كما قلت أنها كانت ، وإذا قرأت هذا الخطاب بما يستحق من عناية فلا شك أنك ستلتقى بنفسك وجها لوجه .

لقد كتبت إليك الآن ، وكتبت فى إسهاب ، لكى تدرك ماذا كنت لى قبل أن أسجن ، أثناء تلك السنوات الثلاث من صداقة مشئومة ، ثم ماذا كنت لى أثناء مدة سجنى ، ولم يبق إلا شهران تقريباً على نهايتها. ثم ما أرجو أن أكونه لنفسى وللآخرين بعد أن أخرج من السجن . إننى لا أستطيع أن أعيد إنشاء خطابى أو أكتبه من جديد ، فيجب أن تقبله كما هو : مطموساً بالدموع فى مواضع كثيرة ، وبعلامات الانفعال والألم فى مواضع أخرى . ويجب أن تجعل منه أحسن ماتستطيع فعله فيما يتعلق بالمواضع المطموسة والتصحيحات وكل شىء . أما عن التصحيحات فقد قمت بها لتكون كلماتى تعبيراً صرفاً عن آرائى ، ولكى لا يكون هناك خطأ من زيادة أو نقصان إن اللغة يجب أن تضبط ، كما يحدث فى ضبط « الكمان » . فكما أن قدراً يزيد أو ينقص فى ذبذبات صوت المغنى أو فى اهتزازات وتر الآلة يجعل النغم يخرج فى غير أصالة ، كذلك يفسد الرسالة قدر من الكلمات أكثر أو أقل مما ينبغى . على كل حال إن خطابى فى وضعه الراهن يحتوى على معنى محدود وراء كل جملة . وهو لا يتضمن شيئاً من البلاغة . وحيثما وجد كشط أو إبدال مهما كان طفيفاً أو محكما ، فإن ذلك لأننى أردت أن أترجم ما لدى من انطباع صادق ، وأن أجد المعادل الصحيح لكل ما ينتابنى من أحوال .

Twitter: @abdulllah1994

كل شيء يأتى أولا فى الشعور يأتى أخيراً فى الصورة .

إنى أسلم بأنه خطاب قاس ، وإنى لم أبق عليك . والواقع أنك تستطيع أن تقول إنى ، بعد التسليم بأنك لو وُزنت بأقل أحزانى وأحقر خسائرى لن يكون فى ذلك إنصاف لك ، قد فعلت ذلك حقيقة ؟ وقد صنعت ، وزنةً بعد وزنة ، أدق تجربة من طبيعتك . هذا حق . وإنما يجب أن تذكر أنك وضعت نفسك فى الميزان .

يجب أن تذكر أنه إذا خفت كفتك عن لحظة واحدة مما قاسيته فى السجن فإن ذلك يرجع إلى غرورك ، فهذا الغرور هو الذى جعلك تختار الميزان وتتعلق به . كان فى صداقتنا خطأ سيكولوجى كبير ، وهو افتقارها إلى التناسب . فقد فرضت طريقك بالقوة إلى حياة أوسع كثيراً لمن هو مثلك : حياة زاد فلكها عن قوتك فى الرؤية ، كما زاد عن قوتك فى الحركة الدائرة ؟ وكانت أفكارها وانفعالاتها وأعمالها ذات مضمون عظيم وفائدة كبيرة ، وقد مُلئت ، إلى حد بعيد فى الواقع ، بنتائج عجيبة أو مريعة . أما حياتك الصغيرة بما بها من نزوات صغيرة وحالات محدودة فقد كانت بديعة فى دائرتها الذاتية الصغيرة : كانت بديعة فى اكسفورد ، حيث كان أسوأ ما يمكن أن يحدث لك توبيخ من العميد أو تعنيف من الرئيس ؟ وأقوى ما يثيرك أن تصبح « مجدالن » وقد تفوقت فى السباق النهرى ، أو تُشعل أضواء الزينة فى الميادين احتفالا بعيد أغسطس . وكان يجب أن تستمر حياتك فى دائرتها بعد أن تركت اكسفورد . فقد كنت فى ذاتك كما يجب : كنت مثالا كاملا لنوع من الحياة العصرية إلى آخر حد . وإنما يبدو الخطأ فيك ببساطة حينما يشار إلىّ . لم يكن أسرافك فى طيش جريمة . فالشباب مسرف دائماً . وإنما كان إقسارك لى على أن أتحمل نتائج

Twitter: @abdulllah1994

إسرافك ليس بالجميل . وكان ساحراً أن تبتغى صديقاً تمضى معه اليوم من صباحه إلى مسائه ، بل إن هذا كان يدل على نزعة شاعرية . غير أن الصديق الذى كان يجب أن ترابط حوله لم يكن يصح أن يكون أديباً ، ولا فناناً ، ولا واحداً كانت ملازمتك المستمرة له مدمرة لأعماله الجميلة بقدر ما كانت مشلّة لقوته الخلاقة . ولم يكن هناك ضرر فى أن تقدّر جاداً أن أمثل الطرق لقضاء أمسية كان تناول عشاء مع شمبانيا فى مطعم « سافوى » ، واتباع ذلك بالجلوس فى « لوج » بصالة موسيقى ، ثم تناول وجبة أخرى من الطعام والشمبانيا فى مطعم «ويليس» فى منتصف الليل ، لاختتام الليلة بـ « لقمة حلوة » . فهذا ما يراه عدد كبير من الشباب المرح فى لندن ، وهو بعد طريق التأهل لعضوية « نادى هوايت » ، وليس فيه ، بالطبع ، شيء من الشذوذ . غير أنه لم يكن لك الحق فى أن تفرض على أن أكون ممولك الخاص لكل ذلك . وإنما دل الأمر على أنك كنت عاجزاً عن تقدير عبقريتى . أما نزاعك مع أبيك ، مرة أخرى ، فمهما فكر المرء فى طبيعته يرى ظاهرياً أنه كان يجب أن يبقى بينك وبينه ، وكان يجب أن يحدث بعيداً عن الأنظار . فالواقع أن هذا النوع من النزاع يوجد كثيراً . وإنما كان خطؤك أن أصررت على أن تجعل منه قطعة جمعت بين المأساة والملهاة ومثلت على مسرح مرتفع فى التاريخ ، ليراها العالم كله ، وكنت أنا فيها جائزة المنتصر فى المباراة الخسيسة . أما أن يكون أبوك قد اشمأز منك ، وأن تكون أنت بالمثل قد اشمأززت منه ، فإن هـــذا الأمر لم يكن يثير اهتمام الجمهور الإنجليزى فى كثير ولا قليل ؛ فمثل هذا الشعور يوجد بكثرة فى الحياة العائلية الإنجليزية ، وحيثما يوجد منه شيء فيجب أن يحصر فى المكان الذى يقوم فيه ، وهو المنزل . فإذا تعدى دائرة المنزل فإنه يكون قد خرج

Twitter: @abdulllah1994

تماماً عن مكانه . وتناقل مثل هذا النزاع إساءة ؛ فحياة العائلة يجب ألا تعالج كما لو كانت راية حمراء يلوح بها فى الطريق ، أو بوقاً ينفخ فيه من فوق السطح . ولكنك خرجت بالحياة العائلية عن دائرتها المناسبة ، كما خرجت بنفسك عن دائرتك المناسبة .

وأولئك الذين يخرجون عن دائرتهم المناسبة إنما يغيرون محيطهم فقط ؛ فهم لا يغيرون طباعهم . وهم لا يحصلون على الأفكار والانفعالات المناسبة للدائرة التى دخلوا إليها . وليس فى مقدورهم أن يفعلوا ذلك . وكما قلت فى موضع ما من « المقاصد » ، فإن القوى العاطفية ، كقوى الطاقة الفيزيقية[١٧١] ، محدودة فى الامتداد والدوام . فالقدح الصغير الذى صنع ليتسع لقدر معين من شىء ما لا يتسع إلا لذلك القدر ، حتى وإن كانت جميع الدنان الحمراء فى « بورجونديا » قد ملئت بالنبيذ إلى الحافة ، وكان الدوّاسون واقفين إلى الرُكب فى الأعناب المجموعة من مزارع الكروم الحجرية فى اسبانيا . ليس هناك من الأخطاء ما هو أكثر شيوعا من الاعتقاد بأن أولئك الذين هم السبب فى المآسى الكبيرة ، أو المناسبات التى خلقتها ، يشاركون فى الشعور الملائم لحالة المأساة . وليس هناك خطأ أشد خطورة من توقع ذلك منهم . إن الشهيد فى « قميص اللهب »[١٧٢] الذى يرتديه ربما ظهر على وجه الله ؛ غير أن ذلك الذى يكوم الأحطاب أو يلقى بالكتل فى النار لا يرى فى المنظر كله أكثر مما يراه جزار فى ذبح ثور ، أو فحام فى إسقاط شجرة فى الغابة ، أو حصّاد فى سقوط زهرة بينما يكون ماضياً فى جز الأعشاب بمنجله . إن الانفعالات العظيمة للنفس العظيمة ، كما أن الأحداث العظيمة لا ترى إلا من جانب أولئك الذين يكونون على مستواها .

لست أعلم فى كل أنواع الدراما شيئاً أكثر فى انقطاع نظيره من

Twitter: @abdulllah1994

وجهة نظر الفن ، أو أقوى إيحاء بدهائه فى الملاحظة ، من الصورة التى أخرجها « شكسبير » لكل من « روزنكرانتس Rosencrants » و « جلدنشترن Guildenstern » ، وهما صديقا « هملت » فى الكلية . لقد كانا رفيقيه ؛ وكانا يحملان معهما ذكريات من أيامهما الحلوة معه . وفى اللحظة التى يواجهانه فيها فى الرواية يكون مضطرب الجوانح من ثقل عبء لا يحتمله من هو فى طبيعته . فقد خرج « الميت » من القبر مدججاً بالسلاح ليفرض عليه رسالة بالغة العظمة من جانب وبالغة الانحطاط بالنسبة إليه من جانب آخر . انه يعيش فى عالم الأحلام ، ولكن ها هو يدعى ليعيش فى عالم العمل . وإن له طبيعة الشاعر ، ولكنه يسأل ليدخل فى صراع مع التعقيدات العامة للسبب والنتيجة فى الحياة ، لا فى جوهرها المثالى ، وهو ما يعرف عنه الكثير ، بل فى واقعها العملى ، وهو مالا يعرف عنه شيئاً . لم يكن لديه رأى فيما يجب فعله ، وكان جنونه تصنعا للجنون . لقد اتخذ « بروتس » من الجنون رداءً ليخفى السيف الذى أعده لغرضه : الخنجر الذى عبر عن إرادته(١٧٣) ؛ غير أن الجنون بالنسبة إلى « هملت » كان مجرد قناع لإخفاء الضعف . فهو يرى فى ابداء سمات التقطيب تارة واشارات المزاح أخرى فرصة للتأخير ، وهو يستمر على اللعب بالعمل ، كما يلعب الفنان بإحدى النظريات ، وهو يجعل من نفسه جاسوساً على أعماله الخاصة . وإذ يستمع إلى نفس كلماته يعلم أنها مجرد « كلمات ، كلمات ، كلمات » . وبدلا من أن يحاول أن يجعل من نفسه بطلا لتاريخه يكتفى بأن يكون مشاهداً لمأساته . إنه لا يعتقد فى أى شىء بما فى ذلك هو نفسه ، ومع ذلك فإن شكه لا يساعده ، فهو لم يأت من تشككه بل جاء من إرادته المنقسمة . ومن هذا كله لا يدرك شيئاً كلٌّ من « جلدنشترن » و « روزنكرانتس » ، فهما

ينحنيان ، ويتكلفان الابتسام ، ويبتسمان ، وما يقوله أحدهما يردده الآخر في تكرار ممل . وعندما يتأتى لهملت في النهاية ، عن طريق تمثيل رواية في الرواية ، والمرائي الصغيرة التي مضت تعبث في ملك الرواية ، أن « يقبض على ضمير الملك » ، ويدفع بالرجل المسكين إلى الفزع من عرشه ، لا يرى « جلدنشترن » و « روزنكرانتس » في سلوكه أكثر من خروج طفيف عن « اتيكيت » البلاط كل ما يسببه هو بعض الامتعاض . وذلك بمقدار ما يستطيعان أن يبلغا في « تأمل مشهد الحياة بعواطف مناسبة »(١٧٤) . انهما قريبان من صميم سره ، ولكنهما لا يعرفان عنه شيئاً . ولم يكن هناك فائدة من إخبارهما . إنهما الأقداح الصغيرة التي تتسع لقدر معين ، ولا أكثر من ذلك . وفي مقترب الختام يوحي الأمر بأنهما ، وقد وقعا في شرك ماكر نصب لغيرهما ، قد لقيا ، أو ربما يلقيان ، موتا عنيفا مفاجئاً . غير أن مثل هذه النهاية الحزينة ، وان كانت قد مست بشيء من الدهشة والغرابة جاء من مزاج هملت ، ليست في الحقيقة لمثل هذين . فهما لن يموتا قط . أما « هوراشيو Horatio » الذي ، لكي « يدلي بخبر هملت وقضيته بالضبط إلى غير المقتنعين » ،

يغيبه من الغبطة فترة
وفي هذا العالم الخشن يسحب أنفاسه في ألم

فإنه يموت ، وإن لم يمت أمام نظارة ، ويموت بغير أن يترك أخاً . غير أن « جلدنشترن » و « روزنكرانتس » يكتب لهما الخلود ، كما كتب لـ « انجلو » و « نارتوف » ، وهما يرتفعان إلى صفهما . إنهما ما ساهمت به الحياة الحديثة من صداقة المثال القديم . فإذا كان هناك من يكتب صورة جديدة من « دي أمتشيتا De Amicitia » فيجب أن

Twitter: @abdulllah1994

يحتفظ لها بمكان لائق ، وأن يثنى عليهما فى نثر من النوع « التوسكولانى »* . انهما من النماذج التى ثبتت لكل عصر ، ولذلك فإن توبيخهما يدل على نقص فى التقدير . فهما خارج دائرتهما فقط . وهذا كل ما هناك . ليس ثمة عدوى فى سمو النفس ، فالأفكار السامية والعواطف السامية منعزلة فى صميم وجودها . وما لم تستطع « أوفيليا Ophilia » هى نفسها أن تفهمه لم يكن يستطيع أن يدركه « جلدنشترن وروزنكرانتس الرقيق » ولا أن يدركه « روزنكرانتس وجلدنشترن الرقيق » . بالطبع لم أقصد بذلك عمل مقارنة . فهناك فرق كبير بينكما إذ بينما كان الأمر معهما فرصة كان معك اختيارا . فقد أقحمت نفسك فى دائرتى متعمداً ، وبغير دعوة ، لتغتصب مكاناً لم يكن لك حق فيه ولا مؤهلات له . فإذا ما استطعت أن تنجح فى ابتلاع حياتى بمثابرتك العجيبة ووجودك الدائم ، وقد أصبح جزءا من كل يوم ، لم تستطع أن تفعل بها أكثر من تحطيمها شذرا . ومن الغريب ، كما قد يقع فى روعك ، انك لم تفعل إلا ما كان طبيعياً أن تفعله . فحينما يعطى الطفل لعبة يفوق العجب فيها تفكيره القاصر ، أو يزيد الجمال فيها عن نظره المحدود ، يعمد إلى تحطيمها إذا كان عنيدا ، أو يتركها تفلت من يده إذا كان بليدا ، ليعود إلى رفاقه فيلهو معهم . وكان الأمر كذلك معك ، فبعد أن أحكمت قبضتك على حياتى لم تعرف ماذا تفعل بها ، فلم تكن علمت شيئاً ، وكان غريباً أن تراها فى قبضتك . وكان يجب أن تتركها تنساب من بين يديك وتعود إلى رفاقك فى لعبهم ، غير أنك كنت عنيداً

(*) Tusculan ، نسبة إلى Tusculum ، وهو مكان فى إيطاليا القديمة يعرف اليوم باسم فراسكاتى Frascati ، وفيه كتب شيشرون قطعه المعروفة بذلك الإسم . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

لسوء الحظ ، فأقدمت على تحطيمها ربما كان هذا هو السر النهائى لكل ذلك الذى حدث ، حينما يكون كل شىء قد قيل . فالأسرار أصغر دائماً مما تكون حينما يكشف عنها . وربما أدى نقل ذرة من مكانها إلى حدوث اهتزاز عالم بأكمله . ولكن ، لكى لا أكون أبقيت على نفسى أكثر مما أبقيت عليك ، فإنى أضيف هذه النقطة . ان التقائى بك كما كان خطرا بالنسبة إلى قد تحول إلى هذه الخطورة بفعل نفس اللحظة التى التقينا فيها . فقد كنت حينئذ فى ذات اللحظة من حياتك حيث كان كل ما يستطيع المرء فعله أن يضع البذرة ، لا أكثر ، وكنت أنا حينئذ فى ذات اللحظة من حياتى حيث كان كل ما يستطيع المرء فعله أن يجنى الثمرة ، لا أقل .

هناك قليل غير ما أشرت إليه يجب أن أكتب إليك حوله . وأول هذه الأمور يدور حول إفلاسى . فقد سمعت قبل أيام ، وأقول ذلك فى كثير من الخيبة ، سمعت أن موعد الدفع من جانب عائلتك إلى أبيك قد انتهى . ومعنى هذا أنه لم يعد ممكناً من الناحية القانونية . وعليه فيجب أن أبقى وقتاً طويلا فى وضعى المؤلم الراهن . وهذا قاس بالنسبة إلىّ ، وذلك لأننى تأكدت من جانب جهات قانونية من أننى لا أستطيع حتى أن أطبع كتابا بغير تصريح من المستلم الذى يجب أن تدفع إليه جميع المبالغ . كذلك لا أستطيع أن أدخل فى تعاقد مع مدير مسرح ، أو أخرج تمثيلية ، بغير أن تكون الايصالات قدمت إلى أبيك وإلى غيره من الدائنين . أعتقد أنه حتى أنت نفسك لا يسعك الآن إلا أن تسلم بأن مشروع « كسب نقاط » من أبيك بمجرد تركه يعمل على إشهار إفلاسى لم يكن فى الواقع ذلك النجاح المتألق من كل جانب ، كما تصورته ! لم يكن كذلك فى نظرى على كل حال . وإنما كان يجب أن تفكر فيما

Twitter: @abdulllah1994

سيحدث لي من ألم ومذلة حينما أصبح هكذا فقيراً ، وذلك بدلاً من اعتمادك على حواس مزاجك مهما كانت حادة أو غير متوقعة ! ومن وجهة نظر الواقع فإنك بالسماح بإشهار إفلاسي ، كما فعلت في حتى على رفع القضية الأساسية ، كنت في الواقع ألعوبة سهلة في يد والدك ، وكنت تفعل تماما ما يريده . وأعتقد أنه لو كان وحده ، ولم يحصل على مساعدة ، لشعر من البدء بعجزه . ومع أنك لم تقصد القيام بمثل تلك الوظيفة الفظيعة ، كما أدرك ، إلا أنه وجد فيك دائماً أكبر حليف .

لقد أخبرني « مور أدى » في خطابه أنك قلت له في الصيف الماضي أكثر من مرة أنك ترغب صادقا في تعويضي عن « قليل مما أنفقته » عليك . وكما قلت له في إجابتي فإنني ، لسوء الحظ ، قد أنفقت عليك فني ، وحياتي ، واسمي ، ومكاني في التاريخ ! ولو أن عائلتك أوتيت جميع الأشياء العجيبة في العالم وكان لها حق التصرف فيها ، لو كان في حوزتها جميع ما يوجد في هذا العالم من عبقرية ، وجمال ، وغنى ، ومركز عالٍ ، وما يشبه ذلك ، ووضعت كل هذه الأشياء تحت قدمي لما أدى ذلك إلى تعويضي عن جزء من أصغر شيء أخذ مني ، بل ولما استطاع أن يمحو أثر دمعة من الكثير الذي ذرفته . على كل حال ، كل شيء يفعله المرء يجب أن يدفع ثمنه ، بالطبع . فحتى مع المفلس يكون الأمر هكذا . وإنما يبدو أن ما انطبع في نفسك عن الإفلاس أنه وسيلة مريحة يستطيع بها المرء أن يتحاشى دفع ديونه ... « كسب نقاط من الدائن » في الحقيقة ! غير أن الأمر على العكس تماماً . فبهذه الطريقة نفسها يستطيع الدائن أن « يكسب نقاطا » من مدينه ، إذا كان لنا أن نساير جملتك المحبوبة ! إنها الطريقة التي بها يتولى القانون إخضاع المدين بالاستيلاء على ممتلكاته ، لدفع كل شيء من ديونه . فإذا رآه عاجزاً

Twitter: @abdulllah1994

عن ذلك تركه مفلساً ، كذلك السائل المحترف الذى يقف فى منحنى طريق أو يزحف بجانب جدار باسطا يده لقبول الإحسان ، وإن لم يطلبه بلسانه ، كما هو الحال فى انجلترا على الأقل .

لقد أخذ منى القانون كل شيء ... أخذ ما كان لدى من أثاث ، وصور ، وكتب ، بل وحصل حتى على حقوق الطبع عن أعمالى المنشورة وتمثيلياتى ، وهكذا حصل على كل شيء فى الواقع ... من « الأمير السعيد » و « مروحة لادى وندرمير » حتى أبسطة درج المنزل ومنافض الأحذية أمام الأبواب . ومع ذلك فلم يكتف بكل ذلك ، بل أصر على أخذ كل ما يمكن أن أحصل عليه مستقبلا . فقد حدث على سبيل المثل أن بيعت الفائدة التى تخصنى فى تسويات زواجى . غير انى لحسن الحظ استطعت أن أستردها بواسطة أصدقاء اشتروها لحسابى، وهكذا استطعت أن أتدارك مستقبل ولدىّ ، إذ لو حدث أن ماتت زوجتى لعاشا فى فقر مدقع طالما كنت على قيد الحياة ، كما هو حالى الآن . وهكذا الفائدة التى تخصنى فى عقارنا فى إيرلندا ، وقد أوقفت على بواسطة والدى . فهى كما ارى ستلقى نفس المصير . والواقع إننى أشعر بمرارة حينما أتصور أنها بيعت . ولكن لا حيلة لى فى ذلك .

إن لوالدك سبعمائة من البنسات — أم تراها من الجنيهات ؟ هذا المبلغ يقف الآن فى الطريق . فهو يجب أن يسدد . فحتى حينما أكون جردت من كل شيء فإن علىّ أن أسدده . ويجب أن يكون على ذلك دائماً ، حتى إذا ما حصلت على مخالصة ، كمفلس ميئوس من حالته !

إن وجبات الغداء الشهية ، بما كان فيها من حساء الترسة الصافى ، والعصافير الصغيرة اللذيذة ، التى كان يؤتى بها من « سيشل » مغلفة بأوراق الكروم المجعدة ، وذلك النوع من « الشمبانيا » الذى كان

Twitter: @abdulllah1994

فى لون الـكهرمان الداكن ، بل وحتى مذاقه كان فى الواقع معطراً برائحة الـكهرمان — أعتقـد أن نبيذك المفضل كان « داجونيه ـ ١٨٨٠ » — كل ذلك لا تزال أثمانه فى انتظار التسديد !

كذلك وجبات العشاء فى مطعم « ويليس » ، بما كان فيها من عصير العنب الخاص الذى كان دائماً يحفظ لنا خصيصا ، والفطائر المدهشة التى كان يؤتى بها للتو من « ستراسبورج » ، و « الشمبانيا » الفاخرة التى كانت تقدم لنا دائماً فى أقداح كبيرة فى شكل الناقوس ، لتـكون النكهة أشهى مذاقا فى فم المتشهى الصادق لما كان حقا شيئاً نفيسا فى الحياة — هذه الأشياء لا يمكن أن تترك بغير دفع أثمانها ، باعتبار أن الأمر ديون ميتة فى ذمة عميل غشاش ! بل حتى زرار القميص ، وهى أربع قطع فى شكل القلب من فضة رصعت بالياقوت والمـاس ، وقد صممتها بنفسى وقام « هنرى لويس » بصياغتها لأقدمها إليك كهدية صغيرة بمناسبة نجاح ملهاتى الثانية — حتى تلك القطع التى أعتقد أنك بعتها لقاء أغنية بعد حصولك عليها بشهور قليلة ، يجب أن أدفع ثمنها ، إذ أننى لا أستطيع أن آكل حق الجواهرجى بسبب هدايا قدمتها إليك ، وليس يهم ماذا فعلت بها . وعليه ، فحتى لو حصلت على مخالصة فإنك ترى أنه لا يزال على أن أسدد ديونى .

ثم إن ما هو صحيح بالنسبة إلى المفلس صحيح بالنسبة إلى أى واحد آخر فى الحياة . فكل شىء يحدث لا بد من أن يؤدى شخص ما ثمنه . فحتى أنت نفسك — بالرغم من كل ما فيك من رغبة فى التحرر المطلق من كل الواجبات وإصرار على الحصول على كل شىء بغير مقابل ، وتصميم على رفض كل مطالبة بإبداء المودة والاعتبار والامتنان — حتى أنت سترى نفسك يوماً مضطراً إلى التفكير جديا فيما فعلت ؛ وتحاول ، مهما كان الأمر صعبا ، أن

Twitter: @abdulllah1994

تقوم بأى شىء للتكفير عما فعلت . وحينما ترى أنك غير قادر على القيام عمليا بشىء سيكون هذا جزءا من عقابك . انك لن تستطيع أن تغسل يديك من جميع المسئوليات ثم تمضى ، فى هزة كتف أو ابتسامة ، فى طلب صديق جديد ، أو تخطو إلى وليمة أعدت فى الحال . ولن تستطيع أن تعالج كل ذلك الذى جلبته على كما لو كان ذكرى عاطفية تقـــدم فى المناسبات مع السجاير وأقداح الشراب ، وهو منظر فى حياة السرور الحديثة لايقل بهاء عن منظر طنفسة قديمة علقت فى بهو نزل عام . فربما جاء هذا فى لحظته بسحر لا يقل عما يتأتى فى صبغ(*) جديد ، أو فى قطاف كروم يبشر بالمحصول ؛ غير أن نفاية الوليمة سرعان ما تصبح قديمة ، كما أن رواسب القارورة مرة دائماً . فسترى نفسك اليوم ، أو غداً ، أو يوما ما ، مجبولا على إدارك الأمر . وإلا فربما مت بغير أن تفعل . فيالها حينئذ من حياة منحطة ، جوفاء ، مجردة من التخيل، تلك التى تـكون عشتها ! لقد أبديت فى خطابى إلى « مور » وجهة نظر كان أجدر بك أن تأخذ بها للاقتراب من الموضوع بأسرع ما تستطيع . وسيخبرك ما هى . ولـكن لـكى تستطيع أن تفهمها يجب أن تثقف مخيلتك : تذكر أن المخيلة هى القوة التى تعين المرء على أن يرى الأشياء والأشخاص فى علاقاتها الواقعية والمثالية . فاذا لم تستطع أن تدرك ذلك بنفسك فتحدث فى الموضوع إلى آخرين . لقد نظرتُ إلى ماضىّ وجها لوجه . فانظر كذلك إلى ماضيك وجها لوجه . اجلس فى سكون ثم فـكر فى الأمر . فان الضحالة أعظم الرذائل ، ومهما كان ما أدرك فهو

(*) الـكلمة هنا ترجمة لـكلمة Souce ، بمعنى « الصلصة » بالعامية .
« المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

صحيح . تحدث إلى أخيك عن الأمر ، فالواقع إن « برسى » هو الشخص المناسب لتتحدث إليه . دعه يقرأ هذا الخطاب ، ويعلم بكل ظروف صداقتنا . فعندما تتضح له كل الأمور لن يكون هناك أصدق منه فى إصدار الحكم . ولو كنا أخبرناه بالحقيقة من البدء لكان من الممكن تجنب الكثير مما لقيته من آلام وفضائح . انك تذكر انى اقترحت ذلك فى الليلة التى وصلتَ فيها إلى لندن قادما من الجزائر . ولكنك رفضت بتاتا . فلما جاء إلينا بعد الغداء لم يكن أمامنا إلا أن نمثل تلك المهزلة التى صورنا فيها أباك رجلا معتوها تنتابه وساوس سخيفة لا حد لها . لقد كانت مهزلة عظيمة طالما كانت باقية . ولم يكن لها إلا أن تكون بعد أن أخذها « برسى » على محمل الجد . ولكن من سوء الحظ أن نهايتها جاءت فى أسلوب من الفتنة الشديدة . وهذا الموضوع الذى أعالجه الآن من بعض نتائجها . فإذا كان هذا الأمر يسبب لك متاعب فأرجو ألا تنسى أنه أعمق بواعث إذلالى ، وانه لم يكن لى مناص من المضى فيه . فأنا لا أملك حق الخيار ، وكذلك لا تملك أنت .

والشىء الثانى الذى أريد أن أتحدث إليك عنه هو فيما يتعلق بالأحوال والظروف والمكان الذى يمكن أن نلتقى فيه بعد خروجى من السجن . لقد علمت من بعض خلاصات الخطابات التى كتبتَها إلى « روبى » فى أوائل صيف العام الماضى انك قد جمعت ما بعثت به إليك من خطابات وهدايا — أو ما بقى منها على الأقل — فى طردين أغلقتهما وانك مهتم بتسليمها إلى يداً بيد . ومن الضرورى ، بالطبع ، أن تعاد إلى هذه الأشياء . فقد عجزت عن أن تفهم لم كتبت إليك خطابات جميلة ، ولم أرسلت إليك هدايا جميلة . وقد فشلت فى أن ترى أن الأولى

Twitter: @abdulllah1994

لم يقصد بها أن تنشر ، وأن الثانية لم يقصد بها أن ترهن . فضلا عن ذلك فان تلك الأشياء تتصل بجانب من الحياة قد انتهى منذ أمد طويل؛ وهي تتعلق بصداقة لم تستطع بكيفية ما أن تقدرها حق قدرها . يجب أن تعود بتفكيرك في دهشة إلى تلك الأيام حيث كانت حياتي كلها في يديك ! إن هذا ما أفعله الآن أنا نفسي ، وان كنت أفعله لا في دهشة وحسب بل في شعور آخر : في عواطف تختلف .

سينطلق سراحي في أواخر مايو ، إذا سارت الأمور كما ينبغي . وحينئذ سأذهب في الحال إلى الخارج ، حيث أحل ببعض القرى الصغيرة على ساحل البحر ، وسيكون معي « روبى » و « مور أدى » . إن البحر ، كما يقول « يوريبيدس Euripides » في إحدى تمثيلياته عن « إيفيجنيا Iphigenia » ، يغسل لطخ الحياة ويداوي جراح النفس(١٧٥) فأرجو أن أقضي شهرا على الأقل مع أصدقائي ، وأن أستعيد في صحبتهم المنعشة بما فيها من مودة هدوئي واتزاني ، وأن أخفف من آلام قلبي وأصبح في حالة أكثر تناغماً . انني أشعر بشوق غريب إلى الأشياء الفطرية البسيطة العظيمة ، كالبحر ، الذي هو بالنسبة إلى بمثابة الأم ، كما هي الأرض . وإنما يبدو لي أننا ننظر إلى الطبيعة أكثر من اللازم ونعيش معها أقل مما يجب . انني أرى قدراً كبيراً من الحصافة في موقف الإغريق . فهم لم يثرثروا قط حول جمال غروب الشمس ، ولم يبحثوا ما إذا كانت الظلال التي تقع على الأعشاب حقاً بنفسجية اللون أم ليست كذلك . بل رأوا أن البحر قد وجد للسبّاح ، وأن الرمال قد وجدت لقدمي ممارس الجري . وقد أحبوا الأشجار لما تلقيه من ظلال ، كما أحبوا الغابة لما فيها من سكون وقت الظهيرة . وقد عمد فلاحهم في مزرعة الكروم إلى جدل شعره بنبات العلّيق ليحمي نفسه من أشعة

Twitter: @abdulllah1994

الشمس بينما كان منحياً فوق الأغصان الصغيرة . أما الفنان والصارع ، وهما النوعان اللذان توارثناهما عنهم ، فقد كانا يجدلان فى ضفائر أوراق الغار المر والمقدونس البرى ، ولم يكن لهذين أى نفع آخر فى أغراض الانسان .

اننا ندعو أنفسنا جيلا منفعياً ، ومع ذلك فاننا لا ندرى كيف ننتفع بشىء واحد ! لقد نسينا أن الماء يمكن أن ينقى ، وأن النار يمكن أن تطهر ، وأن الأرض هى أمنا جميعاً . وكنتيجة لذلك فقد بقى فننا يستمد من القمر ، ويتلاعب بالظلال ، بينما كان فن الإغريق يستمد رأساً من الشمس ، ويتعامل مع الأشياء ! اننى أشعر أكيداً بأنه يوجد تطهير فى القوى الجوهرية ! ولذلك فانى أريد أن أعود إلى تلك القوى لأعيش فى وجودها . بالطبع بالنسبة إلى شخص عصرى مثلى ، أعنى طفل جيلى فان مجرد النظر إلى الدنيا سيكون دائماً محبوباً . والواقع أن جوانحى لتهتز سروراً حينما أذكر أنه فى نفس اليوم الذى سأغادر فيه السجن ستكون الزهور الصفراء والحمراء ماضية فى تفتحها فى الحدائق ، وانى سأرى الرياح تهز فى جمال لا يتوقف ما فى الواحدة من ذهب يتأرجح ، وتجعل الثانية تقذف بما فى رياشها من أرجوان شاحب ، فيكون فى هذا كله جو لا يقل جماله بالنسبة إلى عما كان فى « الحدائق المعلقة » ! لقد خر « لينيوس Linneaus » على ركبتيه وبكى من شدة الفرح حينما رأى للمرة الأولى مرجاً طويلا فى بعض النجاد الإنجليزية وقد كسته صفرة بفعل الزهور العطرية العفراء لشجيرة الرتم العادية . وإنى أعلم أنه فيما يتعلق بى ، وقد كانت الزهور دائماً جزءاً من رغبتى ، فان هناك دموعاً فى انتظارى فى أوراق بعض الورود . لقد كان الأمر دائماً معى هكذا منذ طفولتى . فليس هناك لون ما اختفى فى كأس زهرة ، ولا

Twitter: @abdulllah1994

شيء نما في منحنيات صدفة ، لا تستجيب له طبيعتي بفعل التعاطف الخفي مع روح الأشياء في جوهرها . وكما كان « جوتيه Gautier »(*) ، كنت واحداً من أولئك الذين وجد العالم المنظور من أجلهم[176] .

بل إن هناك ما هو أكثر . فالواقع انني أشعر الآن بأن من وراء كل هذا الجمال ، وإن كان فيه كل الرضا ، روحا تختفي ليست كل هذه الصور والأشكال في تلونها إلا مظاهر منها . وقد أصبحت راغباً في أن أكون في توافق مع تلك الروح ؛ فقد وصلت إلى حالة الملل من التفوهات المعقدة من الناس والأشياء . إن الشيء المبهم في الحياة ... الشيء المبهم في الطبيعة ، هو ما أبحث عنه . وربما وجدته في «سيمفونيات» الموسيقى العظيمة ، أو في أوليات الحزن ، أو في أعماق البحر . وإنما المهم جدا أن أجده في أي مكان .

كل المحاكمات محاكمات لحياة الإنسان ، وكل الأحكام أحكام لموته . وقد حوكمت ثلاث مرات . وفي المرة الأولى تركت القفص ليقبض علي ثانية : وفي المرة الثانية أخذت إلى المعتقل ، وفي الثالثة أرسلت إلى السجن لمدة عامين . إن المجتمع ، كما أقناه ، لن يكون لديه مكان لي ، وهو لا يملك تقديم شيء . أما الطبيعة ، بأمطارها التي تسقط على الظالم والعادل على السواء ، فان لديها شقوقاً بين الصخور أستطيع أن أختبيء في واحد منها ، كما أن لديها وديانا خفية أستطيع فيها أن أبكي بغير أن يزعجني أحد . إنها ستمد في طول الليلة المزدهرة بالنجوم لأستطيع أن أمشي إلى الخارج في الظلام بغير أن أتعثر ، وسترسل الرياح لتمحو آثار

(*) Théophile Gauteir شاعر وناقد فرنسي ، ولد في عام ١٨١١ وتوفي عام ١٨٧٢ . ومن بين كتبه « تاريخ الرومانتيسية » .

« المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

قدمي حتى لا يستطيع أحد أن يتعقبني قاصداً إيذائي . وهي سوف تطهرني في مياه عظيمة ، وبأعشابها المرة ستعيدني سليما .

وفي نهاية شهر ، حينما تصبح ورود يونيه في كامل بهائها ، سأدبر الأمر بواسطة « روبي » ، إذا رأيت نفسي قادراً ، لألتقي بك في بعض المدن الأجنبية الهادئة ، كمدينة « بريج Bruges » ، التي كان لبيوتها الرمادية ، وقنواتها الخضراء ، وطرقها الباردة الساكنة ، سحر على لسنوات خلت . وسيكون عليك أن تغير اسمك مؤقتا ، وتطرح جانباً ذلك اللقب الصغير الذي خلق فيك هذا الغرور — وهو الذي جعل اسمك يبدو في الواقع كما لو كان اسما لزهرة ! ويجب أن تقبل ذلك ، إذا كنت ترغب في أن تراني . وهو ما سأفعله أنا أيضاً باسمي الذي كان يوما نغما موسيقياً في فم الشهرة ، إذ سأتخلى عنه بدوري . ما أضيق قرننا هذا ، وما أخسه ، وما أقل ملاءمته لأعبائه ! انه يستطيع أن يقدم للنجاح قصراً من الرخص ، غير أنه لا يحتفظ للحزن والفضيحة ببيت ولو من صفصاف ربما استطاعا أن يتواريا فيه ! إن كل ما يستطيع أن يفعله لي أن يفرض علي أن استبدل باسمي اسماً آخر ، بينما كان في استطاعة القرون الغابرة ، حتى القرون الوسطى ، أن تقدم لي قلنسوة الراهب ، أو غطاء وجه الأبرص ، لأشعر بشيء من الهدوء من وراء هذا أو ذاك .

أرجو أن يكون لقاؤنا ما يجب أن يكون من لقاء بينك وبيني . بعد كل ذلك الذي حدث . كان هناك دائماً هوة بيننا في الأيام القديمة ، تلك كانت هوة الفن المنجز والثقافة المكتسبة . ثم أصبح بيننا الآن هوة أوسع ، هي هوة الحزن . ومع ذلك فلا يوجد مستحيل في حالة الحزن . كما ان كل الأشياء سهلة في حالة الحب .

Twitter: @abdulllah1994

أما فيما يتعلق بردك على الخطاب ، فتستطيع أن تجعله طويلا أو قصيرا ، كما تشاء . أكتب على المظروف : « المحافظ ، سجن صاحبة الجلالة ، ريدنج » . وفى الداخل فى مظروف آخر مفتوح ، ضع خطابك إلىّ . فاذا كتبت على ورق رفيع فلا تكتب على وجهى الورقة ، فهذا يجعلها عسيرة القراءة على الآخرين . لقد كتبت إليك فى حرية تامة ، فتستطيع أن تكتب إلى بنفس الأسلوب . إن ما يجب أن أعلمه منك هو : لمَ لمْ تحاول قط أن تكتب إلى ؟ فمنذ أغسطس من العام الأسبق كنت تعلم كم سببت لى من عذاب ، وكم كان إدراكى لذلك، بل واعترفت لآخرين بأنك علمت ذلك . وقد زاد علمك بالأمر فى مايو من العام الماضى . وها قد مضى أحد عشر شهراً بينما كنت أنتظر شهراً بعد آخر لأسمع منك دون جدوى . وحتى لو كنت لم أنتظر بل أغلقت أبوابى دونك ، فقد كان يجب أن تذكر أن أحداً لا يستطيع أن يغلق أبواب الحب إلى الأبد . فالقاضى الجائر ، كما جاء فى الإنجيل ، ينهض فى النهاية ليصدر قراراً عادلا ، بعد أن مضى العدل يومياً يقرع بابه . والصديق الذى لم يكن فى قلبه ذرة من الصداقة الحقة إذا ما جاء الليل يستسلم فى النهاية لصديقه « بسبب الحافه »(١٧٧) . ليس هناك سجن ما فى أى عالم لا يستطيع الحب أن يجد إليه طريقه . فاذا لم تفهم هذا فإنك لم تفهم شيئاً بتاتاً عن الحب . ثم دعنى أعلم كل شىء عن مقالتك عنى إلى صحيفة «مركير د فرانس» . لقد علمت عنها بعض الشىء ، إذ أنها طبعت . فالأفضل إذن أن تقتبس منها . كذلك أريد أن أعرف ما هى الصيغة الصحيحة التى وضعتها فى إهدائى أشعارك . فاذا كانت نثراً فانقله إلى ، وإذا كانت شعراً فانقله كذلك . فليس لدى شك فى أن فيها شيئاً من الجمال . اكتب إلى فى صراحة تامة عن نفسك : عن حياتك ، وعن أصدقائك ، وعن أوجه نشاطك ، وعن كتبك .

Twitter: @abdulllah1994

واخبرنى عن كتابك وكيف استقبل . ومهما كان ما تريد قوله عن نفسك فقله بغير خوف . لا تكتب ما لا تعنيه . فهذا ما لا أريده . فاذا جاء شىء فى خطابك كذباً أو زوراً فاعلم أنى سأتقصاه فى الحال بواسطة الخاتم . أم حسبت أنه كان عبثاً أو إلى غير غاية أن جعلت من نفسى فى عقيدتى من الأدب طوال حياتى

بائساً بالجرس وبالمقطع ، لا يقل
عن « ميداس »(*) بضرب نقوده(١٧٨) .

تذكر أيضاً انى لا أزال فى حاجة إلى معرفتك . ومن يدرى ، فربما كنا لا نزال فى حاجة إلى معرفة أحدنا الآخر !

أما لك ، فلم يبق إلا هذا الشىء الأخير لأقوله : لا تخف من الماضى ! فاذا قال لك الناس إنه لا ينقض فلا تصدقهم . إن الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، كلها ليست إلا لحظة واحدة فى علم الله . وهو الذى يجب أن نحاول أن نعيش فى علمه . إن الزمن والفضاء ، والتعاقب والامتداد ، هذه كلها مجرد حالات عرضية للفكر . والمخيلة تستطيع أن تتخطى هذا كله ، لتتحرك فى دائرة حرة من حالات الوجود المثالية . وكذلك الأشياء ، فهى فى جوهرها ما نريدها أن تكون . فالشىء يكون طبقا للحالة التى ينظر المرء فيها إليه . يقول « بليك Blake » : « حيثما لا يرى

(*) ميداس Midas هو ملك « فريجى Phrygie » ، وقد استطاع أن يحصل من الآله « باخوس » على خاصية تحويل كل شىء لمسه إلى ذهب . غير أن هذه الرغبة كلفته عناء ليس بعده عناء ، فقد كان كل شىء لمسه يتحول إلى ذهب ، حتى طعامه ! ولكى يخلصه الاله من هذه الموهبة المشئومة أمره بالاغتسال فى نهر الـ « باكتول Pactole » ، وهو نهر صغير فى « ليديا » . فحملت مياهه تبر الذهب منذ ذلك الحين .

« المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

الآخرون أكثر من الفجر يطلع فوق التلال ، أرى أبناء الله يهتفون للسرور »[١٧٩] . إن ما تصور العالم ، وتصورتُ ، انه كان مستقبلى فضاع حينما أقدمت على رفع القضية على والدك أستطيع الآن أن أقول انه قد ضاع فى الواقع قبل ذلك بزمن طويل . إن ما يقع أمامى الآن هو ماضىّ . لقد أوتيت المقدرة على أن أنظر إليه بعين مختلفة ، وأن أجعل العالم ينظر إليه بعين مختلفة ، وأن أجعل الله ينظر إليه كذلك بعين مختلفة . غير أنى لا أستطيع أن أفعل ذلك بتجاهله ، أو بالتقليل من شأنه ، أو بامتداحه ، أو بإنكاره . فليس هناك طريق إلا قبوله كاملا ، كجزء لا مفر منه من نشوء حياتى وتطور طبيعتى ... ليس هناك إلا أن أحنى رأسى لكل شيء تعذبت منه . كم أنا الآن بعيداً عن مزاج نفسى الحقيقى ! هذا ماسيظهره لك هذا الخطاب بوضوح تام ، فى حالاته المتقلبة المتشككة ، وما فيه من سخرية ومرارة ، ومن تلهفات ، وفشل فى تحقيق هذه التلهفات ! ولكن لا تنس فى أى مدرسة مريعة جلست الآن أمام واجبى ! فإذا كنت لا أزال بعيداً عن الكمال فربما كان هناك الكثير مما تستطيع أن تستفيده منى . لقد أتيت إلى لتتعلم السرور فى الحياة والسرور فى الفن . ولكن من يدرى ، فربما كان قد وقع علىّ الاختيار لأعلمك شيئاً أكثر عجباً : معنى الحزن ، وما فيه من جمال !

صديقك الودود

أوسكار وايلد

Twitter: @abdulllah1994

تعليقات

استعملت الاختصارات الآتية في التعليقات :

Glaenzer — Two Hundred Books from the Library of Richard Butler Glaenzer (Anderson Auction Co., New York 1911).

مائتا كتاب من مكتبة ريتشارد بتلر جلينزر (أندرسن أوكشن وشركاهم ، نيويورك ، ١٩١١) .

Harris — Oscar Wilde, His life and Confessions, by Frank Harris, (New York, 1918).

أوسكار وايلد ، حياته واعترافاته ، بقلم فرانك هاريس (نيويورك ، ١٩١٨) .

Mason — Bibliography of Oscar Wilde, by Stuart Mason (1914).

سيرة أوسكار وايلد بقلم ستيوارت ماسون (١٩١٤) . هذا الكتاب وإن لم يكن فهرس بدقة بل رتب بطريقة سيئة ، إلا أنه قد أفعم بمعلومات صحيحة ، غالبا ما خرجت عن الموضوع .

Twitter: @abdulllah1994

Meyerfeld — Max Meyerfeld's notes to his translation of Wilde's Letzte Briefe, (Berlin, 1925).

تعليقات ماكس ميرفلد على ترجمته لخطابات وايلد الأخيرة (برلين ١٩٢٥) .

Miscellanies — Volume XIV of the Collected Edition of Wilde's
منوعات — Works; edited by Robert Ross, (1908).

الجزء الرابع عشر من الطبعة المتجمعة من أعمال وايلد ، طبعت بواسطة روبرت روس (١٩٠٨) .

O'Sullivan — Aspects of Wilde by Vincent O'Sullivan, (1936).

مظاهر وايلد بقلم فينست أو سوليفان (١٩٣٦) .

Reviews — Volume XIII of the Collected Edition of Wilde's
عرض — Work, edited by Robert Ross, (1908).

الجزء الثامن عشر من الطبعة المتجمعة من أعمال وايلد ، طبعت بواسطة روبرت روس (١٩٠٨) .

Rothenstein — Men and Memories py William Rothenstein (Vol. 1, 1930).

رجال وذكريات بقلم ولم روذنشتاين (جزء ١ ، ١٩٣٠) .

Trials — The Trials of Oscar Wilde, edited with an
محاكمات — introduction by H. Montgomery Hyde (1948).

محاكمات أوسكار وايلد ، طبعت مع مقدمة بواسطة ه . مونتجمري هايد .

Twitter: @abdulllah1994

للتدليل على النسخة الأصليـة استعمل المؤلف : مستر روبرت هارت ـ داڤيز ، هذين الحرفين « M S » كما استعمل حرفى « T S » للتدليل على النسخة المنقولة . (مثال : M S هولاند) . للوقوف على توضيح أوفى عن مصادر هذه المواد ومواضعها ارجع إلى «خطابات أوسكار وايـلد» التى قام بترتيبها روبرت هارت ـ داڤيز ونشرتها « شركة هاركورت ، بريس والعالم » .

التعليقـات

١ ـ روبرت بلدوين روس Robert Baldwin Ross (١٨٦٩-١٩١٨). كان كنديا . وكان جده ، روبرت بلدوين ، أول رئيس وزراء لكندا العليا . أما أبوه ، جون روس ، فقد كان النائب العام . وحينما مات أبوه ، وكان لا يزال فى الثانية ، توجهت به والدته إلى انجلترا قصد تعليمه . ولم يؤرّخ منهج دراسته . غير أنه ذهب فى ١٣ من أكتوبر سنة ١٨٨٨ إلى « كلية الملك » بكمبريدج حيث اتجه فى دراسة التاريخ . ومع أنه كان بين الفريق الثانى للكلية فى سباق الزوارق إلا أنه سرعان ما وقع فى متاعب بسبب قيامه بنشر ملاحظات فى بعض صحف الطلبة تضمنت نقـداً جريئاً لطريقة انتخاب الزملاء فى الكلية ؛ فألقى به فى الينبوع ، وأصيب بالتهاب رئوى ، ثم ترك كمبريدج باختصار عام ١٨٨٩ (انظر « روبرت روس فى كليـة الملك » بقلم بروس ديكنز Bruce Dickins فى صحيفة كمبريدج ، عدد ٢٣ يناير سنة ١٩٦٠) . ولقـد أصبح بعد ذلك صحفياً أديباً وناقداً فنيا . والتقى بوايلد المرة الأولى فى

Twitter: @abdulllah1994

عام ١٨٨٦ . للالمام بتفاصيل حياته العملية ومراسلاته فيما تلا ذلك ، ارجع إلى :

Robert Ross : Friend of Friends ; edited by Margery Ross (1952).

٢ — De Profundis .

٣ — لورد ألفرد بروس دوجلاس Lord Alfred Bruce Douglas ، الابن الثالث للمركيز الثامن من أسرة كوينزبري Queensberry ، ولد في عام ١٨٧٠ ، وتعلم في ونشستر ثم في كلية مجدالن باكسفورد .

٤ — في الثاني من أبريل كتب الحافظ إلى مفوضية السجون سائلا ما إذا كان من الممكن السماح لخطاب « كتب في الثلاثة أو الأربعة أشهر الأخيرة » بأن يرسل خارج السجن . فردت المفوضية في السادس منه بأن ذلك مستحيل . وإنما يستبقى الخطاب ثم يسلم إلى السجين وقت خروجه . وقد حدث هذا في ١٨ من مايو ؛ ثم سلم وايلد الخطاب إلى روس في « دييب » حينما نزل هناك في ٢٠ منه . (انظر تعليق ٢٦) .

٥ — ولیم مور أدی William More Adey (١٨٥٨ — ١٩٢٤) . نشر في عام ١٨٩١ ، تحت اسم مصطنع هو وليم ولسون ، الترجمة الإنجليزية الأولى لكتاب « براند Brand » لـ « ابسن Ibsen » . وكان صديقا حميما لروبرت روس . وقد اشترك معه فيما بعد في إدارة معرض صور « كارفاكس » . وكان محررا مشتركا في « صحيفة Burlington Magazine » من عام ١٩١١ إلى ١٩١٩ . للوقوف على حياته في السنوات الأخيرة ارجع إلى « رحلة سيجفريد ساسون Siegfried Sasson » (١٩٤٥) .

Twitter: @abdulllah1994

٦ — كونستانس مارى لويد وايلد Constance Mary Lloyed Wilde (ولدت فى عام ١٨٥٧) ، كانت ابنة لهوراس لويد ، مستشار الملكة (١٨٢٨ — ١٨٧٤) .

٧ — سيريل Cyril ، الإبن الأكبر لوايلد ، ولد فى ١٦ تايت ستريت فى ٥ من يونيه ١٨٨٥ . أما ڤيڤيان Vyvyan ، الإبن الثانى ، فقد ولد فى ٣ من نوفمبر ١٨٨٦ . وقد غير اسمه فيما بعد إلى ڤيڤيان هولاند .

٨ — كان مور أدى يعيش فى ٢٤ هورنتن ستريت ، كينسنجتون . وكان روبرت روس يعيش قريباً منه فى ١١ أبر فيليمور جاردنز .

٩ — انظر تعليق ٢٦ .

١٠ — أكثر ما جاء فى هاتين العبارتين مما تضمنه ما نشر من خطاب « د برفوندى » فى عام ١٩٠٥ . انظر تعليق ٢٩ .

١١ — أديلا شوستر Adela Schuster . كانت ابنة لـ « ليو شوستر Leo Schuster » ، وكان مصرفيا من أثرياء فرانكفورت أقام فى ڤيلا كبيرة فى ويمبلدن بانجلترا كانت تدعى « كانيزارو » . وكانت أديلا امرأة على جانب كبير من الأدراك ، كما كانت ذات مروءة . وكانوا يدعونها الآنسة « نونو » (Miss Tiny) متهكمين بسبب ضآلة جسمها .

١٢ — فرانكى فوربس - روبرتسن Frankie Forbes-Robertson ، كانت روائية (١٨٦٦ — ١٩٥٦) ، وهى شقيقة كل من « جونستون » و « نورمان » و « أريك » و « إيان » .

١٣ — « مكبث » ، الفصل الخامس ، المشهد الثالث .

Twitter: @abdulllah1994

١٤ — يقول « مير » إن هذه الجملة تشير إلى اقتراح لروس جاء على محمل الهزل بتكوين جماعة تعارض فى شعر شكسبير ما كان يبدو فيه كثير من المغالاة. وأن القصيدة التى نشرها دوجلاس فى « مدينة النفس » فى عام ١٨٩٩ ، وعنوانها « إلى شكسبير » كتبت بدافع الغضب من هذا الاقتراح.

١٥ — واقعيا فى العاشر من مارس.

١٦ — السادة هارجروف وشركاهم Hargrove and Co. ، كانوا محامين آل لويد ، أسرة كونستانس وايلد.

١٧ — جورج هنرى لويس George Henry Lewis (١٨٣٣ — ١٩١٦). حصل على رتبة فارس فى عام ١٨٩٣ ، ثم على رتبة بارون فى عام ١٩٠٢. وكان رئيسا لبيت « لويس ولويس » للمحاماة. وتذكر « اليزابيث روبينز » أن وايلد قال عنه فى عام ١٨٨٨ : « ان جورج لويس أحسن محامى فى لندن ؛ فهو لامع ومهيب ومعروف فى العالم كله ؛ وهو مهتم بكل قضية كبيرة فى انجلترا. انه يعلم عنا كل شىء ، وهو يغفر لنا جميعاً ». انظر أيضاً ص ١٥٧.

١٨ — مارتن هولمان Martin Holman ، من بيت « باركر ، جاريت وهولمان ».

١٩ — فى ٢٦ من مارس كتبت كونستانس وايلد ما يأتى من إيطاليا إلى أخيها « أوتو هولاندلويد » (١٨٥٦ — ١٩٤٣) ، (MS هولاند) :

كان هناك ضغط علىّ مرة أخرى لإقناعى بالرجوع إلى أوسكار. ولكننى متأكدة من أنك ترى معى أن هذا لم يعد فى الإمكان. لقد

Twitter: @abdulllah1994

أخبرت أنني بذلك سأنقذ نفساً بشرية . غير أنى لا أملك تأثيرا على أوسكار ، ولم يكن لى شىء من ذلك . وحقاً إنه محب ، كما أعتقد ؛ إلا أنى لا أرى ما يحمل على الاعتقاد بأن فى استطاعتى الآن أن أقوم بشىء من المعجزات . وإنما يجب أن أهتم بأمر ولدىّ ، وألا أجازف بمستقبلهما . هناك من يعتقد بأنه سقط ولن يستطيع النهوض ؛ فهو فى هذه الحالة كما لو كان شيئاً معوقا . وإنما أعتقد أن حظه هو الذى كان معوقا ، فقد جلب عليه الحزن بقدر ما أبعده عن الطريق القويم .

٢٠ — من « وداعاً أى مارى ستيوارت » ، وقد نشرت مع قصائد أخرى فى عام ١٨٨٢ .

٢١ — هذه الإشارة لا بد أن تكون راجعة إلى شقيق وايلد وزوجته ، إذ أن مسز ويلى وايلد كانت الشخص الوحيد الذى تسلم ٥٠ جنيها من ليفرسن .

٢٢ — ارنست داقيد ليفرسن Ernest David Leverson كان ابناً لتاجر ماس ؛ وزوجاً لـ « أدا ليفرسن Ada Leverson » (أدا استر بدينجتون) . وكانت أدا تكتب قطعاً فكاهية فى صحيفة « بنش » وغيرها ، ثم قامت بنشر روايات ناجحة . وكانت من صديقات وايلد المقربات . وكان يطلق عليها هذا الاسم « The Sphinx » (أبو الهول) .

٢٣ — جيمس توماس (فرانك) هاريس James Thomas (Frank) Harris (١٨٥٦ ؟ — ١٩٣١) . مؤلف ، ومحرر ، ومغامر ، قضى شطراً كبيراً من شبابه فى أمريكا ثم عاد إلى انجلترا ، واضطلع فى عام ١٨٨٣ بتحرير الـ « ايفننج نيوز » . ومنذ عام ١٨٨٦ أصبح محررا لصحيفة « فورتنايتلى ريفيو » . وكان متسفلا فى بعض الطرق . أما

Twitter: @abdulllah1994

مواهبه كقصاص يعتمد على المخيلة فهى أكثر وضوحا فى سيرة حياته وما ترجم به لنفسه منها فى قصصه الخيالية . ومع ذلك فإن كتابه « أوسكار وايلد : حياته واعترفاته » (١٩١٦) ، وان لم يكن مرجعا يمكن الاعتماد فيه على الواقع إلا أن فيه الكثير من التقدير المؤثر. وكان أجمل شىء فى هاريس إنه لم يأل جهدا فى إبداء العطف على وايلد وإظهار المروءة معه .

٢٤ — أرثر بلامى كليفتن Arthur Bellamy Clifton ، (١٨٦٢ — ١٩٣٢) . كان ابناً لأستاذ الفلسفة التطبيقية فى جامعة اكسفورد . وكان محاميا ؛ ثم أصبح تدريجياً ممن يتعاملون فى الفنون. وفى عام ١٨٩٨ قام هو و « چون فوذرچيل » بإنشاء « معرض كارفاكس » فى « ريدر ستريت » ، واشتغل مديراً له . وفى عام ١٩٠٠ انضم كل من « روبرت روس » و « مور أدى » إلى المعرض الذى كان مهتما بأعمال « كوندر » و « چون » و « ماكس بير بوم » و « سيكرت » و « روذنشتين » .

٢٥ — الكسندر جالت روس Alexander Galt Ross ، (١٨٦٢ — ١٩٣٢) ، الأخ الأكبر لروبرت روس . مؤسس وسكرتير جمعية المؤلفين . وقد صحب « ريدر هاجارد » إلى إيسلاندا فى عام ١٨٨٨ . وبعد فترة قصيرة فى معالجة الأدب أصبح شريكا فى بيت للشئون المالية .

٢٦ — لم يرسل هـذا الخطاب الطويل مباشرة من السجن (انظر تعليق ٤) ، بل سلمه وايلد إلى روبرت روس بعد خروجه من السجن . وقام روس باستخراج نسختين منه على الآلة . غير أنه لم يرسل النسخة الأصلية إلى دوجلاس ، كما طلب وايلد (انظر تعليق ٩)

Twitter: @abdulllah1994

بل أرسل واحدة من النسختين المطبوعتين . وقد أنكر دوجلاس دائماً أنها وصلته .

وفى عام ١٩٠٥ قام روس بنشر مختصرات لم تبلغ نصف الخطاب بعنوان « De Profundis » . ثم ظهرت طبعة أخرى أضيف إليها زيادات بسيطة فى المجموعة التى طبعت فى عام ١٩٠٨ . ولم تتضمن كل من هاتين الطبعتين أى إشارة إلى دوجلاس . وفى عام ١٩٠٩ سلم روس النسخة الأصلية إلى المتحف البريطانى ، مشترطا ألا يطلع عليها أحد قبل مرور خمسين عاما .

أما النسخة المطبوعة الثانية ، وهى التى احتفظ بها روس ، فقد أورثها بعد ذلك لڤيڤيان هولاند (انظر تعليق ٧) ، لتكون النص الكامل « للطبعة الصحيحة الأولى » التى نشرها مستر ڤيڤيان ثانية بعنوان « د برفوندى » فى عام ١٩٤٩ . ولقد ساد الاعتقاد ، بطبيعة الحال ، بأن كلا من النسخة المستخرجة على الآلة والنسخة الأصلية مطابق للآخر ، وأن هذه الطبعة كانت فعلا كاملة وصحيحة . غير أنها لم تكن فى الواقع لا كاملة ولا صحيحة ، بل امتلأت بالأخطاء ، التى يمكن تقسيمها إلى أربع مجموعات رئيسية :

١) قراءات رديئة لكتابة وايلد ؛

٢) أخطاء عمدية ربما كان سببها أن روس كان يعتمد على ناسخة محدودة الثقافة ؛

٣) « تحسينات » أدخلها روس على أسلوب وايلد فى القواعد والتركيب ؛

Twitter: @abdulllah1994

٤) الانتقال المبهم فى عبارات ، بل وفقرات بأكملها ، من جزء إلى آخر من الخطاب .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد حذف روس من الموضوع فى جملته أكثر من ألف كلمة كانت كلها تقريباً نقداً عنيفا وجه إلى دوجلاس وإلى أبيه ، ومنها على سبيل المثل وصفه لـ « كوينزبرى » فى المحكمة . أما الآن فإن هذا الخطاب الذى يعتبر أطول وأهم ما كتب وايلد قد طبع أخيراً بالضبط كما كتبه هو ، باستثناء شىء واحد ، فقد عمدت إلى تقسيم الخطاب إلى فقرات أكثر مما فعل حينما رأى نفسه مضطرا إلى الاقتصاد فى الورق .

لقد كتب الخطاب فى عشرين فرخا (كلا من أربع صفحات) من ورق السجن الأزرق المسطر حمل كل منها الشعار الملكى مطبوعا فى الرأس . وقد حملت الفروخ أرقاما بخط وايلد من ١ إلى ١٨ (بما فى ذلك ١٣ و ١٥) . وفى ٤ من أبريل ١٨١٧ كتب محافظ سجن ريدنج إلى مفوضية السجن شارحا كيف كتب الخطاب فقال : « كل فرخ رقم بعناية قبل إصداره . وكان يسحب كل مساء وقت إغلاق السجن ويوضع أمامى فى الصباح بين الأوراق العادية » ، (مخطوط وزارة الداخلية) . غير أن دراسة دقيقة للنسخة الأصلية تجعل من الصعب تصديق هذا التقرير . والواقع اننى أشك فى أن يكون المأجور المسن قد شغل نفسه بأمر وايلد أكثر مما فرض عليه منصبه فى مراعاة لموقفه أمام رؤسائه . وقد بنيت اعتقادى على هذه الأسباب :

١) إن الفروخ ١ و ٢ و ١٣ تحمل كل الظواهر على أنها نسخة مبيضة . فالكتابة فيها أكثر انتظاما وترتيبا وإحكاما . وهى

Twitter: @abdulllah1994

لا تحتوى إلا على النادر من التصحيحات أو التنقيحات ، بينما تمتلىء الفروخ السبعة عشر الأخرى بذلك .

ب) لا يوجد بين الفروخ العشرين (باستثناء الأخير) سوى اثنين فقط ينتهى فيهما الفرخ بنهاية جملة .

ج) فى الخطاب التمهيدى الذى كتبه وايلد إلى روس بتاريخ أول أبريل سنة ١٨٩٧ (انظر صفحة ١٠٩) نراه يشير إلى مواضع فى عدة فروخ مختلفة ، ويفعل ذلك فى الحال ، قائلا أنه « يقتبس من الذاكرة » . غير أنه من الصعب تصديق ذلك بسبب دقته فيما أورده .

٢٧ – إلى روبرت روس (النسخة الأصلية : كلارك)

السبت (٢٣ أو ٣٠ مايو ١٨٩٦ ؟)[1]

(سجن صاحبة الجلالة بريدنج ؟)

عزيزى روبى :

لم أستطع أمس أن أجمع شتات أفكارى ؛ إذ لم أكن توقعت حضورك حتى اليوم . فأرجو أن تحدد الوقت دائما كلما رأيت أن تتكرم بزيارتى ، إذ أن أى طارىء مفاجىء يسبب لى اضطرابا .

لقد سمعت منك أن دوجلاس فى سبيل إهداء ديوان شعر إلىّ[2] . فأرجو أن تكتب إليه سريعاً بألا يفعل ؛ إذ أننى لا أقبل إهداءً كهذا ولا أسمح به . فالفكرة ثائرة بقدر ما هى سخيفة . ثم إن لديه ، لسوء الحظ ، عدداً من خطاباتى ، فأريد أن يسلمها إليك فى الحال بغير أن يحتجز منها شيئا . وحال حصولك عليها أرجو أن تحتفظ بها فى مكان مغلق ، فإذا مت كان عليك أن تعدمها ، وإذا عشت توليت أنا ذلك ؛

Twitter: @abdulllah1994

إذ يجب ألا تبقى بأى حال . إن مجرد التفكير فى وجود هذه الأشياء فى يده يسبب لى الكثير من الفزع . ومع أن طفلىّ المنكودىْ الحظ لن يحملا قط اسمى بطبيعة الحال إلا أنهم يعلمان لمن من الآباء ينتسبان فيجب أن أحاول حمايتهما مما قد يتأتى من فضائح أشد شناعة .

كذلك لديه بعض أشياء قدمتها إليه ، من كتب ومجوهرات . فأرجو أن تتسلم منه أيضاً هذه الأشياء نيابة عنى . وما من شك فى أن بعض هذه المجوهرات قد خرج من حوزته تحت ظروف لا أحب أن أشير إليها ، غير أنى أعلم أنه لا يزال يحتفظ ببعضها ، كعلبة السجاير الذهبية ، والسلسلة اللؤلؤية ، والنوط المبيّن ، وقد قدمته إليه فى عيد الميلاد . فأريد أن أتأكد من أنه لا يحتفظ بشىء مما سبق أن قدمته إليه . وكل هذه الأشياء يجب أن يغلق عليها وتبقى لديك ؛ إذ أن فكرة استعماله شىء مما قدمته إليه ، أو احتفاظه به ، تثيرنى إلى أبعد حد . بالطبع لا أستطيع التخلص من الذكريات المثيرة عن العامين اللذين خاننى فيهما الحظ فأوجبت على نفسى وجوده معى ، أو عن الحالة التى كان يتخذها ليدفع بى إلى هاوية الخراب والفضيحة ، ليشبع ما فى نفسه من غريزة بغضه لأبيه ، وغير ذلك من الشهوات الدنيئة . غير أنى لن أتركه يحتفظ بشىء من خطاباتى أو هداياى . حتى لو استطعت أن أخرج من هذا المكان الذى تشمئز منه النفس ، فإنى أعلم أنه لن يكون أمامى إلا ذلك اللون من الحياة — حياة المنبوذين بما فيها من عار وفاقة واحتقار . غير أنه لن يكون بينى وبينه شىء على الأقل ، ولن أسمح له بأن يقترب منى .

فيجب أن تكتب إليه سريعاً ، وأن تحصل منه على هذه الأشياء . وسأبقى بائساً أكثر مما كنت حتى أعلم منك أنها أصبحت فى عهدتك .

Twitter: @abdulllah1994

إنى أعلم أنه لم يكن من اللائق أن ألقى عليك هذه المهمة ، بل ولا يخفى على أنه ربما كتب إليك فى سيل من الشتائم الفظة ، كما فعل مع شيرارد عندما حاول أن يمنعه من نشر مزيد من خطاباتى . غير أنى أرجوك ملحاً ألا تلقى بالا إلى ذلك . وحالما تحصل على تلك الأشياء فأرجو أن تكتب إلى ، كما أرجو أن تجعل جزءاً من خطابك ، كما فعلت دائما ، يتضمن جميع الأنباء العامة عن الأدب والمسرح . اخبرنى مثلا لِمَ ترك « إيرفنج Irving » المحاضرات الأدبية ... إلى آخره ، وما الذى يقوم الآن بتمثيله[٣] ؟ وماذا هناك فى كل مسرح ؟ ومن هو الذى يقوم « ستيفنسن Stevenson » الآن بنقده بشدة فى خطاباته[٤] ؟ وغير ذلك مما يبعد تفكيرى ولو ساعة عن موضوع سجنى المثير .

فى حالة كتابتك إلى دوجلاس يستحسن أن تقتبس خطابى كله فى صراحة . فهذا يجعله لا يجد منفذا للهروب . والواقع أنه لا يستطيع أن يرفض . فقد استطاع أن يدمر حياتى . وهذا يكفيه .

لقد تأثرت جدا مما أبدته لادى ويلدن من شفقة . سيكون لك فضل إذا حضرت لترانى . تحية طيبة إلى « مور » وأعنى أن أراه كذلك .

أ . و .

[عشر كلمات محذوفة] [٥] ... لدى أبى الهول بعض خطابات من د . إلى . أرجو أن تعاد سريعا أو تعدم .

أ . و .

---

(١) من الصعب تأريخ هذا الخطاب . والإشارة إلى « عيد الميلاد الأخير » توحى بأن العام كان ١٨٩٥ . غير أن وايلد عمد فيما بعد إلى وضع حادثة الإهداء فى مايو ١٨٩٦ ، ويبدو أن ذلك هو الصواب . أما جهله بانتقالات إيرفنج وخطابات ستيفنسن

Twitter: @abdulllah1994

فيمكن إدراك سببه بسهولة . ويقول شيرارد (انظر تعليق ٧٤) أنه زار وايلد ومعه روس فى ٢٥ من مايو ولكن إذا كان السبت صحيحا فيجب أن تكون هذه الزيارة قد حدثت فى يوم ٢٢ أو ٢٩ .

(٢) عندما نشرت أشعار دوجلاس فى « ميركير د فرانس » فى نهاية عام ١٨٩٦ لم تكن تحتوى على إهداء .

(٣) عندما صدر الحكم على وايلد كان ذلك فى اليوم الذى منح فيه ايرفنج رتبة فارس . وكان قد أنهى موسم محاضراته فى ٢٧ من يوليه ١٨٩٥ ، ثم ذهب إلى أمريكا فقام بجولة لمدة عشرة شهور ثم عاد بعد ذلك ليحاضر فى « سيمبلاين Cymbeline » فى ٢٢ من سبتمبر ١٨٩٦ .

(٤) مات روبرت لويس ستيفنسن فى ساموا فى ٣ من ديسمبر ١٨٩٤ . وقد طبعت « خطابات ڤيلما » التى كتبها بواسطة متلقيها « سيدنى كلفين » ، ونشرت فى ٢ نوفمبر ١٨٩٥ .

(٥) قطعة من محادثة هامة ، ربما سببت ألماً للسلالة .

٢٨ — كتب وايلد فى الأصل « كنت » .

٢٩ — « قاعة ويلميس » كانت تقع فى « كينج ستريت » بحى « سانت جيمس » . وكانت المطعم العصرى الشهير فى تلك الفترة ؛ ثم تحولت فيما بعد إلى قاعة مزايدات . وأخيراً دمرت بالقنابل فى عام ١٩٤١ .

٣٠ — جون جراى John Gray (١٨٦٦ — ١٩٣٤) ، صاحب ديوان الشعر المعروف باسم « النقاط الفضية » . وقد وضع « ريكتس »

Twitter: @abdulllah1994

تصميمه ، كما دفع وايلد كل تكاليفه . (ماثيوس واين ١٨٩٣) . وفى شهر يونيه من نفس العام أخرجت له على مسرح « أمير ويلز » مسرحية « المشهورين » ، التى قام بوضعها بالاشتراك مع صديقه الحميم « اندريه رافالوفيتش » . وليس هناك أى دليل على الرأى الذى شاع فى إصرار بأنه الشخصية المتخذة فى « دوريان جراى » . وفى عام ١٩٠٤ قام بتحرير ونشر « الخطابات الأخيرة إلى أوبرى بيردسلى » التى كتبها « رافالوفيتش » . وكان فى طفولته قد اعتنق المذهب الكاثوليكى ، وفى الخامسة والثلاثين عمد قسيساً . وقد أمضى سنواته الأخيرة فى « ادنبره » حيث قام « رافالوفيتش » ببناية كنيسة القديس بطرس لأجله ، أما « رافالوفيتش » (١٨٦٤ - ١٩٣٤) فكان من أغنياء روسيا ، وقد تلقى تعليمه فى فرنسا وفى انجلترا . وقد ذكر عن وايلد انه قال عنه انه جاء إلى لندن لتأسيس صالون ، وقد نجح فقط فى تأسيس صالون . ويعتقد أن رافالوفيتش قد ثأر لنفسه بإفساد ما كان قائماً بين وايلد وجون جراى من صداقة ، بينما استمرت صداقته هو مع جراى وثيقة حتى آخر أيام حياته . وكان « بيردسلى » فى سنواته الأخيرة يتلقى مساعدة كبيرة من « رافالوفيتش » .

٣١ — شاعر وكاتب فرنسى (١٨٧٠ — ١٩٢٥) قام فى عام ١٨٨٩ بتأسيس صحيفة « لا كونك La Conque » وكان يساهم فى تحريرها كل من «سوينبورن» ، « ليكونت دى ليل » ، « هيرديا » ، « فيرلين » « مالارمى » ، « ميترلنك » ، « اندريه جيد » و « موريا » . وقد نشر أول كتاب له فى عام ١٨٩٢ .

٣٢ — إلى لادى كوينزبرى[١] (.TS هولاند) .

(٨ نوفمبر ١٨٩٣)[٢] ١٦ تايت ستريت .

سيدتى العزيزة لادى كوينزبرى ،

حدث فى أكثر من مناسبة أن طلبت رأيى فى «بوزى». فاسمحى لى بأن أكتب إليك الآن شيئاً عنه .

إن بوزى يبدو فى حالة صحية بالغة السوء ، فهو مؤرق الجفن ، متوتر الأعصاب ، بل انه أقرب إلى أن يكون فى حالة هستيرية . فهو فى نظرى قد تغير تماما .

انه لا يفعل شيئاً فى المدينة . فمنذ أن ترجم تمثيليق الفرنسية فى أغسطس الماضى لم يقم فى الواقع بأى مجهود عقلى . فهو على ما يبدو قد فقد اهتمامه حتى بالأدب ، وان كنت أرى أن ذلك ربما كان فى اللحظة الحاضرة فقط والحقيقة أنه لا يفعل شيئاً مطلقاً ، وهو شارد فى الحياة بصورة تامة . وما لم تبادرى ، أو يبادر « درمنلا نريج »[٣] ، بفعل شىء فربما أقدم على أمر محزن من أى نوع . فحياته تبدو لى عديمة الهدف ، شقية ، سخيفة .

كل هذا غم كبير وخيبة أمل بالنسبة إلى ، غير أنه لا يزال غض الشباب ، بل ان روح الشباب تبدو فى طبعه بشكل فظيع . فلمَ إذن لا تحاولين اتخاذ تدابير من أى نوع تؤدى إلى رحيله إلى الخارج لمدة أربعة أشهر أو خمسة ، كأن يذهب إلى « كرومر » فى مصر ، إذا كان ذلك ممكنا ، حيث يستطيع أن يكون فى بيئة جديدة ، وبين أصدقاء لائقين . وفى جو مختلف[٤] ؟ أعتقد أن بقاءه فى لندن ان يؤدى به إلى

Twitter: @abdulllah1994

خير ، بل على العكس ربما أدى إلى تدمير حياته الشابة بصورة لا تعوض... بلى ، بصورة لا يمكن تعويضها قط . بالطبع سيتطلب الأمر بعض المال ، وهو ما لا شك فيه . غير أن الأمر هنا يتعلق بحياة واحد من أبنائك — وهي حياة يجب أن تكون متألقة ، ممتازة ، ساحرة . أما قضاؤها في ضلال تام فمعناه الدمار التام .

إنني أحب أن أعتبر نفسي صديقه الأكبر ، فهو نفسه ، كيفما كان ، يجعلني أعتقد ذلك . ولذلك فإنني أكتب إليك في صراحة تامة ، سائلا أن تعملي على إرساله إلى الخارج ليكون في بيئة أحسن . فهذا سيؤدي إلى إنقاذه ، وإني على يقين من ذلك . أما حالياً فإن حياته تبدو محزنة في اتجاهها السخيف إلى غير غاية .

وكما أعلم ، فإنك لن تخبريه بأنني كتبت إليك في هذا الشأن . وأستطيع أن أعتمد عليك في ذلك ، بل إنني متأكد .

المخلص

اوسكار وايلد

---

(١) سيبيل مونتجمري Sybil Montgomery (١٨٤٥ — ١٩٣٥) ، الابنة الكبرى للورد ليكونفيلد الأول . تزوجت (١٨٦٦) من جون شولتو دوجلاس ، المركيز الثامن من أسرة كوينزبرى (١٨٤٤ — ١٩٠٠) ، ثم طلقته في عام ١٨٨٧ . وكان لورد الفرد دوجلاس ابنها الثالث . ولا شك أن هذا الخطاب قد ساعد على إرساله إلى الخارج لبضعة أشهر .

(٢) هكذا أرخ بواسطة دوجلاس (ويحتمل أن يكون ذلك

Twitter: @abdulllah1994

من الأصل) فى خطاب إلى « ا . ج . ا . سيمونز » بتاريخ ٢٤ من أغسطس ١٩٣٧ . (MS. كلارك) .

(٣) فرانسيس أرشيبالد دوجلاس Francis Archibald Douglas ، فيكونت درملانرج Drumlanrig (١٨٦٧ — ٩٤) ، كان الابن الأكبر للادى كوينزبرى .

(٤) إيفلين بارنج Evelyn Baring (١٨٤١ — ١٩١٧) ، أصبح لورد كرومر فى عام ١٨٩٩ ، وفيكونت فى عام ١٨٩٩ ، ثم إيرل فى عام ١٩٠١ . كان معتمداً وقنصلا عاما فى مصر من عام ١٨٨٣ إلى عام ١٩٠٧ .

٣٣ — وردسورث ، « قصيدة كتبت فى لندن فى سبتمبر ١٨٠٢ » .

٣٤ — يكاد يكون مؤكداً أن ذلك الحوار كان : « The Decay of Lying : فساد الكذب » .

٣٥ — إلى لورد ألفرد دوجلاس[١]

(يناير ١٨٩٣) ؟ (بابا كومب كليف)

فتاى أنا ،

إن قصيدتك جميلة جدا[٢] ، وإنها حقا لأعجوبة أن تكون تلك الشفتان اللتان تبديان منك فى لون أوراق الورود لا أقل لموسيقى الأغانى منهما لجنون القبل ! إن روحك الذهبية الرقيقة تخطر بين العاطفة والشعر ؛ وإنى أعلم أن « هياسينثوس » ، ذلك الذى أحبه « أبوللو » فى جنون ، لم يكن إلا أنت نفسك فى أيام الاغريق .

Twitter: @abdulllah1994

لم أنت وحيد فى لندن ، ومتى ستذهب إلى « سالزبورى »[٣] ؟ اذهب إلى هناك لتبرد يديك فى الغسق الأشهب من الأشياء القوطية ، ثم تعال إلى هنا وقتما تحب . إنه مكان جميل ، وإنما هو ينقصك فقط . ولكن يجب أن تذهب إلى سالزبورى أولا .

دائما لك مع حب لا يموت

أوسكار

---

(١) هـذا الخطاب لم يكن من السهل التأكد من تاريخه الصحيح . وقد سرق فيما بعد واستعمل كوسيلة فى محاولات الابتزاز من وايلد ؛ ثم قرئ أخيراً فى المحـكمة أثناء محاكمة كوينزبرى وما تلاها من محاكمات . وقد قرر وايلد فى شهادته أنه كتب فى « بابا كومب » . وفى عدد ٤ مايو ١٨٩٣ من « مصباح الروح » ، (وهى صحيفة لطلاب أكسفورد كان يقوم بتحريرها لورد ألفرد دوجلاس من نوفمبر ١٨٩٢ إلى يونيه ١٨٩٣) ظهرت قصيدة بالفرنسية بغير توقيع نظمت على أساس هذا الخطاب وكتبها « بيير لويوس » . أما هذا النص فهو مأخوذ من « المحاكمات » ، ص ١١٢ .

(٢) ربما كانت : In Praise of Shame : فى امتداح الحياء »

(٣) حيث كانت لادى كوينزبرى تملك منزلا يدعى بوابة القديسة آن فى التخوم .

٣٦ — امرأة بغير أهمية ، الفصل الثالث .

٣٧ — والترهوراشيو باتر Walter Horatio Pater (١٨٣٩ — ٩٤) ،

Twitter: @abdulllah1994

عضو ومعلم فى كلية « براسنوز Brasenose » . نشر فى عام ١٨٧٣ كتابه الأول « دراسات فى تاريخ النهضة » . وقد أشار فى خاتمته إلى مذهب الابيقوريين ، فأحدث هذا هزة جملته بحذف الصفحات الست التى تضمنت ذلك فى الطبعة (١٨٧٧) . غير أنه عاد فأضافها فى الطبعة الثالثة (١٨٨٨) ، حيث حولت هذه الجملة إلى « بمعنى ، يمكن حق أن يقال إن فشلنا يكوّن عادات » .

٣٨ — جيل د لاقال Gilles de Laval سيد « ريه Rais » كان من بين المحاربين مع چان دارك ، كما كان مارشال فرنسا . وقد ضل بعد ذلك ففسق إلى عبادة الشيطان وقتل الأطفال وأعدم بذلك السبب (١٤٠٤ — ١٤٤٠) . أما مركيز د ساد Marquis de Sade (١٧٤٠ — ١٨١٤) ، فإنه مؤلف « جوستين Justine » وقصص أخرى تحمل طابع القسوة أدت إلى انتشار كلمات السادية والسادى وما يدخل فى هذا الموضوع . وقد حكم عليه بالموت بسبب عدة جرائم ؛ غير أنه استطاع أن يفلت من المشنقة . ثم مات فى مصح للأمراض العقلية .

٣٩ — أجا ممنون ، والكلمات المقتبسة تقع فى سطور ٧١٧ — ٧٢٨ .

٤٠ — كامبل دودسن Campbell Dodgson ، مؤلف وناسخ صور ، (١٨٦٧ — ١٩٤٨) ، عالم من كلية ونشستر والكلية الجديدة ، حيث كان معاصراً وصديقاً لـ « ليونيل جونسن » ، كما كان أميناً لقسم المطبوعات والرسومات بالمتحف البريطانى (١٩١٢ — ٣٢) .

٤١ — قام أوبرى بيردسلى Oubrey Beardsley بتصوير الترجمة الانجليزية لـ « سالومى » كما قام إلكين ماثيوز وجون لين بنشرها فى ٩ فبراير ١٨٩٤ . وقد جاء فيها هذا الإهداء : « إلى صديقى لورد ألفرد بروس

Twitter: @abdulllah1994

دوجلاس ، مترجم روايتى » . ولم يعرف إلى أى مدى قام وايلد بتنقيح الترجمة قبل نشرها . ولكن ، بالرغم من ذلك الاهداء ، فإن اسم دوجلاس كمترجم للرواية لم يظهر على صفحة العنوان . وقد اعتبرت بعض الصور التى رسمها بيردسلى شائنة . وفى خطاب أرخ فى « نوفمبر ؟ [١٨٩٣] » (.Ms روس) ، كتب بيردسلى إلى روس يقول :

« أظن أنك سمعت كل شىء عن المشاجرات التى حدثت حول سالومى . وإنما أستطيع أن أخبرك أننى مررت بفترة حامية بين لين وأوسكار وشركاهم ، وكان عدد البرقيات التى وصلتنى والسعاة الذين قرعوا بابى لمدة أسبوع يثير الفضيحة . والواقع أننى لا أعلم تماماً ماذا صار إليه الأمر الآن . على كل حال لن يظهر اسم بوزى على صفحة العنوان . وسيظهر الكتاب سريعاً بعد عيد الميلاد . لقد سحبت ثلاثاً من الصور ووضعت أخرى فى مكانها (جميلة فى بساطة ولا تتصل بالموضوع تماماً) »

وقد تسلم بيردسلى خمسين جنيها لقاء تلك الصور . أما وايلد فقد حصل على حق ملكية البيع بنسبة شلن واحد عن كل نسخة من الطبعة العادية (٥٠٠ نسخة بسعر ١٥ جنيها) و ٣ شلنات عن كل نسخة من الطبعة الممتازة (١٠٠ نسخة بسعر ٣٠ جنيها) .

٤٢ — كتب وايلد فى الأصل « روبى » .

٤٣ — كتب وايلد فى الأصل « زوجة » .

٤٤ — انظر تعليق ٣٢ .

٤٥ — عندما ترك دوجلاس مصر فى مارس ١٨٩٤ كان قد عين ملحق

Twitter: @abdulllah1994

شرف لـ « لورد كورى » الذى كان سفيرا فى القسطنطينية ، غير أنه لم يشغل ذلك المنصب .

٤٦ — كان المركيز السابع من آل كوينزبرى (١٨١٨ — ٥٨) قد قتل فى حادثة إطلاق رصاص ، أما ابنه الأصغر ، لورد جيمس ادوارد شولتو دوجلاس ، فقد ذبح نفسه فى فندق « يوستن Euston » .

٤٧ — سيركا Circa ، أول ابريل ١٨٩٤ .

٤٨ — كان وايلد قد قص من قبل نبأ هذا المرض الذى أصاب لورد ألفرد دوجلاس فى خطاب بعث به إلى أدا ليفرسن ، جاء فيه :

الجمعة [٥ أكتوبر ١٩٨٤]　　　　فندق متروبول ، برايتون

عزيزتى سفنكس :

أرجو أن أكون فى لندن فى الخامس عشر ، فهل ستكونين هناك ؟

لقد قرأت مقالك فى « بنش »(١) فى سرور . وكنت الاحظك ، بالطبع ، قبل أن ترسليه إلىّ .

إن صديقى لم يسمح له بالخروج اليوم . وإنى أجلس بجانبه وأقرأ له عبارات من حياته هو نفسه . وهى تملأه دهشة . يجب أن يقوم كل واحد بتدوين يوميات عن آخر . وإنى أشك أحيانا فى أنك تفعلين فيما يختص بى .

أحقيقة أن ذكرى ميلادك فى العاشر ؟ إن ذكرى ميلادى فى السادس عشر ! فيا له من أمر محزن . فالواقع أنى أخشى أن يبدو

Twitter: @abdulllah1994

الأمر كما لو كنا أخاً وأخته . ومع ذلك فربما كان هذا أفضل .

المخلص دائماً

أوسكار

---

(١) ربما كان « خطابات من مبتدئة » . وقد ظهر بغير توقيع فى « بنش » فى ٦ من أكتوبر ١٨٩٤ . وكان آخر ما كتبت أدا ليفرسن قبل ذلك فى ٤ أغسطس . أما نص هذا الخطاب فقد أخذ من « خطابات من أوسكار وايلد إلى ذى سفنكس » مع ذكريات للكاتبة ، بقلم أدا ليفرسن » (١٩٣٠) .

٤٩ — فى عام ١٨٩٤ كان عيد ميلاد وايلد (١٦ أكتوبر) فى يوم الثلاثاء ، وقد غير روس هذه الجملة طبقاً لذلك .

٥٠ — مطعم بركلى . فى بيكاديللى .

٥١ — ١٩ من أكتوبر ١٨٩٤ .

٥٢ — قُتل لورد درملانريج بطلقة من بندقيته فى ١٨ من أكتوبر عام ١٨٩٤ .

٥٣ — الملك لير ، الفصل الخامس ، المشهد الثالث .

٥٤ — انظر تعليق ٣٥ .

٥٥ — بيربوم ترى Beerbohm Tree .

٥٦ — فى ديسمبر ١٨٩٤ ظهر العدد الأول (والأخير) من مجلة

Twitter: @abdulllah1994

« الحرباء The Chameleon » التي أصدرها طلبة أكسفورد . وفي ذلك العدد ظهر ٣٥ من الأقوال الحكيمة لوايلد ، أو « المتناقضات » كما دعاها . كان واضحا أنها أعدت في متابعة لما سبق نشره في صحيفة « ساتر داي ريفيو » ، (انظر ما يلي) . وقد ظهرت في « الحرباء » تحت عنوان « جمل حكيمة لاستعمال الشباب » ، وأعيد طبعها في « المتنوعات » . وقد حدث أثناء المحاكمة تلاعب كبير بتلك الأقوال ، وكذلك بقطعتين أخريين نشرتا في نفس المجلة ، وهما : قصيدة بقلم دوجلاس بعنوان « حبّان » (انظر تعليق ٥٧) ، وقصة بغير توقيع بعنوان « القس والشماس » نسبت إلى وايلد ، بينما كان كاتبها في الحقيقة محرر المجلة ، وكان طالباً من كلية اكستر يدعى جون فرانسيس بلوكسام .

وفي سبتمبر ١٨٩٤ اشترى فرانك هاريس صحيفة الـ « ساتر داي ريفيو » ، فظهر في عددها الصادر في ١٧ نوفمبر تسعة عشر من هذه الأقوال تحت عنوان : « قليل من الأمثال لتعليم من تجاوزوا الحد في علمهم » ، وقد ظهرت بغير توقيع . ومع أن هذه الأقوال لم تسجل بواسطة ستيوارت ماسون في « سيرة أوسكار وايلد » (١٩١٤) ، ولم يفكر أحد في أنها من وضع وايلد ، إلا أنها من عمله بالتأكيد . ومن بين تسع صفحات من الأصل الخطي للمتناقضات الموجود في « كلارك » يوجد خمسة من هذه الأقوال بخط وايلد . وفيما يلي تلك الأقوال التسعة عشر :

Twitter: @abdulllah1994

قليل من الأمثال لتعليم من تجاوزوا الحد فى علمهم(*)

التعليم شىء بديع . ولكن من المفيد أن يتذكر المرء من حين إلى آخر أن شيئاً ما يستحق التعلم لا يمكن تعلمه .

الرأى العام يوجد فقط حينما لا يكون هناك آراء .

إن الإنجليز يهبطون دائماً بالحقائق إلى مستوى الوقائع . وحينما تصبح الحقيقة واقعة تفقد كل قيمتها العقلية .

إنه لأمر جد محزن ألا يكون هناك اليوم إلا القليل من المعلومات التى لا فائدة فيها .

إن ما ترك لنا فى انجلترا فى الوقت الحاضر من صلة بين الأدب والتمثيلية هو قائمة حساب الرواية فقط .

كانت الكتب فى الزمن الماضى تكتب بواسطة الأدباء وتقرأ بواسطة الجمهور ، أما فى هذا الزمن فهى تكتب بواسطة الجمهور فلا يقرؤها أحد .

أكثر النساء صناعيات لدرجة أنه لا توجد فيهن حاسة للفن ، وأكثر الرجال طبيعيون لدرجة أنه لا توجد فيهم حاسة للجمال .

الصداقة أبعد كثيراً من الحب فى أساها ، فهى تدوم وقتاً أطول .

(*) الكلمة هنا ترجمة لكلمة Maxim ، وهذه الكلمة لاتعنى بالضبط كلمة مثل بل تشير إلى كلمة حكيمة تتضمن من الحقائق ما يناقض المفهوم السائد ، وتوضع غالباً فى صيغة من التهكم . وقد شاع هذا اللون من « التوبيخ بالمغزى » فى الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر . وبخاصة فى أساليب « لاروشفيكو » و « باسكال » .
« المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

ما هو شذوذ فى الحياة يقف فى علاقات طبيعية بالنسبة إلى الفن . إنه الشىء الوحيد فى الحياة الذى يقف فى علاقات طبيعية بالنسبة إلى الفن .

الموضوع الجميل فى ذاته لا يعطى الفنان أى إيحاء . فهو يفتقر إلى عدم الـكمال .

الشىء الوحيد الذى لا يستطيع الفنان أن يراه هو الواضح ، والشىء الوحيد الذى يستطيع الجمهور أن يراه هو الواضح ، والنتيجة هى نقد الصحفى .

الفن هو الشىء الوحيد الجاد فى الحياة ؛ والفنان هو الشخص الوحيد الذى لا يمكن قط أن يكون جاداً فى الحياة .

لـكى يكون المرء من أبناء القرون الوسطى حقا يجب أن يكون بغير جسد ؛ ولـكى يكون عصرياً حقا يجب أن يكون بغير روح . أما إذا أراد أن يكون إغريقيا حقا فيجب أن يتجرد من ملابسه .

الأناقة إثبات لعصرية الشباب إلى أبعد حد .

الشىء الوحيد الذى يمكن أن يعزى المرء عن فقره هو الإسراف ؛ والشىء الوحيد الذى يمكن أن يعزى المرء عن غناه هو الإمساك .

يجب ألا ينصت المرء قط ، فالإنصات علامة على عدم الاهتمام بمن يستمعون إليه .

حتى التلميـذ له فوائده ، فهو يقف خلف عرش المرء ، وفى لحظة انتصاره يهمس فى أذنه بأنه ، بعد كل شىء ، من الخالدين .

إن طبقات المجرمين قريبة منا جدا لدرجة أن الشرطى يستطيع أن يراهم ؛ وهى بعيدة عنا جدا لدرجة أنه لا يفهمهم سوى الشاعر .

Twitter: @abdulllah1994

أولئك الذين تحبهم الآلهة يصيرون شباباً .

٥٧ — ظهرت قصيدة لورد ألفرد دوجلاس « حُبّان » فى صحيفة « الحرباء » ، (انظر تعليق ٥٦) وقد تليت فى المحكمة ، وجاء فى سطورها الأخيرة :

« إنى حب حقيقى ، فأنا أملأ
قلبيْ الفتى والفتاة بنار متبادلة » .
فقال الآخر متنهداً : « لك مشيئتك ،
فأنا الحب الذى لا يجرؤ على النطق باسمه » .

وقد أعاد دوجلاس نشر القصيدة فى كتابه الأول « أشعار » (١٨٩٦) ، غير أنه لم ينشرها فى « مصباح الروح » (١٨٩٩) ، إلا أنها ظهرت ثانية ومعها تبرير فى ديوانه « أشعار وجدانية » (١٩٣٥) .

٥٨ — أول مارس ١٨٩٥ .

٥٩ — تشارلس أوكتافيوس همفريز Charles Octavius Humphreys (١٨٢٨ — ١٩٠٢) ، من مكتب « همفريز ، وولده ، وكيرشاو » . كان محامى وايلد فى كل محاكماته .

٦٠ — هذا المبلغ (أو ٦٧٧ جنيها على وجه الدقة) كان جملة التكاليف المقررة التى أصبحت لكوينزبرى بسبب القضية التى رفعها وايلد عليه فلم تنجح . وقد بلغت جملة ديون وايلد ٦٠٠٠ جنيه ، غير أن كوينزبرى كان الدائن المتقاضى الذى أدت قضيته إلى إعلان إفلاس وايلد .

٦١ — درملانريج .

٦٢ — ارجع إلى الصفحات السابقة فيما يتعلق بهذه الجملة .

Twitter: @abdulllah1994

٦٣ — ارجع إلى الصفحات السابقة فيما يتعلق بذلك .

٦٤ — كان درملانريج ، الابن الأكبر لكوينزبرى ، يعمل سكرتيراً خاصاً لـ « لورد روزبرى Lord Rosebery » (وزير الخارجية فى حكومة غلادستون الأخيرة) ، فمنح فى عام ١٨٩٣ لقب بارون « كالهد Kelhead » فى سلسلة ألقاب الاتحاد (يلاحظ أن جميع ألقاب أسرة كوينزبرى ترجع إلى أصل اسكوتلندى) . وقد امتدح كوينزبرى هذا العمل فى البدء ، وكتب شاكراً إلى غلادستون . ولكن لم يمض شهر حتى عاد فبعث بخطابات مفعمة بالسباب إلى الملكة ، وإلى غلادستون ، وإلى روزبرى ، وإلى ابنه نفسه . بل إنه تبع روزبرى إلى هامبورج مهدداً بقرعه بالسوط ، ولم يقنعه بالرجوع سوى أمير ويلز .

٦٥ — كانت هذه البرقية بتاريخ ٢ أبريل ١٨٩٤ ، وقد جاء فيها :

« يا لك من رجل قصير مضحك ! »

٦٦ — انظر الصفحات السابقة .

٦٧ — انظر « » .

٦٨ — فى ٦ من أبريل عام ١٨٩٥ اتهم وايلد فى محكمة الشرطة فى « بو ستريت » بجرائم تقع تحت القسم الحادى عشر من لائحة تعديل القانون الجنائى لعام ١٨٨٥ ، وقد رفض القاضي ، سير جون بريدج ، الإفراج عنه بكفالة ، فسجن فى « هولواى » حتى بدأت محاكمته الأولى فى « أولد بيلى » فى ٢٦ من أبريل أمام القاضى تشارلس . وفى أول مايو لم يوافق المحلفون ؛ فصدر الأمر بتشكيل هيئة محاكمة أخرى . وفى ٧ من مايو أفرج عن وايلد بكفالة . وفى ٢٠ من مايو بدأت محاكمته الثانية فى « أولد بيلى » أمام القاضى ويلز . وفى ٢٥ من مايو ثبتت

Twitter: @abdulllah1994

إدانته ، فحكم عليه بالسجن عامين مع الأشغال الشاقة . وقد قضى الستة شهور الأولى من مدة عقوبته فى سجنى « بنتونفيل » و « واندسورث » ثم قضى الباقى فى سجن « ريدنج » . للاطلاع على خبر محاكماته وافياً انظر محاكمات أوسكار وايلد ، بقلم هـ مونتجمرى هايد (١٩٤٨) .

٦٩ — حينما كان وايلد فى سجن « هولواى » فى انتظار المحاكمة . قامت صحيفة « ستار » فى أبريل ١٨٩٥ بفتح باب المراسلة واسعاً حول قضيته . وفى ١٥ من أبريل هب « روبرت بوخانن «Robert Buchanan (وهو مؤلف ومسرحى ١٨٤١ — ١٩٠١) فكتب ما يأتى :

سيدى ،

أو ليس هذا هو الوقت المناسب لإدخال ولو قليل من البر ، مسيحياً كان أو معارضاً للمسيحية ، إلى هذه الأرض المسيحية الشعارات والقوانين؟... إننى أرغب ، فى غير تردد وكيفما كان الأمر ، فى تسجيل احتجاجى على ما أبداه الإنجليز من جبن وقسوة نحو واحد كان ، حتى الأمس القريب ، متميزا كمساهم فى الطريق المشروع ، فى وسائل لهونا ، وواحد مهما قيل وحدث فى شأنه فإنه عالم وأديب . إن قضيته لا تزال تحت نظر القضاء . وحتى لو استطاع المرء أن يسلم لحظة واحدة بأنه كان مذنباً ، فهل يقوم فى ذلك أى سبب لإصدار الحكم على أعماله ، بينما نعلم فى قرارة نفوسنا أنها بريئة ؟ أكثر من ذلك ، لنسأل أنفسنا : من هم أولئك الذين يقذفون بتلك الأحجار ، وهل « هم بلا خطيئة بيننا » ، أم انهم هم أنفسهم الفاسدون بصورة فاضحة ؟

المخلص

روبرت بوخانن

Twitter: @abdulllah1994

وقد رد لورد كوينزبرى فى ١٨ من أبريل قائلا :

تسلمت خطابات كثيرة بغير توقيع . وفى هذا الصباح لفت بعضهم نظرى إلى هذا الخطاب من مستر بوخانن . فهل يمكن أن يكون قد جاء منه هو نفسه ؟ أم تراه جاء منه وحيا ؟ لم يكن لى شرف التعرف بمستر بوخانن ، ولكن من الواضح أنه يوجه إلىّ سؤالا فى هذا الخطاب ، فهو يقول : « من هم الذين يقذفون بهذه الأحجار ؟ » ، وهل هم بغير خطيئة ، أم أنهم أولئك « الذين هم فاسدون بصورة فاضحة » . فهل يرى مستر بوخانن أنه هو نفسه بغير خطيئة ؟

كوينزبرى

وفى ٢٠ من أبريل ظهر فى الصحيفة ما يأتى :

١٩ أبريل شلكوت هاوس ، لونج ديتون

سيدى ،

عندما يتخذ الجمهور البريطانى العظيم قراره البريطانى العظيم بسحق أى منكود حظ غريب يراه واقعاً فى قبضته فهو ينجح غالباً فى الوصول إلى غرضه . وهو بالطبع ليس محباً لأولئك الذين يتساءلون عن مدى قوته وماله من حق ليفعل مايهوى . ولذلك فإنى أشعر بأنى أضع حياتى بين يدى إذا ما جرؤت على رفع صوتى ضد ما يصدر من ترديد من تلك الشراذم التى مضت تطارد مستر أوسكار وايلد قصد تدميره ، وذلك بمقدار ما أطمئن إلى أن هذا الجمهور قد اتخذ قراره بقبولى ، كما قبل أى شخص وأى شىء يتصل بهذه القضية على أساس تقدير مستر كارسون . إنى ، بالطبع ، ذلك الابن العاق الذى مضى فى كبرياء وحماقة يرفس كل ماحباه به والده الشفوق الودود ، ثم ضاعف من جرمه بعدم ذهابه بعيدا ليوارى

Twitter: @abdulllah1994

وجهه بعد اندحار صديقه . انه ليس بالوضع الذى يسر المرء أن يجد نفسه فيه فيما يختص بالجمهور ؛ غير أن الحالة لا تخلو من عنصر من المزاج المخيف . وليس فى نيتى أن أحاول شرح موقفى أو الدفاع عن وضعى . فأنا ببساطة ذلك الصوت الذى يشعر بأنه فى قفر صاخب ، فلا يسعه إلا أن يرتفع باحتجاج واهن ، لا مؤملا فى مقاومة موجة الصخب الشعبى أو دفعة اللغب الصحفى ، بل كل ما يرتجيه أن يلقى نداءه أذنا وعطفا من جانب واحد أو اثنين من الرجال والنساء ... من الأقوياء الذين لا يخافون شيئاً : أولئك الذين سبق أن تحدوا صراخ الغوغاء . إلى مثل هؤلاء ألتجىء ، ليتدخلوا ويضربوا على يد « القضاء العرفى » . فالواقع إن مستر أوسكار وايلد قد حوكم بواسـطة الصحافة قبل أن يحاكم بواسطة المحلفين . وقد نظر فى قضيته بعين التحامل بصورة تكاد تكون ميئسة من جانب الجمهور الذى سيسحب منـه محلفون لإصدار الحـكم فيها . وقد سـلم عمليا وهو مقيد لغضب رعاع يتسمون دائماً بالجبن والوحشية . إن سير جون بريدج برفضه اليوم مسألة الـكفالة إنما يقرر أنه لم يعلم بجريمة أخطر من تلك التى اتهم بها مستر وايلد . غير أن مستر وايلد قد اتهم ، فى الواقع ، باقتراف « جنحة » لا يعاقب القانون عليها بأكثر من السجن عامين مع الأشغال الشاقة أو بدونها ، كأقصى حد للعقوبة . وعليه فإن الجريمة التى اتهم بها تعتبر طفيفة نسبياً فى نظر القانون الذى يمثله سيرجون بريدج ، كما هو مفروض . فياحبذا لواستطعت أن أعلم كيف استطاع سيرجون بريدج ، باعتبار تلك الحقيقة ، أن يوفق بين ما أملاه عليه ضميره وبين موقفه كمنفذ للقانون تماما بغير تحيز ؛ وما إذا كان ليس واضحاً ، فيما جاء فى قوله ، انه قد سمح لمشاعره الشخصية بأن تطغى فى بعض النقاط على إدراكه للعدل المطلق ، ليتحامل

Twitter: @abdulllah1994

على الرجل الذى اتهم أمامه ؟ وإذا كان واحد من قضاة الشرطة امتدت خبرته خمسة وعشرين عاما يظهر مثل هذا التحامل الواضح . فماذا ينتظر من الرجال الذين ستتشكل منهم فى « أولد بيلى » هيئة المحلفين التى ينعتها القانون فـكاهة فيما يتعلق بمستر أوسكار وايلد بـ « مجلس أمرائه » ؟

هناك ألف شيء آخر يمكن أن يثار . غير أنى لست الشخص الذى يتـكلم فى ذلك . بل ولست فى وضع أستطيع فيه أن أرد على مثل تلك القطعة النفيسة من الرياء والأسلوب الردىء القواعد التى ظهرت فى عددكم الصادر اليوم موقعة باسم لورد كوينزبرى . بل أفضل أن أتركها فى ارتياح لمشاعر الرحمة التى أبداها فى رقة مستر روبرت بوخانن ، وهو من يجب أن أوجه إليه الشكر باسم العدالة ، والإدراك السليم ، والخير المسيحى ، على خطابه النبيل .

خادمكم المطيع
ألفرد دوجلاس

واستمرت المراسلة فى خطابات أخرى من « بوخانن» و «دوجلاس» حتى يوم ٢٥ من أبريل (وهو اليوم السابق لافتتاح محاكمة وايلد الأولى) حيث كتب كوينزبرى :

لو كنت فى محل السلطة التى لها الحق فى تقدير عقوبته لعاملته ، من جميع الاعتبارات ، على أنه لا مجرماً سليم الإدراك بل منحرف جنسياً بسبب مرض عقلى تام . فإذا كان هذا يعتبر عطفا فإن مستر وايلد يستطيع أن يحصل عليه منى إلى هذا الحد .

٧٠ – اتخذت صحيفة « تروث Truth » ، وكان يصدرها «لابوشير»(١) .

Twitter: @abdulllah1994

موقفاً معادياً عنيفاً من وايلد أثناء محاكمته وبعدها . وفي يوم ١٣ من يونيه ١٨٩٥ نشرت ما يأتي :

تلقيت خطابا طويلا من لورد ألفرد دوجلاس أوضح فيه أنه لن يدخل معي في نقاش في موضوع رآني فيه « متعصباً تماما » ، ويأسف على ما عومل به أوسكار وايلد من « صرامة وتحامل » لإدانته « بجناية كبيرة » ، ثم قال إنني لم أكن عادلا حينما اتهمته بالجبن ، واستمر يقول :

« لقد بقيت ثلاثة أسابيع بعد القبض على مستر وايلد ، وكنت أزوره يوميا ؛ وقد فعلت كل شيء خطر ببالي قصد مساعدته ، ولم أتركه في اليوم السابق لمحاكمته إلا بعد إلحاح شديد منه ومن دفاعه ؛ فقد أكد لي محاميه أن وجودي في البلاد لن يتأتى منه إلا الضرر له ، وأنني إذا دعيت لتأدية الشهادة فسأقضي بذلك بالتأكيد على الفرصة القليلة الباقية أمامه لتبرئته . وقد رفض دفاع مستر وايلد بصورة باتة أن يستدعيني كشاهد ؛ إذ كان يخشى من الأذى الذي قد يلحق به في حالة المواجهة الاستجوابية . ولو كنت دعيت بأي سبب كشاهد فإن ذلك كان لا بد أن يحدث فقط بطلب من جانب الادعاء . والآن يا سيدي فيجب أن تؤدي للشيطان حقه . ولكن إذا سلمنا جدلا بأني حدث سافل شاذ فليس من حقك أن تدعوني جباناً . وكان أولى بك أن تفكر فيما قمتُ به لترى أهو يتوافق مع الجبن أو لا يتوافق : فقد بقيت ثلاثة أسابيع في لندن ، متوقعاً كل يوم ، بل كل لحظة ، أن يقبض على لألقى نفس المصير الذي لقيه مستر وايلد . وكنت أثناء ذلك أتلقى كل يوم خطابات تحذير تحمل التوسل من جميع أصدقائي وأقاربي لأغادر وأنجو بنفسي ، وقد صمدت لما وجه إلي من أذى من كل صعلوك من النفعيين في انجلترا » .

Twitter: @abdulllah1994

ولا شك فى أن هذا الأخلاقى الشاذ قد أوتى الشجاعة فى آرائه . وإنما المؤسف أن هذه الآراء ، أيا كانت ، لم تتح لها الفرصة لتكون موضع تأملاته فى واحدة من زنزانات « بنتونفيل » .

وفى ٢٨ من يونيه كتب دوجلاس أيضا خطابا طويلا إلى « و . ت . ستيد W. T. Stead » محرر « مجلة المجلات Review of Reviews » ، (وقد نشر هـذا الخطاب فى « المحاكمات » صفحات ٣٦٠ — ٣٦٢) ؛ كما نشر مقالا فى أول يونيه ١٨٩٦ فى الـ « المجلة البيضاء Review Blanche » تحت عنوان « مسألة وايلد » .

---

(١) هنرى دو برى لابوشير Henry Du Pré Labouchere (١٨٣١ — ١٩١٢) كان عضوا فى الحزب الراديكالى فى البرلمان عن دائرة « نورثمبتون » (١٨٨٠ — ١٩٠٥) وقد أسس صحيفة « تروث » فى عام ١٨٧٦ . وكان هو المسئول عن إدخال فقرة فى لائحة تعـديل القانون الجنائى (١٨٨٥) هى التى أدت إلى إدانة وايلد. وبعد صدور الحكم على وايلد كتب لابوشير فى صحيفة « تروث » قائلا أنه يأسف لأن الحد الأقصى للعقوبة التى اقترحها خفض إلى عامين بدلا من سبعة .

٧١ — كان فردريك اتـكينز Frederick Atkins يعمل أحيانا عدادا فى لعبة البلياردو ، وأخرى كاتباً فى مكتب مراهنات على السباق . وعندما اتخذ موقفه كشاهد إثبات فى المحاكمة الأولى لوايلد مضى يزور بصورة فاضحة ، وهو ما جعل القاضى يصفه فى تقريره بأنه « متهور كبير لا يعتمد عليه ، ومستهتر ، وكاذب ، كشاهد » . وقد أمكن

Twitter: @abdulllah1994

تبرئة وايلد من التهم التى وجهت إليه على أساس شهادته ، وذلك بالرغم من اعتراف وايلد نفسه بأنه صحبه مرة فى إحدى رحلاته إلى باريس .

٧٢ — ١ . الملوك ٢٢ ، ٣٤ .

٧٣ — انظر « أوتيلو » الفصل الثانى ، المشهد الثالث .

٧٤ — روبرت هاربورو شيرارد Robert Harborough Sherard (١٨٦١ — ١٩٤٣) . مؤلف وصحفى . كان أبوه « ب . شيرارد كندى » من رجال الدين ؛ غير أنه أسقط الاسم العائلى فى شبابه ، فعرف دائماً باسم شيرارد . وهو حفيد « وردسويرث » . وقد أمضى الشطر الأكبر من حياته فى فرنسا وفى كورسيكا . وكتب بين ما كتبه ترجمة لحياة كل من « زولا » و « دوديه » و « موباسان » ، (وقد عرف كلاً منهم شخصيا) وكان أول لقاء له مع وايلد فى باريس . وقد كتب عنه أربعة كتب : « أوسكار وايلد : قصة صداقة تعيسة » (١٩٠٢) ، « حياة أوسكار وايلد » (١٩٠٦) ، « أوسكار وايلد الحقيقى » (١٩١٥) ، «برنارد شو ، فرانك هاريس ، أوسكار وايلد» (١٩٣٧) ، وذلك بجانب عدد كبير من الكراسات .

٧٥ — فى أغسطس ١٨٩٥ ، بينما كان دوجلاس فى « سورنتو » كتب مقالا ضمنه دفاعاً حارا عن وايلد ، وكان فى نيته أن ينشره فى صحيفة « ميركير دى فرانس » . إلا أن وايلد ، وقد سمع بأن المقال يحتوى على بعض الخطابات التى كتبها إليه من سجن « هولواى » ، طلب إلى شيرارد أن يحول دون نشره . وقد فعل شيرارد ذلك ، فلم يقدر لذلك المقال أن ينشر قط . وكان دوجلاس قد كتبه بالإنجليزية ، وقام أصدقاء له بصياغته فى الفرنسية . وتوجد صورة من هذه الترجمة لدى « برنستون Princeton » ، كما أن الأصل الأساسى تحت يد « هنرى د .

Twitter: @abdulllah1994

دافراى Henry D. Davray » ، كما أعتقد . وهناك تصحيحات كثيرة قامت بها يد ثانيـة (ربما كانت من عمـل بعض محررى الـ « ميركير د فرانس») ، كما أن ترجمات الخطابات الثلاثة من عمل يد ثالثة . وهذه الأيدى الثلاث ، كما هو واضح ، كانت لأشخاص من الفرنسيين ، أو ممن مارسوا الـكتابة بالفرنسية . وقد اطلع «ستيوارت ماسون» بطريقة ما على هذه الوثائق ، وترجمها ثانية إلى الانجليزية (.TS كلارك) . وقد اعتمدتُ فى نص الخطاب التالى وما يليه على طبعـة « ماسون » ، غير أننى لم أتردد فى تغيير كلمات ، بل وعبارات ، لاحظت أنها سايرت الأسلوب الفرنسى ، فأخرجتها فيما رأيت أنه أقرب إلى لغة وايلد . وقد تابعت الصيغ المستعملة فى جمل كثيرة جاءت فيما كتب دوجلاس من ترجمة لحياته هو نفسه (١٩٢٩) . وربما تأثرت كلمات وايلد من هذا كله بعض الشىء ، غير أن جوهر هذه الـكلمات لا يمكن أن يتسرب إليـه الشك . وقد ذكر دوجلاس فيما بعد أنه أعدم ١٥٠ من خطابات وايلد إليه ، ومن بينها تلك التى بعث بها إليه من سجن « هولواى » .

وكان قد ذكر فى المقال أن وايلد كتب على الظروف الذى تضمن هذا الخطاب هذه الـكلمات : « يرسل بعد صدور الحـكم من المحلفين » ؛ وقال أنه لم يرسل فى الواقع إلا بعد صدور الحـكم من هيئة المحلفين الثانية ، فى ٢٥ من مايو .

إلى لورد ألفرد دوجلاس :

مساء الاثنين [٢٩ أبريل ١٨٩٥]

سجن صاحبة الجلالة ، هولواى

أى أعز غلام علىّ ،

أكتب لأؤكد لك حبى الخالد ، بل حبى الأبدى . غدا يكون كل

Twitter: @abdulllah1994

شيء قد انتهى . فإذا كان السجن والعار ما قدر عليّ ، فاذكر أن حبي لك ، وأن هـذه الفـكرة ، التي أصبحت أقوى كاعتقاد مقدس ، وهي انك تحبني مقابل ذلك ، هـذا وذاك سيساعدني في وضعي التعيس ، ويجعلني قادراً ، كما أرجو ، على تحمل حزني في أجمل حالة من الصبر . ولما كان الأمل في الالتقاء بك ثانية في أي عالم ، بل والوثوق من ذلك ، هو الغرض من حياتي الحاضرة ، بل والمشجع عليها ... ! فيجب أن أواصل حياتي في هذا العالم بذلك السبب .

عزيزي ،

حضر ... [1] اليوم ليراني ، وحملته عدة رسائل لك . وقد أخبرني شيئاً أعاد الثقة إلى نفسي ؛ فقد قال إن والدتي لن تـكون قط في حاجة إلى شيء ما . لقد عملت دائماً على أن أعد لها كل ما تتطلبه معيشتها ، وكنت أشعر بتعاسة كلما تصورت أنها قد تقاسي من ضروب الحاجة . أما عنك (أيها الفتى الرشيق ، بقلبك الذي يشبه قلب المسيح) ، أما عنك فإنني أرجوك أن تسرع بالرحيل إلى إيطاليا ، بعد أن تـكون انتهيت من عمل ما تستطيعه ، لتستعيد هدوءك ، ثم تمضي في كتابة تلك الأشعار الجميلة التي تعرف كيف تضعها في مثل ذلك الجمـال العجيب . لا تعرّض نفسك لانجلترا بأي سبب مهما كان . فإذا حدث يوما أن استطعنا أن نقيم معاً في منزل صغير في إحدى الجزر المسحورة ، بجزيرة « كورفو Corfu » أو غيرها ، أوه ! ... فلا شك أن الحياة تـكون أحلى ممـا كانت قط فيما مضى . إن حبك ذو أجنحة عريضة ، وهو من القوة بحيث ينفذ إلي من خلال حواجز السجن ويرعى ، بل إنه النور الذي أستضيء به في هذه الساعات الحالـكة . إني أعلم أن أولئك الذين لا يعلمون ما هو الحب سيكتبون ، إذا ظل الحظ معاكسا لنا ، انه كان

Twitter: @abdulllah1994

لى تأثير سيء على حياتك. فإذا فعلوا فيجب أن تكتب بدورك، يجب أن تقول إن ذلك ليس صحيحاً، فقد كان حبنا دائما جميلا ونبيلا. وإذا كان قد قدر عليّ أن أصبح هدف الرمى فى مأساة مريعة، فقد كان ذلك لأن طبيعة ذلك الحب لم تفهم. لقد قلتَ فى الخطاب الذى جاءنى منك هذا الصباح شيئاً بث فيّ الشجاعة، وهو ما أحب أن أذكره. فقد قلت إن واجبى نحوك ونحو نفسى يحتم على أن أعيش بالرغم من كل شيء. أعتقد أن هذا صحيح، وسأحاول أن أفعل ذلك. أريد أن تجعل مستر همفريز على علم دائماً بتنقلاتك. فإذا جاء إلى استطاع أن يدلى إلىّ بأنبائك. وكما أعتقد فإن من المسموح به للمحامين أن يروا موكليهم فى السجن بطريقة معقولة. وهكذا يمكن أن نتبادل المراسلة.

انى سعيد لأنك ذهبت بعيداً[٢]. ولست أجهل مالابد أن تكون قد تكلفته فى سبيل ذلك. لقد كنت أشعر بهم شديد كلما ذكرت أنك لا تزال فى انجلترا بينما كان اسمك يتردد فى المحكمة. أرجو أن يكون لديك نسخ من جميع كتبي، فقد بيع كل ما كان فى حوزتى[٣]. إنى أمد ذراعىّ نحوك... أوه! أرجو أن أعيش حتى ألمس شعرك ويديك. أعتقد أن حبك سيسهر على حياتى. فإذ قدّر على أن أموت، فإنى أريد لك أن تحيا حياة لطيفة هادئة فى أى مكان... مع الزهور، والصور، والكتب، ووفرة من الإنتاج الأدبى. حاول أن تجعلنى أسمع أنباءك سريعاً. إنى أكتب إليك هذا الخطاب فى مكابدة شديدة؛ فهذا اليوم الطويل الذى قضيته فى المحكمة قد استنفد كل قواى. أى أعز ولد، وأحلى شاب... يا أجمل من أحببتُ وأعظم محبوب!... أوه... انتظرنى... انتظرنى! فأنا كما كنت منذ اليوم الذى التقينا فيه: من كرس نفسه لك مع حب خالد.

أوسكار

Twitter: @abdulllah1994

(١) اسم حذفه دوجلاس

(٢) ترك دوجلاس انجلترا فى ٢٥ من أبريل ، أى فى الليلة السابقة المحاكمة الأولى لوايلد ، وقد فعل ذلك عن غير رغبة منه ، بل تحت ضغط الرجاء الشديد الذى وجهه إليه دفاع وايلد . وقد توقف فى « كاليه » وفى « روان » ثم فى باريس .

هناك واحد من الخطابات الثلاثة الوحيدة التى أمكن العثور عليها من خطابات دوجلاس إلى وايلد (MS. كلارك) ، هذا نصه :

الأربعاء ، ١٥ مايو ١٨٩٥ فندق العالمين

٢٢ شارع الأوبرا ، باريس

حبيبى أوسكار ،

وصلت توا إلى هنا . وإنه لأمر فظيع الا تكون معى . غير أنى أرجو أن تلحق بى فى الأسبوع القادم . كانت « دييب » مخيفة لأى شىء . وفى « الخيول الصغيرة » لم يتح الوصول إليها ، إذ كان الكازينو مغلقاً . غير أن الناس هنا ظرفاء ، وقد رأيت أنى أستطيع البقاء هنا طالما شئت بغير أن أدفع قائمة الحساب . وهو شىء حسن ، إذ أنى مفلس تماما . إن مدير الفندق لطيف جداً ، وعطوف إلى أبعد حد . وقد سأل عنك فى الحال ، وأعرب عن أسفه وسخطه لما لقيته من معاملة . يجب أن أرسل هذا الخطاب بواسطة عربة إلى « محطة الشمال » ليلحق بالبريد ، إذ انى أريد أن يصلك فى أول دفعة من بريد الغد .

سأرى ما إذا كنت أستطيع العثور على « روبرت شيرارد » غدا ، إذا كان فى باريس .

إن « تشارلى » معى ، وهو يبعث إليك بأعظم حبه . لقد

Twitter: @abdulllah1994

تلقيت هـذا الصباح خطاباً طويلا عنك من « مور » . يجب أن تحتفظ بقواك المعنوية يا أعز أحبابي . إنني أواصل التفكير فيك نهاراً وليلا ، وأبعث إليك بكل حبي .

إنني دائماً غلامك المحب المخلص بوزى

« كان معي الشاب « تشارلي هيكي » ، (وهو ولد ساحر يصغرني بعامين ، ومعروف جدا لأوسكار ، فهو ابن الكولونيل هيكي) » .

(من سيرة حياة لورد ألفرد دوجلاس بقلمه ، ١٩٢٩) .

(٣) محتويات المنزل رقم ١٦ ، تايت ستريت ، بما فيها جميع كتب وايلد وأوراقه ، بيعت جبريا في ٢٤ من أبريل ، وذلك بإصرار من دائنيه .

إلى لورد ألفرد دوجلاس(١)

[مايو ١٨٩٥] [٢ كورنفيلد جاردنز ؟] (٢)

أما عنك ، فقـد أعطيتني جمال الحياة في الماضي ، وفي المستقبل ، إذا كان هناك مستقبل . وهـذا هو السبب في أنني سأبقى مديناً لك إلى الأبد بما ألهمتني من معاني العبادة والحب . إن تلك الأيام التي أفعمت بالسرور كانت فجرنا . أما الآن ، في الكرب والألم ، في الحزن والتحقير ، فإني أشعر بأن حبي لك وحبك لي هما العلامتان المميزتان

(١) للتثبت من هذا الخطاب الناقص انظر ما سبق .

(٢) عندما أفرج عن وايلد بكفالة من سجن «هولوواى» في ٧ من مايو ، لم يجد فندقا يقبل حلوله به ، فاضطر إلى الالتجاء إلى مسكن والدته في «أوكلي ستريت» وبعد أن بقي أياما قليلة أخذته عائلة « ليفرسن » في منزلها رقم ٢ في « كورنفيلد جاردنز » ، حيث بقي حتى افتتحت محاكمته الثانية وأثناء المحاكمة ، حتى صدور الحكم عليه في ٢٥ من مايو .

Twitter: @abdulllah1994

لحياتى : المشاعر المقدسة التى تجعل من المرارة شيئاً أستطيع تحمله . لم يكن هناك قط واحد أعز منك فى حياتى . ولم يكن هناك أى حب أعظم ولا أكثر قداسة ، ولا أروع جمالا ...

غلامى العزيز ،

بين المسرات ، أو فى السجن ، كنتَ وكان تفكيرى فيك كل شيء لى . أوه ... احتفظ بى دائما فى قلبك ، فأنت لا تغيب عنى قط . إننى أفكر فيك أكثر مما أفكر فى نفسى . وإذا كانت فكرة العذاب الشائن المريع تطغى علىّ أحيانا لتزيد فى عذابى ، فإن تفكيرى البسيط فيك يكفى لتقويق وشفاء جراحى . فدع القدر ودع « نمسيس » ، ودع الآلهة غير العادلة تتلقى وحدها اللوم على كل ما حدث .

إن كل حب عظيم له مأساته ، وكذلك استوفى حبنا حظه من ذلك . ولكن يكفينى أن أكون عرفتك وأحببتك بمثل هذا التفانى ، ويكفينى أن أكون حصلت على فيك فترة من حياتى أعتبرها الآن أجمل فترة . إن انفعالى لا يساعد على الوصول إلى كلمات . غير أنك تستطيع أن تفهمنى أنت وحدك . إن روح كل منا قد صنعت لتكون الأخرى . وبمعرفة روحك عن طريق الحب استطاعت روحى أن تتخطى شروراً كثيرة ، وتدرك الكمال ، وتدخل فى جوهر الأشياء المقدس .

إن الألم إذا ما أتى لا يستطيع أن يستمر إلى الأبد ؛ فمن المؤكد أنه سيأتى يوم نلتقى فيه ثانية أنت وأنا . ومع أن وجهى سيكون قد تحول إلى قناع من الحزن ، كما أن جسدى سيكون قد تمزق من الوحدة ، إلا أنك ، أنت وحدك ، ستستطيع حينئذ أن تميز الروح التى ستكون أكثر جمالا بلقاء روحك ... روح الفنان الذى وجد مثاله فيك ... روح المحب الذى رأى فيك كائناً كاملا لا شائبة فيه . إننى أفكر فيك

Twitter: @abdulllah1994

الآن كولد ذهبي الشعر يحمل بين جنبيه قلب المسيح . إنى أعلم الآن كيف يكون الحب أقوى كثيراً من أى شىء آخر . فقد علمتنى السر المقدس للسكون .

إلى لورد ألفرد دوجلاس(١)

[٢٠ مايو ١٨٩٥] [٢ كورنفيلد جاردنز ؟]

طفلى ،

طلب اليوم أن تصدر الأحكام على انفراد ، وربما كان « تيلور » يحاكم فى هذه اللحظة . وهكذا استطعت أن أعود ثانية إلى هنا . أى وردتى الحلوة ... أى زهرتى الرقيقة .. أى زنبقتى من بين الزنابق ا ربما كان السجن هو المكان الذى أستطيع فيه أن أختبر قوة الحب . إننى ذاهب لأرى ما إذا كنت لا أستطيع أن أجعل من المياه المرّة حلوة بغزارة الحب الذى أحمله لك . لقد مرت بى لحظات فكرت فيها أن الأصوب هو الفراق . آه ، لقد كانت لحظات ن الضعف والجنون . أما الآن فإننى أرى أن ذلك كان مشوهاً لحياتى ، مدمراً لفنى ، ومحطماً للأوتار الموسيقية التى تصنع نفساً كاملة . فحتى لو كنت مغطى بالأوحال فإننى سآتى عليك ، وحتى لو كنت فى أعمق هاوية فإننى سأهتف إليك وفى وحدتى ستكون معى . لقد صممت على الا أثور ، بل أقبل كل إهانة بطريق التفانى فى الحب ، وأن أجعل جسدى يتحمل العار طالما كانت نفسى قادرة دائماً على الاحتفاظ بصورتك . إنك ، من شعرك الحريرى إلى قدميك الرقيقتين ، تبدو لى صورة من الكمال . إن السرور يخفى الحب عنا ، غير أن الألم يكشف عنه فى جوهره . أى أعز المخلوقات ... إذا جاءك من جرحه السكوت والوحدة ، وقد تجرد من

(١) للتثبت من نص هذا الخطاب انظر ماسبق .

Twitter: @abdulllah1994

شرفه وأصبح أضحوكة ، فإنك تستطيع بلمسة منك أن تلئم جراحه وتعيد إليه نفسه التي طوحت بها التعاسة بعض لحظات . لن يكون هناك شيء يصعب عليك حينئذ . ثم تذكر أن الأمل ، والأمل وحده ، هو الذي يجعلني أعيش . فأنت لي بمثابة الحكمة للفيلسوف ، والرب للقديس ، وأن هدفي من هذا العذاب الذي يسميه الناس الحياة هو أن أحتفظ بك في نفسي . آه ياحبي ، فأنت الذي أعز فوق كل الأشياء ، يانرجسة بيضاء في حقل مجهول ! فكر في العبء الذي يسقط عليك ، فليس هناك ما يستطيع أن يخففه سوى الحب وحده . ولكن لا يحزنك هذا ، بل أحرى بك أن تسعد ؟ فقد استطعت أن تملأ بالحب الخالد نفس رجل إن كان يبكي الآن في الجحيم فإنه يحمل الفردوس في قلبه . إنني أحبك !... إنني أحبك ! ... فقلبي وردة تفتحت بحبك ، وحياتي صحراء استروحت النسمات من أنفاسك الحلوة ، أماينابيعها الباردة فإنها تتراءى في عينيك ، وإن انطباعات قدميك الصغيرتين توجد لي وديانا ذات ظلال ، وإن شذا شعرك كالعنبر(*) . و بينما ذهبت تضوعت أنفاسك كالكاسيا .

حبي دائماً !... حبي دائماً ! فقد كنت أعظم وأكمل حب لحياتي ، ولا يمكن أن يكون هناك غيره .

لقد رأيت أنه كان أنبل وأجمل أن أبقى . لم يكن في استطاعتنا أن نكون معاً . ولم أكن أريد أن أدعى جبانا أو هاجراً . فليس من شيمتي أن أتركك تنكشف فوق ذلك التل المرتفع حيث تشوه الأشياء الجميلة ، لتكون اسماً كاذبا ، أو قناعاً ، أو حياة تطارد .

ياأجمل الأولاد ! ويامن أحببته أكثر من جميع الأولاد ! إن روحي

(*) الكلمة في الأصل هي myrrh ، وهي تعني « المر » ، ويبدو أن الأمر اختلط على وايلد فيما يتعلق بعطور الشرق . «المترجم»

Twitter: @abdulllah1994

تتعلق بروحك . وإن حياتى هى حياتك ، وفى كل عوالم الألم والسرور فأنت مثالى للاعجاب والفرح .   اوسكار

٧٦ — « فلير - د - ليس Fleur-de-Lys » و « جونكيل Jonquil » كانا اسمى تدليل أطلقهما وايلد على لورد ألفرد دوجلاس. وكان دوجلاس قد كتب قصيدة بعنوان «جونكيل وفلير-د-ليس» حول ابن ملك وصبي من الرعاة تبادلا ثيابهما. وقد نشرت هذه القصيدة فى أشعاره (١٨٩٦) .

٧٧ — السطور الأخيرة من قصيدة وايلد « حول بيع خطابات كيتس الغرامية بالمزاد » .

٧٨ — «سيزار لمبروزو Cesare Lombroso» (١٨٣٦-١٩٠٩) مشرع إيطالى ومتخصص فى علوم الجريمة . ترجمت له كتب كثيرة إلى الانجليزية .

٧٩ — فى ٣ من يونيه ١٨٩٥ نشر الأديب والكاتب المسرحى الفرنسى « هنرى بوير Henri Bauer » مقالا قويا فى صحيفة « صدى باريس » حمل فيه على بربرية الحكم على وايلد ، والغباوة فى فرض عقوبة على ممارسة اللواط . وندد بنفاق الانجليز . وقد وصف « كوينزبرى » بأنه « نوع من حيوان رياضى مؤذى ، وزوج سيئ « ووالد شرير » ، وقال إنه مثال لانجلترا بما لها من شهرة فى « تصنع الحياء » .

٨٠ — « تاريخ سانفورد ومرتون » كتاب تهذيبى للأطفال ، محبوب بصورة واسعة . وضعه «توماس داى Thomas Day» (١٧٤٨ — ٨٩) ، ونشر فى الأصل فى الأعوام ١٧٨٣ — ٨٩ .

٨١ — إلى لورد ألفرد دوجلاس(١)

[مارس ١٨٩٣]   فندق سافوى ، لندن

أى أعز الأولاد جميعاً ،

كان خطابك سارا ، فقد كان لى بمثابة النبيذين الأحمر والأصفر :

Twitter: @abdulllah1994

غير إنى حزين ومنحرف المزاج .

بوزى ،

يجب ألا تدخل معى فى مشاجرات . فهذه الأمور تقتلنى . إنها تدمر جمال الحياة . إننى لا أستطيع أن أراك هكذا جمالا وقبحا . هكذا قد شوهك الانفعال . بلى ، لا أستطيع أن أستمع إلى شفتيك وقد تقوستا لتقول لى أشياءً قبيحة . بل إننى أفضل أن [أدفع أتاوة لكل مشهّر فى لندن] على أن أتعرض لبغضك الجائر المرير . يجب أن أراك خالاً . فأنت الشيء المقدس الذى أريده ... الشيء الذى يجمع بين الحسن والجمال . غير أننى لا أدرى كيف أستطيع . فهل آتى إلى سالزبورى ؟ إن قائمة حسابى هنا ٤٩ جنيهاً عن الأسبوع . ثم إننى حصلت أيضاً على غرفة جلوس جديدة تطل على التايمز . فلم لا تكون أنت هنا ، ياعزيزى .. يا أعجب ولد لى ؟ أخشى أن أضطر إلى المغادرة ، فليس هناك نقود ، ولا رصيد ، وإنما هو طلب من رصاص . المخلص لك

اوسكار

---

(١) هذا النص من «المحاكمات» (صفحتى ١٣٣ و ١٣٤) ، وقد أكمل من خطاب « د برفوندى » .

(٢) نقلت هذه الكلمات من خطاب « د برفوندى » . فقد رؤى على ما يبدو أنها كانت مما لا يصح قراءته فى المحكمة ، إما لغموضها أو لما تضمنته من معنى مخجل .

٨٢ — ارجع إلى تعليق ٨١ .

٨٣ — ارجع إلى الإشارة إلى ذلك فى الصفحات السابقة .

٨٤ — كتب وايلد فى الأصل « فى الثالث عشر من نوفمبر » .

Twitter: @abdulllah1994

٨٥ — « دعنا لا نتحدث إليهم ، بل لننظر ونمض جانبـــاً » (الجحيم ، ٣ ، ٥١) .

٨٦ — ربما كانت الإشارة هنا إلى « الورقة الذهبية » ، وهى آلة قياس كهربية اخترعت فى عام ١٧٨٧ لتقصى شحنات الكهرباء الاستاتيكية ، وان كانت كلمة « اتجاه » لا تعنى هنا شيئاً .

٨٧ — انظر تعليق ٢٧ .

٨٨ — « الجحيم » ٣٣ : ١٣٥ — ١٤٧ .

٨٩ — يحتمل أن يكون ليفى « Levy » هذا شخصاً كان يشتغل مرابيا أو وكيلا شخصيا للاستعلامات . وهناك خطابان ، فى محفوظات كلارك ، منه إلى وايلد : الأول كتب من « الفينستون لودج » فى « هيستنجز » فى ٢٦ من يناير ١٨٨٣ ، وفيه يطلب تحديد موعد فى لندن ؛ والثانى لم يذكر مكان تحريره وقد حمل تاريخ ١٧ من أبريل ١٨٨٤ ، وقد جاء فيه : « عزيزى مستر وايلد ، آسف لإهمالى الاهتمام بأشغالكم ، ولكننى كنت أعانى من برد شديد . أرجو أن تكون « الدانتلا » أعجبت الآنسة « لويد » . وتجدون من طيه شيك بمبلغ ٢٥ جنيها . . المخلص ادوين ليفى » . وتشير كتب دليل هيستنجز إلى أن « إ . ليفى » كان يشغل « الفينستون لودج » من عام ١٨٨٣ إلى عام ١٨٩٥ ، وأن « م . ليفى » كان يشغله عام ١٨٩٦ .

وجاء فى عدد « التايمز » الصادر فى ١٠ من مايو ١٨٩٥ ما يلى :

تم حصر وتقييد إجمالى الممتلكات الشخصية لمستر إدوين ليفى ، وهو ٢٦١٫٥١٨ جنيها . ومستر إدوين ليفى كان أكبر مساهمى شركة متعهدى المرطبات المعروفة باسم « ج . ليونز وشركاهم (المحدودة) » ، ومن مؤسسى « شركة أوليمبيا (المحدودة) » . [وقد مات] فى وست

Twitter: @abdulllah1994

هامستد] فى ٢٦ من فبراير عن ٥٥ عاما ، بغير أن يترك وصية . وحولت خطابات الإدارة إلى أرملته ، مسز ماريون ليڤى » .

وذهب « سجل هامستد » أبعد فى وصفه ، فذكر أنه « لسنوات خلت كان الوكيل السرى للامبراطور نابليون الثالث » . غير أن « إيڤور جست Ivor Juest » يذكر فى كتابه « نابليون الثالث فى انجلترا ، ١٩٥٢ » أن الحكومة الفرنسية كانت مهتمة بمعرفة ماذا كان يحدث فى « ساحة كامدن » (تشيسلهرست) ، وقد استخدمت مخبراً خاصاً يدعى إدوين ليڤى ليقوم بتعيين وكلاء فى طاحونة الهواء فى الجانب الآخر من ملعب الكريكت ويوافيها بتقرير يتضمن أسماء الزوار الذين يتوافدون على المنزل . غير أن جواسيس مستر ليڤى كانوا هم أنفسهم موضع تجسس من آخرين . ففى كل صباح كانت توضع صورة من هذا التقرير على مائدة إفطار الامبراطور .

وليس هناك صلة بين هذين الشخصين والآخرين اللذين كانا يقيمان فى هيستنجز إلا الاسماء والتواريخ . ويبدو أن الأمر مجرد مصادفة .

٩٠ — « ألفرد أوستن Alfred Austin » (١٨٣٥ — ١٩١٣) . نجح أخيراً فى أن يخلف تنيسون فى منصب « شاعر الغار » فى عام ١٨٩٦ ، بعد أن بقى هذا المنصب شاغرا مدة أربعة أعوام . وفى عام ١٨٨٧(*) كتب وايلد فى « البال مال جازيت » يقول : « إن مستر أوستن لا هو بالأوليمبى ولا هو بالتيتانى ، فهو لا يستطيع أن يرقى إلى « بارناس » مهما حاول شعب الصلاة الربانية أن ينفخ فى روحه »(**)

(*) هكذا فى الأصل ، والأقرب إلى الصواب هو ١٨٩٧ . « المترجم »

(**) جبل بارناس Parnasse ، فى اليونان ، موطن الإله أبوللو والربات الملهمات . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

وكان وايلد قد سئل في عام ١٨٩٥ عمن يراه جديرا بأن يكون « شاعر الغار » التالي ، فكتب في عدد أبريل من صحيفة « إيدلر Idler » يقول : « إن مستر سوينبورن هو من قبل شاعر الغار لانجلترا . فإذا كان تعيينه في هذا المنصب السامي لم يتسفل بالتوكيد الرسمي فإن هذا يجعل مركزه أكثر ثباتا . فالشاعر الذي يحبه جميع الشعراء هو بلا شك شاعر الغار دائما » .

٩١ — « جورج سلايت ستريت George Slythe Street » (١٨٦٧ — ١٩٣٦) صحفي وكاتب ، وهو مؤلف « سيرة حياة غلام » (١٨٩٤) وكتب أخرى .

٩٢ — في ديسمبر ١٨٩٥ كتب « كوفنترى باتمور Coventry Patmore » (١٨٢٣ — ٩٦) إلى صحيفة « ساتر داى ريفيو » مؤيدا « مسز أليس مينل Mrs. Alice meynell » (شاعرة وناثرة ، ١٨٤٧ — ١٩٢٢) في مطالبتها بلقب شاعر الغار الذي لم يكن يحمله أحد .

٩٣ — « صورة دوريان جراى » ، الفصل الخامس عشر . وقد ظهر هذا الفصل أولا في طبعة الكتب في عام ١٨٩١ .

٩٤ — سمع استدعاء « كونستانس وايلد » بواسطة القاضي « كيكيفتش Kekevich » في مجلس العدالة في ١٢ من فبراير ١٨٩٧ . وقد صدر أمر يخولها حق حضانة طفليها وتعيينها و « أدريان هوب Adrian Hope » حارسين . (انظر تعليق ١٦٧) .

٩٥ — « هملت » ، الفصل الأول ، المشهد الرابع .

٩٦ — ارجع إلى الصفحات السابقة بصدد ذلك .

٩٧ — « سكان الحدود » ، الفصل الثالث ، « فيه » يجب أن تكون « يشارك » .

Twitter: @abdulllah1994

٩٨ — « امرأة بغير أهمية » ، الفصل الرابع .

٩٩ — « امرأة بغير أهمية » ، الفصل الرابع .

١٠٠ — فى المقال الذى كتب عن « الشعر فى أعمال ميكل أنچيلو » .

١٠١ — « الجحيم » ، ٧ ، ١٢١ — ١٢٢ ، ترجمة « هـ . ف . كارى H. F. Cary » :

حزانى كنا مرة ،

فى الجو اللطيف الذى جعلته الشمس جميلا .

١٠٢ — « المطهر » ، ٢٣ ، ٨١ .

١٠٣ — ربما كانت هذه إشارة إلى السبت ٢٧ من فبراير ١٨٩٧ ، حينما قام روس وإدى بزيارة وايلد .

١٠٤ — ترجمة « كارليل » عن « جوته » فى « سنى تدريب معلم ولهم » ، الكتاب الثانى ، الفصل الثالث عشر ، حيث تكون كلمات « الظلام » أدق من « منتصف الليـــل » و « ترقب » أدق من « انتظار » و « الكئيبة » أدق من « السماوية » .

١٠٥ — هى لويزا Louisa (١٧٧٦ - ١٨١٠) ، زوجة الملك فردريك وليم الثالث . قيل أنها كانت قد نقلت هذه السطور حينما كانت هى وزوجها فى فرارهما بعد معركة « چينا Jena » (١٨٠٦) . وبعد أن أوقعت الهزيمة ببروسيا بصورة تامة فى عام ١٨٠٧ ذهبت لويزا إلى « تيلسيت » لتتوسل عبثا إلى نابليون لتخفيف شروطه . ومع أنه أبدى القبول إلا أنه أراد أن يلطخ شرفها ، غير أنه لم يفلح .

١٠٦ — ارجع إلى الصفحات السابقة بصدد ذلك .

١٠٧ — « سوينبورن » ، « قبل الفراق » (أشعار وقصائد ، ١٨٦٦):
« نطعم » يجب أن تكون « نعيش على » .

Twitter: @abdulllah1994

١٠٨ — « اديلا شوستر » ، انظر تعليق ١١ .

١٠٩ — « ورد سويرث » : « الرحلة » ، ٤ ، ١٣٩ .

١١٠ — « الفصول » ، ٣ ، ٢ .

١١١ — خطأ طفيف فى النقل عن القصيدة المنثورة التى وضعها وايلد بعنوان « الفنان » ، وقد ظهرت لأول مرة فى عدد يوليه ١٨٩٤ من صحيفة « فورتنايتلى ريفيو » . ثم أعيد طبعها فى كتاب « جريمة لورد أرثر سافايل وقطع نثرية أخرى » (١٩٠٨) .

١١٢ — لا بد أن وايلد كان هنـــا يفـكر فى مقال « باتر » عن « ورد سويرث » الذى ظهر فى الـ « مستحسنات » فى عام ١٨٨٩ . فبعد أن اقتبس باتر عن ورد سويرث فى عمليات عناصر ومظاهر الـكون المنظور ، وفى العاصفة وشروق الشمس ، وفى ثورات الفصول ، وفى البرودة والحرارة ، وفى فقدان الأصدقاء والأقارب ، وفى أنواع الإساءة والغل ، وفى عرفان الجميل والرجاء ، وفى الخوف والحزن ، علق على ذلك قائلا : « ان مشاهدة هذه المناظر بانفعالات متناسبة هو الهدف من الثقافة كلها » .

١١٣ — « ولـكن يبقى بعدُ السؤال : « ما هى الاستقامة حقا ؟ إنهـا الطريقة ، والسر ، والتعقل الجميل للمسيح » ، (الأدب والعقيدة ، الفصل الثانى عشر) .

١١٤ — الامبراطور « هليوجابالوس Heliogabalolus » .

١١٥ — مرقص ، ٥ ، ٥ و ٩ .

١١٦ — ارجع إلى الصفحات السابقة بصدد ذلك .

١١٧ — « أرسطو » ، « الشعر Poetics » ، الفصل الثالث عشر .

Twitter: @abdulllah1994

١١٨ — « ميلتون » ، « المفكر Il Penseroso » : « و » يجب أن تكون « أو » .

١١٩ — « الشعر Poetics » ، الفصل الثالث عشر .

١٢٠ — « ميلتون » ، (كومس Comu ، ٤٨٧) .

١٢١ — « جعل نفسه يُحبّ إلى درجة أن الناس لم يتوقفوا بعد موته عن حبه . هذا هو أعظم أعمال عيسى ؛ وهو ما كان أشد وقعاً على معاصريه (الفصل الثامن والعشرون) .

١٢٢ — « ماثيو أرنولد Mathew Arnold » ، « ليلة جنوبية » :

ونرى كل المناظر من قطب إلى قطب ،
ونلمّح ، ونومىء ، ونلغط جانباً —
ولا يحدث مرة قط أن نمتلك أرواحنا
قبل أن نموت .

١٢٣ — في محاضرته «الواعظ» ، وقد نشرت بعد وفاته في «محاضرات ومسودات لتراجم» ، (١٨٨٣) .

١٢٤ — ارجع إلى « دانتى » ، « الفردوس » ، ١٧ ، ٥٩ — ٦٠ :

يا له من طريق صعب .
أن تهبط وتصعد بمرقى الآخرين .

وإلى استهلال وايلد في قصيدته « ڤيرونا » ، وقد نشرت في أشعاره (١٨٨١) :

يا له من مرتقى منحدر في بيوت الملوك
حينما تطأه أقدام أنهكها النفى ، كقدمىّ .

وقد استعمل من قبل السطر الأول في قصيدته « رافنا Ravenna » (١٨٧٨) .

Twitter: @abdulllah1994

١٢٥ — من « رحلة إلى سيثير » Cythére في « زهور الشر » (١٨٥٧) .

١٢٦ — ارجع إلى الصفحات السابقة بصدد ذلك .

١٢٧ — جبل «سيثيرون » Cithaeron كان مشهد حفلات «باخيلوس» الصاخبة في تكريم « ديونيسس » ، ابن سيميل . وفي ذلك المكان ، حيث مروج « إنّا » Enna المتلألئة بالزهور ، قبض « بلوتو » على « بروسربينا » وحملها إلى العالم السفلي .

١٢٨ — أشعياء ، ٥٣ ، ٣ :

١٢٩ — ارجع إلى فرجيل ، النشيد الرابع .

١٣٠ — أشعياء ، ٥٢ ، ١٤ .

١٣١ — ارجع إلى الصفحات السابقة بصدد ذلك .

١٣٢ — « من الجمال » .

١٣٣ — يوحنا ، ٣ ، ٨ .

١٣٤ — « حلم ليلة في منتصف الصيف » .

١٣٥ — الفصل الثاني .

١٣٦ — « خارميدس » Charmides هو الشخصية الرئيسية في حوار أفلاطون ، حيث يبدو كشاب جميل يصور الموضوع الرئيسي ، وهو الاعتدال . أما قصيدة وايلد الطويلة التي تحمل نفس الاسم فإنها تقوم على شخصية خيالية .

١٣٧ — « أنى الراعي الطيب » (يوحنا ، ١٠ ، ١١ و ١٤) .

١٣٨ — « انظر إلى زنابق الحقل ، كيف تنمو ! إنها لا تكدح ولا تدور » ، (متى ، ٦ ، ٢٨) .

١٣٩ — « لقد انتهى الأمر » ، (يوحنا ، ١٩ ، ٣٠) .

Twitter: @abdulllah1994

١٤٠ — مرقص ، ٧ ، ٢٦ — ٣٠ .

١٤١ — ارجع إلى « وردسورث » فى قوله : « إننا نعيش بالإعجاب ، والرجاء والحب » ، (الرحلة ، ٤ ، ٧٦٣) .

١٤٢ — « المطهر » ، ١٦ ، ٨٦ — ٨٧ .

١٤٣ — متى ، ٦ ، ٣٤ و ٢٥ .

١٤٤ — ارجع إلى « دانتى » ، (الفردوس ، ٣٠ — ٣٢) .

١٤٥ — ارجع إلى « أرسطو » ، (الأخلاق ، ٦ ، ٢) ، وإلى « بيندار Pindar » (أوليمبيا ، ٢ ، ١٧) .

١٤٦ — مؤلف كبير يصور المتشابهات فى حياة المسيح والقديس فرانسيس ، كتبه « الأخ بارتولوميوس د بيزا » فى القرن الرابع عشر ، وطبع لأول مرة فى عام ١٥١٠ .

١٤٧ — « اعرف نفسك » ، عبارة كانت محفورة على مدخل معبد أبوللو فى دلفى .

١٤٨ — « بول مارى فرلين Paul Marie Verlaine » (١٨٤٤ - ٩٦) ، دخل السجن لأنه جرح « ريمبو Rinboud » بطلقة من مسدس . أما الأمير « بطرس الكسيفتش كروبتكين » ، وهو مؤلف روسى ، وعالم فى الجغرافيا وفوضوى (*) ، فقد سجن بسبب آرائه السياسية وأعماله . للوقوف على رأى « كروبتكين » فى خطاب « د برفوندى » (١٩٠٥) ارجع إلى (« روبرت روس ، صديق الأصدقاء » ، ١٩٥٢ ، صفحات ١١٢ — ١١٤) .

(*) الفوضوية Anarchie مذهب سياسى واجتماعى يدعو إلى التحرر من الوصاية الحكومية . « المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

١٤٩ — « ماجور جيمس أوزموند نلسن » ، الذى تولى إدارة سجن ريدنج فى يوليو ١٨٩٦ .

١٥٠ — « دانق » ، « الفردوس » ، ١ ، ٢٠ .

١٥١ — « مارسياس Marsyas » كان بشرا ، تحدى أبوللو فى مباراة موسيقية ، فسلخ حيًّا قصد تعذيبه . وقد اتخذ وايلد من هذه الأسطورة مغزى فى كل كتاباته .

١٥٢ — « امبيدوكليس فوق إتنا » :

أواه ، ذلك الحظ جعلنى أرى

ذلك الانتصار للقيثارة المستميلة الجميلة ،

ذلك الانتصار النهائى الشهير ،

حينما تآمر « بان »(*) الحسود مع مارسياس .

١٥٣ — « مارســياس ، ذلك الراعى التعيس » ، (امبيدوكليس فى إتنا) .

١٥٤ — « بعض ما نفــكر فيه من حزن نبيل سيمير أيامنا ما تتضمنه المأساة من عزة أرجوانية » ، (« الناقد كفنان » ، الجزء الأول من « مقاصد ») .

١٥٥ — « امرسن Emerson » : « مقال عن الخبرة » .

١٥٦ — الصحيح هو ٢٠ من نوفمبر .

١٥٧ — الفصل الأول .

١٥٨ — « كليبورن Clibborn » ، وقد أشير إليه فى محاكمة كوينزبرى باسم Cliburn كان مشهرا محترفا . وقد أخفق فى ابتزاز نقود من

(*) أتنا Etna بركان فى سيشل ، وبان Pan هو إله الرعاة .
« المترجم »

Twitter: @abdulllah1994

وايلد فيما يتعلق بخطابه إلى لورد ألفرد دوجلاس (انظر تعليق ٣٥) ، وهو الخطاب الذى سرقه من دوجلاس واحد من عصابة من الشهرين . وقد حكم على كليبورن فيما بعد بالسجن سبع سنوات مع الأشغال الشاقة بسبب جرائم تشهيرية .

أما اتكينز (لتقصى نبأه انظر تعليق ٧١) فربما جاء ذكره هنا التباسا باسم مشهر آخر يدعى « ألن Allen » كان شريكا لكليبورن .

١٥٩ — الكلمات الخمس الأخيرة هى عنوان الجزء الثالث من كتاب بلزاك « مظاهر جلال البغايا وتعاستهن » ، الذى وصلت فيه حياة « لوسيان د روبمبرى Lucien de Rubempré » إلى نهايتها المؤلمة المؤسية بعد أن افتقرت إلى التوجيه السديد . وقد سجل « أو سوليڤان » لوايلد قوله : « حينما كنت صبياً أغرمت بشخصيتين وهما « لوسيان د روبمبرى» و « چوليان سوريل » [وهما الأحمر والأسود فى رواية ستندال] . وقد شنق لوسيان نفسه ، ومات چوليان كذلك على المشنقة ، أما أنا فقد متُّ فى السجن » .

١٦٠ — مشهِّر شهد فى محاكمات وايلد .

١٦١ — هو الشقيق الأكبر لدوجلاس ، برسى شولتو ، لورد دوجلاس عن « هاويك Hawick » (١٨٦٨ — ١٩٢٠) . تزوج فى ١١ من سبتمبر ١٨٩٣ من « حنا ماريا والترز » فى بويتون ، لونستون ، كورنوال . ثم خلف والده فى عام ١٩٠٠ كالماركيز التاسع من آل كوينزبرى .

١٦٢ — « مانون چان فليپون Manon Jeanne Phlipon » (١٧٥٤ — ٩٣) ، كانت تتميز بطابع الرجولة ، وكانت مضيافة تستقبل رجال الفكر والأدب فى صالونها . وقد تزوجت فى عام ١٧٨١ من «چان مارى

Twitter: @abdulllah1994

رولان « Jean Marie Roland (١٧٣٤ — ٩٣) ، وكان يشغل منصباً في حكومة الثورة . ثم وقعا بعد ذلك في مكائد « مارا Marat » ، وقبض على مدام رولان ، فكتبت ترجمة حياتها في « مكان البواب » ، ثم أعدمت بالجيوتين بعد أن قالت عبارتها المشهورة : « أيتها الحرية ! كم من جرائم تقترف باسمك ! » . وبعد يومين من إعدامها أقدم زوجها على قتل نفسه .

١٦٣ — الكابي الاحترام « جورج وندهام George Wyndham » (١٨٦٣ — ١٩١٣) ، ابن المحترم « برسى سكاون وندهام » ، وحفيد لورد لكونفيلد الأول . كان عضوا بالبرلمان عن دائرة « دوفر » منذ عام ١٨٨٩ ، وسكرتيراً خاصاً لمستر « بلفور » في السنوات من ١٨٨٧ حتى ١٨٩٢ . وقد وصل بعد ذلك إلى منصب وزير . كتب عدداً من الكتب في موضوعات أدبية . وكان من أقرباء لورد ألفرد دوجلاس .

١٦٤ — في عام ١٨٨٧ قامت زوجة كوينزبرى الأولى بتطليقه ، فتزوج في عام ١٨٩٣ من آنسة تدعى « ايثل ويدن Ethel Weeden » . وقد حصلت ايثل كذلك على أمر بإبطال الزوجية في ٢٤ من أكتوبر ١٨٩٤

١٦٥ — لا يوجد مثل هذه الاشارة في كل تمثيليات وايلد التي طبعت . غير أنها كانت جزءا من خطاب طويل في مفتتح الفصل الثالث من « امرأة بغير أهمية » . وقد أقنعه «ترى» بحذفه . انظر « بيربوهم ترى » بقلم « هيسكث بيرسن » (١٩٥٦) ، صفحة ٦٩ .

١٦٦ — في يوم ٢٥ من مايو ١٨٩٥ ، وهو اليوم السادس والأخير من محاكمة وايلد النهائية ، بينما كان القاضي يلخص الحكم ، جرى الحوار التالي :

رئيس المحلفين : بالنظر إلى ما كان بين لورد ألفرد دوجلاس وبين

Twitter: @abdulllah1994

وايلد من صحبة ، هل صدر قط أمر بالقبض على لورد ألفرد دوجلاس ؟

القاضى ويلز : أعتقد أنه لم يحدث ، فنحن لم نسمع بشىء من ذلك .

رئيس المحلفين : هل حدث قط تفكير فى ذلك ؟

القاضى ويلز : كلا ، على حد علمى ، فمثل هذا الأمر لا يمكن أن يصدر ما لم يكن هناك دليل يقوم على شىء من الواقع ... شىء أكثر من أن يكون مجرد صداقة . إنى لا أستطيع أن أقول شيئاً ، بل إننا لسنا فى حاجة إلى البحث فى ذلك ، لأن لورد ألفرد دوجلاس قد يواجه اتهاما. وربما كان هناك ألف احتمال لا نعلم عنها شيئاً قد تحول دون ظهوره كشاهد . وأرى أن الواجب عليكم هو أن تتصرفوا فى الأمر على أساس الدليل الذى أمامكم .

رئيس المحلفين : ولكن يبدو لنا أنه إذا كان لنا أن نعتبر هذه الخطابات دليلا على جرم ، وإذا كان لنا أن نستنتج أى جرم من هذه الخطابات ، فإن الأمر ليس أقل انطباقاً على لورد ألفرد دوجلاس منه على المدعى عليه .

القاضى ويلز : تماماً . ولكن كيف يمكن أن يعفى ذلك المدعى عليه ؟ إن تحقيقنا الحاضر هو ما إذا كان هناك جرم يرجع إلى الرجل الواقف فى القفص ، وقد حصلنا على شهادة على جرمه لنبحث الآن فيها . إنى أعتقد أن تسلم مثل هذه الخطابات والاستمرار فى الصداقة لا يقل خطورة على سمعة المتسلم منه على سمعة المرسل . ولكنكم فى الواقع لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً فى هذا الشأن فى الوقت الحاضر .

هناك ميل فطرى إلى إلقاء مثل هذا السؤال : « لِمَ يجب أن يقف هذا الرجل فى القفص وليس لورد ألفرد دوجلاس ؟ » — غير أن الافتراض بأن لورد ألفرد دوجلاس سيستبقى لأنه لورد ألفرد دوجلاس

Twitter: @abdulllah1994

من أشد أنواع التقدير ظلماً . فالأمر مستحيل بصورة تامة لارجاء فيها ، ويجب أن أذكركم بأن أى شىء يمكن أن يقـال لمصلحة لورد ألفرد دوجلاس أو ضده يجب ألا يسمح بأن يؤدى إلى الاجحاف بحقوق السجين . ويجب أن تتذكروا أنه لم يكن من الممكن أن يقوم ادعاء على مجرد تقديم خطابات وايلد إلى لورد ألفرد دوجلاس . وكما تعلمون جميعاً فإن لورد ألفرد دوجلاس قد ذهب إلى باريس بناء على طلب المدعى عليه ؛ وقد بقى هناك . ولست أعلم عنه شيئاً بتاتا . ولست فى هذا بأكثر منكم علما . وربما لا تكون هناك بينة ضد لورد ألفرد دوجلاس . ولكن حتى حول هذا الأمر فإنى لا أعلم شيئاً . إنه أمر لا نستطيع أن نبحث فيه . وإذا سلمنا بأى اعتبار كذلك الذى ذكرت فسيكون فى ذلك أسوأ أنواع الاجحاف .

١٦٧ — « ادريان تشارلس هوب Adrian Charles Hope » (١٨٥٨ — ١٩٠٤) ، كان يعمل سكرتيراً لمستشفى أطفـال فى شارع « جريت أورموند » منذ عام ١٨٨٨ . وقد بقى الحارس الرسمى لطفلى وايلد بعد موت وايلد وزوجته . وكان متصلا بكونستانس وايلد عن طريق علاقة زواج .

١٦٨ — « ديوجينيس الـكلبى Diogenes the Cynic » ، فيلسوف إغريقى عاش من عام ٤١٩ حتى عام ٣٢٤ قبل الميلاد . وكان زاهداً ساخراً ، اتخذ له بيتاً شيئاً كالبرميل ، يحمله حيث ذهب .

١٦٩ — ربمـا كان « فرانك هاريس » ، حسبما جاء عنه هو نفسه . ولـكن الأكثر احتمالا أن يكون « شيرارد » ، إذ أنه سجل اعترافا ممـاثلا .

١٧٠ — المدعى العام ، سير « فرانك لوكوود Frank Lochwood »

Twitter: @abdulllah1994

(١٨٤٧ — ٩٧) ، وقد قام بتوجيه الادعاء في المحاكمة الثانية لوايلد .

١٧١ — « الناقد كفنان » ، الجزء الثاني .

١٧٢ — « كشهيد شاحب الوجه في قميصه من اللهب » ، (الكسندر سميث ، تمثيلية حياة ، المشهد الثاني) .

١٧٣ — ليس هذا « بروتس » شكسبير في تمثيليته « يوليوس قيصر » ، بل هو « جونيوس بروتس Junius Brutus » الذي تولى نفي « تاراكان Tarquin » آخر ملوك روما .

١٧٤ — انظر تعليق ١١٢ .

١٧٥ — « إيفيجينا في توريس Iphigenia in Tauris » ١١٩٣ .

١٧٦ — « إن حملات النقد والثناء تتناوالى قدحا ومدحا بغير أن تعرف شيئا عن حقيقة ... عن قيمتها كلها . فهي لم تتكلم قط عن هذه الحقيقة ، وهي أنني إنسان وجد لأجله العالم المنظور » (جوتيه Jautier) ، كما جاء في عدد أول مايو ١٨٥٧ من صحيفة « جونكور » . وقد استعمل وايلد هذه العبارة في الفصل التاسع من « دوريان جراي » في وصفه لدوريان .

١٧٧ — « لوقا » ، ١١ ، ٥ — ٨ .

١٧٨ — « كيتس » ، « قصيدة عن القصيدة » .

١٧٩ — سيكون السؤال : « ماذا ! حينما تشرق الشمس ، أو لا ترى قرصاً مستديراً من اللهب ، شيئا ما يشبه الجنيه ؟ » .

أواه ، كلا ، كلا ، بل أرى عدداً لا يحصى من سكان السماء يهتفون : « قدوس ، قدوس ، قدوس ، الرب ، الله القادر » ، (« رؤيا من يوم الدينونة ») .

Twitter: @abdulllah1994

شكر وتقدير

لايفوتنى هنا أن أوجه الشكر إلى الدكتور سعد الخادم . فقد كان أول من شجعنى على ترجمة هذا الكتاب . ولو لم يكن فعل ما أقدمت على ترجمته فى مثل هذه الظروف . فهو بذلك قد ساهم بالرأى فى ظهوره ، ولذلك استحق كثيراً من الفضل .

* * *

وبعد ، فقد شاءت الظروف ألا يتسنى ظهور هذا الجزء إلا بعد رحيل المترجم إلى الكويت للبحث عن عمل . وقد كان ذلك بالأسباب التى أشار إليها فى المقدمة ، وهى عدم توفقه إلى الحصول على أى عمل ، بالرغم من كثرة بحثه وسعيه ، وذلك بعد أن عاد إلى وطنه ، مضحياً بعمل لم ينبح عنه بل تركه باختياره .

وهو إذ يختتم هذه الترجمة يترك للقارىء الكريم تقدير الأمر على ضوء مالمسه فى هذا القدر الضئيل من مجهوده . فاذا ما كوّن لنفسه رأياً فى معرفته ومقدرته فهو لن يستطيع إلا أن يفكر فى مثل هذا السؤال . فاذا كان هذا حظ من يخلص للناس بدافع من موهبة تجلت فيه أو فيض من معرفة قضى عمره فى تحصيلها ، فما هى الفائدة من كل هذا العناء ؟ بل ما هى قيمة الحياة فى اعتبار من لايبتغى منها عرضاً زائلا ، ولا يسعى إلى غرض شخصى ، بل يرى أن يكرس نفسه لخدمة الناس جميعاً بابداء فكرة ربما كانت نافعة لهم فى حاضرهم أو وضح صوابها فى مستقبلهم ؟

Twitter: @abdulllah1994

بالطبع لن يكون هناك رد عملي على مثل هذه الأسئلة ؛ فحتى لو وجد القارىء جوابا منطقياً يكون فيه إنصاف لا للمترجم وحده بل لآلاف المتعثرين والضائعين الذين يحملهم الاخلاص لغيرهم على التعرض للمتاعب وتحمل مايشق على النفس الحرة الأبية ، فإنه لن يجد طريقا لابدائه .

لذلك يرى المترجم أن يترك الأمر لله وحده . فهو الكفيل بإحقاق الحق والقضاء على الباطل . وهو تعالى القائل : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

دعوة التوحيد التي دعا إليها المترجم مخلصاً في كل ما كتب ، فأدى به تفانيه في الوصول إلى هذه الغاية الانسانية الكبرى إلى ماهو فيه من حال . فحسبنا الله ونعم الوكيل . وكفى به شاهداً ونصيراً .

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

إنني لا أدافع عن سلوكي ، بل أوضحه ..

هكذا كتب أوسكار وايلد من سجن ريدنج ، حيث حبس بسبب مخالفته قوانين انجلترا الصارمة ضد اللواط .

ان العلاقة الغرامية التي نشأت بين وايلد وابن مركيز كوينزبرى ، لورد الفرد دوجلاس ، بما فيها من تشهير ، حملت المركيز على أن يهاجم وايلد علانية في خلقه وسلوكه . فقابل وايلد ذلك برفع الأمر الى القضاء باعتباره مجرد افتراء . ولشد ما كانت دهشته حينما أدى ذلك الى سلسلة من المحاكمات التشهيرية والادانات . وفي زنزانته في السجن كتب رسالته الشهيرة « د برفوندى » « De Profundis » فجاءت الشماء تفصيليا لا يرحم لغرامه ومآساته .

وهذا الكتاب يحتوى على النص القطعى لهذه الوثيقة الشهيرة ينشر لأول مرة ، كما تنشر معه قصيدة وايلد العنيفة :

القصة الشعرية عن سجن ريدنج

الجزء الثاني والاخير

نشر وتوزيع
مطبعة ومكتبة الدار المصرية
مؤسسة عربية للطباعة والنشر والتوزيع
٢٢ شارع سامى - المالية ت : ٣٢٥٧٨
القاهرة ج.ع.م

الثمن ٢٥ أو ما يعادلها